جواهر التدبر

الطبعة الأولى
1443 هـ
2022 م

اسم الكتاب: جواهر التدبر
التأليف: فؤاد عبدالرحمن محمد البنا
موضوع الكتاب: إسلامي
عدد الصفحات: 312 صفحة
عدد الملازم: 19.5 ملازم
مقاس الكتاب: 17x24
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2022 / 4997
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 966 - 5

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01012355714 - 01152806533

جواهر التدبر

تأليف
فؤاد عبدالرحمن محمد البنا

دار البشير للثقافة والعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي نزّل القرآن فُرْقاناً شديد النّصاعة، وجعل قراءته وتَدبّره فريضةً ماضية إلى قيام الساعة.

والصلاة والسلام على المصطفى محمد الذي عَدَّ تَعلّم القرآن وتعليمه سبباً لصلاح المسلمين ومقياساً لخيرية المؤمنين.

أما بعد:

فلقد هجَرَتْ أمةُ الإسلام القرآنَ في الأزمنة الأخيرة واتّخذَتْه ظِهْرياً، فتاهَتْ في دروب العَصْر وفقَدَت أكاليلَ النّصْر، واستوطنَتْها آفاتُ التخلُّف الماحقة وحلّت بها عللُ الأمم السابقة، وتناوشتها حروبُ العداوات وتكالبتْ عليها حِرابُ الأعداء!

لقد كان هذا القرآن وما زال شرَفاً عظيماً لهذه الأمة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، ولذلك ربط الله هذا التشريف بالجهاد الكبير: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] وهو تعليم القرآن، وذلك من خلال القيام بالتكليف المشار إليه في ذات آية التشريف: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

ولا ريب أن أول سؤال سيتوجَّه إلى المُكلّفين هو سؤال القراءة والتدبر، لأن التدبر طريق الفهم العقلي وسبيل الرشادة الفكرية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

جديرٌ بالذّكر أن جوهر المشروع الذي نذرتُ حياتي له هو تحقيق التفكّر القرآني المنشود، وإيقاظ العقل المسلم الذي استنامَ طويلاً، راجياً أن يعود المسلم إلى وُلوج

بساتين القرآن الزاهية بالأزهار والثمار، وأن يؤوب إلى مناجمِ الفرقانِ الزاخرةِ بالجواهرِ والذَّخائر.

لقد اجتهدتُ في لفْتِ الأنظار إلى فريضةِ التدبّر الغائبة في حياة المسلمين عبر كتب عديدة أهمها (تدبّر القرآن ودوره في النّهوض الحضاريّ بالمجتمعات الإسلاميّة)، وحاولت هذه المرَّة القيام بهذه المهمَّة عبر طريقةٍ عمليّة، تقوم على تأمّل ما تيَسَّر لي من آياتِ القرآن، وبأساليب مختلفة قليلاً عما تَعوّدنا عليها في كتب التفسير.

وصفوةُ القول في هذا الكتاب أنه خلاصاتٌ قصيرةٌ لتأملاتٍ طويلة، وفّقني الله لها في أوقاتٍ مختلفةٍ وفي ظروفٍ متباينة، وقد حاولتُ تنزيل النّصوص القرآنيّة على المستجدّات العصريّة وفق ما وهبني الله مَن فهم، وذلك عَبْر فقراتٍ شديدة الاختزال والتّركيز، مراعاةً لطبيعةِ العصر ولكثرةِ انشغالاتِ النّاس عن القراءةِ وزهدهم بها، ولا سيما أن هذه الجواهر قد نزلت على شكلِ حلقاتٍ يوميةٍ في وسائلِ التّواصل الاجتماعيّ طيلة أربعة أشهر، قبل أن يتمّ جمْعها في هذا الكتاب الذي أَدعو الله أن يكتبَ له البركة والقبول وأن يجعله خادماً لكتابهِ ونافعاً لعباده.

لقد حاول كاتب هذه الجواهر أن يجمعَ في تدبّراته بين جلال المضامين وجمال العناوين، وأن يَقْرن بين عُمْق البُنيان وقوّة البَيان، فعَمَد إلى صياغةِ لغةٍ أدبيّةٍ منضبطة وذات نكهة خاصّة، ويتمنى أن تُعجب قرّاء هذا الكتاب كما أَعجبتْ كثيراً من قراء (الواتس) و(الفيس بوك) و(التليجرام) من قبل، حيث وصلتني مئات رسائل الإعجاب والثّناء من شخصياتٍ كبيرةٍ على مستوى العالم العربي، مُسْتحثةً إيايّ على طباعتها في كتاب.

وأرجو من القرَّاء التَّجاوز عن قليلٍ من التّكرار الذي تَسبّبتْ به طبيعةُ الكتابة الخاصّة في وسائل التواصل الاجتماعي، والبعد في الزمن الذي كُتبت خلاله هذه الحلقات، مع كثرةِ القضايا الواردة فيها وتداخل مفرداتها وتشابه موضوعاتها.

وفي الختام آمل أن تتواصل (جواهر التدبّر) في أجزاءٍ متسلسلة، وفْق ما يفتح الله لي من معانٍ تستوعب مستجدّات العصر وتخدم مقاصد الأصل.

أسأل الله عزّ وجلّ أن يكتبَ لنا الأجر الوفير فيما أصبنا فيه، وأن يباركَ لنا في الأجرِ القليل فيما أخطأنا به، وأدعوه أن ينفعنا جميعاً بما نكتب وبما نقرأ، وأن يُؤتينا الحكمَةَ وفصْلَ الخِطاب.

الخرطوم -السودان

٨ محرم ١٤٣٨هـ

الموافق٩ أكتوبر ٢٠١٦م

❋❋❋

مَزَامِيرُ التَّرقّي

✧ **تعميـــــــق القرآن:**

من يزرعون القرآن في عقولهم وقلوبهم يضمنون أن تنبتَ آياته فيها أشجار الخير، حتى تتحوّل مع طول المدى إلى بساتين غنَّاء وحدائق فيحاء، لا تجد فيها إلا أزهار الجمال وثمار الكمال.

✧ **اكتشاف محاسن القرآن:**

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر: ٥٥]

تمثّل هذه الجملة دعوة للاكتشاف البرهاني لمحاسنِ القرآن، ففي سياق تدبّر القرآن بطريقةٍ علميةٍ منهجيّة ستجد براهين كاملة على أن القرآن كلّه محاسن، فهو متشابهٌ في كمالِه وجماله، ومتناغمٌ في معناه ومبناه؛ ولذلك قال تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢]

✧ **تدبّر القول الثقيل:**

لقد وصف الله القرآن الكريم بأنه قولٌ ثقيل: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]

ولهذا فإنه يحتاج إلى تكثيفِ الطَّاقات المتدبّرة لمقاصدِه والمتفحّصة لمعانيه، وذلك بإعمالِ كافةِ القدرات العقليّة في اكتشافِ كنوزِه واستخراج كوامنه، وتفعيلها في استنباطِ جواهره واستكناه غوامضه.

✧ **تثقيل الموازين والفاعليات:**

يأتي ثقل القرآن نتيجة أن مبانيهِ قليلة ومعانيهِ أغزر من المطرِ وأينعُ من الثَّمر، حيث تكتنز مباني القرآن المحدودة معانٍ غير متناهية، وتتكفَّل له بالجدَّة في كلّ زمانٍ ومكان، وتمنحه الإمكانيّة لاستيعاب كلّ جديد ومعالجة كلّ طارئ، وتهبه القُدرة على إصلاحِ كلّ مُشكلٍ وتقويم كلّ معوجّ.

وهو ثقيلٌ لأنه يملأ الذوات الخاوية والسنابل الفارغة، ولأنّه يطلق القدرات ويذكي الفاعليّات، يشعل الإرادات ويطلق العزائم، وبذلك فإنه يرفع الأقدار ويثقّل الموازين.

✧ **إذكاء ملكات الصّعود:**

يحتوي القرآن الكريم بين جنبيهِ على خرائطِ السيرِ ومعادلات التقدّم، ويضمّ بين دفّتيه أناشيد الحركةِ وأغاني الصّمود، وبين آياتهِ تكمن وصفات الترقّي وقصائد الخلود.

إنه كتابٌ شديد الإدهاشِ والإبهار، فهو زاخرٌ بالعلوم حافل بالأفكار، مترعٌ بالفنون ومشبعٌ بالآداب، بجانبِ امتلائه بالهدايات الكاملة للفردِ والمجتمعِ والدّولة والأمّة والإنسان.

ولاكتشافِ ذلك كلّه لا بدَّ من إطلاقِ مدارك العقل التدبريّة وإذكاءِ ملكات القلب الخشوعيّة.

✧ **الحذر من انتقامِ القرآن:**

إن انسكاب القرآن قبل استقرارِ الإيمان قد يُعرض المرء لانتقام القرآن كما حدث للخوارج والشيعة وأضرابهم، وهو ما حذّرت منه عديد من الآيات بصيغةِ الإخبار، وهو أبلغُ من النّهي حتى لكأنه قد حصلَ بالفعل، قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ**

لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ ﴾ [فصلت:٤٤]، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٦٠] ، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة :١٢٤- ١٢٥].

✧ **الاهتمام بالحدود قبل الحروف:**

ممّا يؤسف له غاية الأسف أن جزءاً كبيراً من طاقةِ الاهتمام بالقرآن هدفها الحروف لا الحدود أو المباني لا المعاني.

وقد نهى الإمام الغزاليّ عن التكلّف والسؤال عن غوامضِ الدّين، وخاصةً من قِبَل العوامّ، واعتبر أن خوضَ هؤلاء في حروفِ القرآن يضاهي "حال من كتب الملك إليه كتاباً، ورسم له فيه أموراً فلم يفهم المراد منها، وضيّع زمانه في مناقشةِ أن قرطاسَ الكتاب عتيق أم حديث، فاستحقّ بذلك العقوبة لا محالة، فكذلك تضييع العاميّ حدود القرآن واشتغالهِ بحروفه أهيَ قديمةٌ أم حديثة"! [الإحياء: ٣/ صر٢٣٨].

❋❋❋

نسبيّة الإنسان

✧ **الإنسان كائنٌ نسبيّ:**

من تدبّر آيات خلق الإنسان في القرآن، نستنبطُ أن الإنسان كائنٌ نسبيٌّ يقع بين الملائكة والدّواب.

فهو يشتركُ مع الملائكةِ في النّفخة النّورانيّة، ويمكن أن يتفوقَ عليها إذا سلط روحه على شروره، وسخّرها لتزكيةِ ذاتهِ والتّرقي بها نحو مالي الكمال.

ويشترك مع سائر الدّواب في الأصلِ الترابيّ الذي هو مبعثُ الغرائز والنّزوات، وأصل الشّهوات والرّغبات، ويمكن أَن يتفوَّق عليها في الانحطاطِ والتسفّل، إن أطلقَ لنفسه الحبل على الغارب، واستهلم طاقات عقله في التّمكين لهذا السقوط، حيث سيضلُّ أكثر من الأنعام وينحطّ إلى أسفلِ سافلين!

✧ **التباين الصّارخ:**

إن انتماء أناسٍ إلى عرقٍ واحد، لا يعني أنّهم انصهروا في بوتقةٍ واحدة، أو أن الوراثة ستطبعهم بذاتِ الخصائص.

فالبيئة عاملٌ مهمٌّ في تحديدِ هويةِ الإنسان وطباعه، والتّربية أهم منها إذا كانت مبنيّة على أسسٍ فطريّة وتسير وفقَ منهجٍ علميٍّ معزز بالوسائلِ الراقية.

وفي القرآن نماذج كثيرة للتّربية الفارقة، ومنها النموذج الإسرائيلي الأشدّ تبايناً في التّعامل مع كرم الله السابغ، وهو ذو شقّين:

- الشقّ الأول يمثله قارون الذي صار مثلاً في الغنى، حتى أن مفاتيح خزائن أمواله لتنوء بحملها العصبة أولو القوّة كما أورد القرآن الكريم، لكنّه كان

شديد الإقتار، وعندما طالبه الناس بالإحسانِ إلى المحتاجين جزاء ما أحسن الله إليه، قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾، وهي الجملةُ التي تلخّص تربية قارون وطبيعته المغرورة التي وصلت إلى حدِّ التألّه.

- ويمثل الشقّ الثاني سليمان (عليه السلام) الذي منحه الله بعد النبوَّة ملكاً منقطع النّظير، حيث سخَّر الله له الرياح تجري بأمرهِ ومكَّنه من معرفةِ لغاتِ الكائنات كالهدهد والنمل، وهيأ الجنّ لخدمته، فكان ملكه عظيماً فريداً.

ورغم ذلك فإن سطوة المُلك لم تُطغه، وسلطته على تلك الكائنات لم تُعمه، بل ظلّ ذلك العبد الخاضع لسيده، الذّليل عند باب مولاه، فقد قال في ذروةِ النّشوة الملكيّة: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[النمل: ٤].

✧ **نسبيّة الإخوة:**

يعلّمنا القرآن أن النعمَ لا تقاس بالكثرةِ أو القلّة، بل بالفاعليةِ والمقصد، وذلك كنعمةِ الأخوة.

فهذان نبيّان من أنبياء الله:

- أحدهما يوسف (عليه السلام) كان له أحد عشر أخاً لكنّهم حسدوه، فآذوه وتآمروا عليه، واستقرّ أمرهم على رميهِ في غيابةِ الجبّ حتى يخلو لهم وجه أبيهم.
- والآخر موسى (عليه السلام) لم يكن له سوى هارون أخاً، لكنّه كان عينه التي بها يرى وعينه التي بها يسمع، وصار يدهُ التي شدّ الله بها أزره، ثمّ بطلبٍ منه أشركهُ الله في تحمّلِ أعباءِ الدّعوة وتعليم الناس.

✧ **نسبيّة الأبناء:**

في القرآن درسٌ عمليٌ بليغ حول نسبيّة الأبناء، وأنهم ليسوا سواء:

- فهذا نوح عليه السّلام يدعو ابنه إلى ركوبِ السفينة معه للنجاةِ من الغرق في مياهِ الطّوفان لكنه عصاه وأبى، رغم أنّه رأى بأمِّ عينيهِ المياه تتصاعد والسّفينة تمخر عباب الماء.
- وذاك خليل الله إبراهيم (عليه السلام) يدعو ابنه إسماعيل لمفارقة الحياة ذبحاً على يديه، استجابةً لرؤيةٍ رآها في المنام، فقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وسلَّم رقبته للذبحِ طائعاً، فأين هذا من ذاك؟!

✧ **تباين الأولاد:**

- ولدٌ يدعوه أبوه للحياةِ فيعصي، وولدٌ يدعوه أبوه للموتِ فيلبّي!
- ابن يحذّره أبوه من الغرقِ القطعيّ الموحى به في اليقظةِ فلا يستجيب، وولدٌ يدعوه أبوه للموتِ الأكيدِ برؤيةٍ رآها في المنامِ فيجيب!
- ولدٌ رغب بالحياةِ معصيةً فأغرقه الله، وولدٌ رغب بالموت طاعةً فأحياه الله!
- ولدٌ أخلد إلى الأرضِ فابتلعته مياهُ الأرض، وآخرٌ لبّى نداء السماء فأنقذه الحيّ القيوم بفداء سماويّ!

❋ ❋ ❋

تلال التخصّص

✧ **عبوديّة التخصّصات:**

قرر الله أهميّة التخصّصات العلميّة، ودعا إلى استباقِ الخيرات من خلالها، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨]

وأدخل هذه الآية وسط مقطع عن تحويلِ القِبلة من القدسِ إلى مكة؛ وذلك ليبرزَ بجلاءٍ قدسيّة العمل، وليوضّح أن التخصّصات العلميّة جوهر العبوديّة لله في محرابِ الحياة، التي ربّما كانت أخطر من العبوديّة في محرابِ الصَّلاة بالنّسبة للمجتمع، وليولّي المسلمون وجوههم شطر تخصّصاتهم تعلماً وأداء.

✧ **تعلم المشارب:**

لأن خالق الإنسانِ وخالق الكونِ واحدٌ أحد، ويعلم طبائعَ من خَلق فإنه يعلم سبحانه وتعالى أن الحياة لن تستقيمَ إلّا بتكامِل التخصّصات، ولذلك خلق في النّاس سائر المواهب والميول النسبيّة وهي المادّة الأوليّة للتخصّصات، وتحتاج إلى علمٍ يستطيع اكتشاف المشارب والمواهب، وإلى صقلٍ بالممارسةِ الواعية التي تنتج خبرات دقيقة.

هذه المعاني نجدها ضمن الظّلال الكثيفة لقولهِ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف :١٦٠].

✧ **منهجُ الاصطفاءِ المهنيّ:**

من تدبّر سورة آل عمران سيجد أن العنوان الأساسيّ لمقاطعها هو الاصطفاء، وخُتمت بقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

كأن هذا المعنى يمكن تنزيله على الترقّي في المجالِ العمليّ وصناعة الحياة، وذلك من خلال:

- الصّبر على طلبِ العلم: ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾.
- الصّبر على البحثِ عن العملِ المناسبِ لطبيعةِ الإنسان وخصائصه وميوله: ﴿وَصَابِرُواْ﴾.
- الصَّبر في الثّغور المهنيّة التي صارت فروضاً عينيّة بعد اختيارها: ﴿وَرَابِطُواْ﴾.
- الالتزام الكامل بمنهجِ الله في أداءِ العملِ المهنيّ، من خلال استحضار رقابة الله، بحيث لا يجده ربّه حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

ولا شكّ أن ذلك كلّه سيصنع الفاعليّة في الحياة، ويحقّق الفلاح الدنيويّ الذي هو فلاح أخروي: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، وهو ثمرةُ الإيمان؛ إذ النّداء منذ البدء للمؤمنين.

✧ **اكتشاف التخصّصات:**

جاء في الأمثال: "ابن الوز عوام" و "هذا الشبل من ذاك الأسد" لكن ما ينطبقُ على الحيوان لا ينطبق بالضَّرورةِ على الإنسان، فكم من فقيهٍ انحدر منه جاهلٌ غبيّ، وكم من تقيٍّ انسلَّ من صُلبه فاجرٌ كفّار.

وعلى مستوى المهن والتخصّصات والمواهب، فإن الوهب الربانيّ والتعلّم الإنسانيّ هما من يقرّران ماذا سيكون عليه الإنسان وليس الوراثة.

ويعلمنا القرآن ما هو أهمّ من المهن، من خلال درس ابن نوح في الإيمانِ والكفر.

وقدّم لنا درس سليمان وداوود في الموهبةِ والخبرة، رغم أنّهما نبيّان ومَلكان، فقد تفوَّق داوود في الأيدي كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: ١٧]، وهي إشارةٌ إلى قوَّته العضليَّة التي مكَّنته من تليين الحديد، وإلى مهارتهِ العمليّة في صناعةِ الدّروع التي تحمي الناس من بأسهم.

ولم يرث ابنه سليمان منه صناعة الحديد، بل كان من أولي الأبصار أيّ أصحاب الملكات الذهنيّة المتألّقة، ولذلك فَهم سليمان ما لم يفهم أبوه في بعضِ المسائل، كمسألة الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم التي ذكرها القرآن، وكان حكمه أصوب: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء:٧٩]، وبالتكامل صار آل داوود أولي الأيدي والأبصار.

✧ **المهنة اكتساب لا انتساب:**

لا ينبغي أن يجعلَ الطّبيب ابنه طبيباً ولا يجعل الفلّاح ابنه فلاحاً وكذا سائر المِهن والحِرف، وإنّما ينبغي اكتشاف ميوله الفطريّة ومواهبه الطبيعيّة، وتشجيعه على المضيّ في طريقها، ومساعدتهِ على صقلها وتنميتها، وحثّه على استثمارها وتوظيفها.

وتساوقا مع الدّرس السابق، يبدو أن سليمان لو ورث الحدادة عن أبيهِ بدون ميله لها فلن يبدعَ فيها مثله، ولو اقتحمَ داوود ميدان العلمِ كسليمان؛ فلن يفلحَ في تعلّم منطق الطّير، إذ كلّ إنسانٍ ميسر لما خلق له!

❋ ❋ ❋

اقتباسات قرآنيّة

✧ **قوارب النَّجاة:**

يا صانعي قوارب النَّجاة وأفلاكِ الفلاح، ويا مجهزي سفائن العبور إلى شواطئ المستقبل البعيدِ عن ظلماتِ الحاضرِ ولججِ الواقع...

واصلوا صناعة السفائن والأفلاك كما فعل أبوكم نوح، ولو سَخر منكم السّاخرون ونالَ منكم المنتقصون، فإنكم بأعينِ الله وتحت عنايته، لكونكم تحبّون خلقه وتنفّذون أمره، ولأنّكم تبتغون تحقيق ما ينفع الناس، وترجون ابتغاء فضلِ الله في استثمارِ سننِ الصَّلاح والإعمار.

✧ **النّذر الخاص:**

انذري أيّتها الأمّة المجاهدة ما في بطنكِ محرراً لله تعالى، حتى يستعملهم لتحريرِ خلقهِ وخدمة عباده، ولنشرِ ضيائِه وإشاعة هداه.

وذلك ليتعهّد الله هذا الجنين في بطونِ المِحن وأرحامِ الفِتن، فيحميه من غاراتِ الفراعنة ومؤامرات السبئيين، ويقيهِ من ضعفِ نفسه ومَن طابور السلولين، وحتّى يتقبّله ربّه قبولاً حسناً وينبتهُ نباتاً حسناً.

✧ **قبلة التمكين:**

أكثروا من تقليبِ وجوهكم في السّماء رغباً ورهباً، ذلاً وضعفاً، حتى يولّينكم الله قِبلةً ترضونها فِي التّمكين، فتستخدمونه لإرضائهِ عزّ وجلّ في عبادةِ صناعةِ الحياة، وذلك من خلال:

- حقوق الله وعمودها الصّلاة.
- حقوق الإنسان وعمودها الزّكاة.

- الشّهادة على الناس وذلك بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]

وبهذا تضمنون عاقبة الدّار، ضمن عاقبة الأمور الإلهيّة، ووفقَ مشيئته النّافذة.

✧ **صناعة العجول:**

إن أحمالاً من أوزارِ المجتمعاتِ الإسلاميّة المعاصرة ما زالت تتجمّع في أيدي أحفاد السامريّ، وهم علماء وبطانات الشرّ وإعلاميوا الزّور، صانعين منها عجول الاستبداد.

وعليه فإن أهمّ خطوةٍ في الخلاصِ من عجولِ الاستبداد هي التخلّص من الأوزارِ والذّنوب ومحاربة السامريين صنّاع العجول، سواء لبسوا بدلات الحداثة أو ارتدوا عمائمَ المحدثين.

✧ **تابوت التوكّل:**

عندما تكون في وسطِ أمواجِ الفِتن ولججِ المِحن، فاحذر أن تفقدَ زمام الأمل، لأنّك حينئذٍ ستغرق لا محالة.

وعليك أن تضعَ آمالك في تابوتِ الأسباب، ثم اقذفه في يمِّ التوكّل، داعياً الله أن يأمرَ اليمّ بأن يلقيه بساحلِ النّجاة وشاطئ النّجاح.

وثق بأن الله سيعيدُ إليك آمالكَ محققةً في الواقعِ لتقرَّ بِها عينك ولا تحزن.

✧ **الشّقاق في أخاديد التّقليد:**

إن الذين لا يحاورون غيرهم إلا في قرى محصّنة بأسوارِ التاريخ الشّائكة وقلاع التّراث الواهية، أو من وراءِ جُدر التّقاليد الراكدة والأسلافِ البالية، سترتدّ طاقة الكراهية إلى دواخلهم، ليصبحَ بأسهم بينهم شديداً، فتجتمع أجسامهم وقلوبهم

شتى، لأنّ الاغتراب عن العصرِ يزرعُ الشّقاق، ولا سيما أن التراثَ ليس شيئاً واحداً بل هو مشاربُ عديدة وأطياف شتى.

✧ **فتح الخلال:**

صحيح أن أعداءَنا يبغوننا الفتنة ولا يألوننا خبالا، لكن نحن من نخلي أمامهم الثّغور ونفتح لهم الثَّغرات، ونحن من يدفعنا الشّقاق لأن نهيئ لهم خلال الدّخول ومنافذ التّسلّل.

❋ ❋ ❋

أَشِعَّةٌ قُرآنيةٌ

✧ **الألْسنةُ النّاريَّة:**

وصم القرآن الكريم المنافقين بأنهم مُرجفون ومُعوِّقون، ووصفهم بأنّهم يُجيدون صناعة القول الذي يُعجب الناس، وبأن ألسنتهم حِداد.

هذه الألْسنةُ الحِدادُ تَشتدّ عند ذهاب الخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٨] والسَلق هو الحرق، كنايةً عن قوةِ الأذى والرمي وعن القذائفِ التي تُطلقها اللّسان.

فكيف بهذا العصر الذي امتلك المنافقون فيه وسائل إعلامٍ قاصفةً للعقول وقاذفةً للقلوب، مزيغةً للأبصارِ ومُزيّفةً للحقائق؟!

✧ **لا يأس مع الوعي:**

إذاً لَمَ أيّها الإنسان(شيئاً) مذكوراً في هذا الوجود فايأس من رحمة الله تعالى، فإن رحمته عزّ وجَلّ وسعت كلّ شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فكيف وأنتَ من سخَّر الله له كلّ شيء؟!

✧ **سفينة اليقين:**

اليقين بأن الله إلهٌ كامل الصّفات، مطلق القُدرة، هو سفينة النّجاة للمؤمن من الغرقِ في لُجَج الشكوك وأمواج الشبهات.

لقد أنجى هذا اليقين الإيمانيّ موسى من الغرق في لجج البحر أو الوقوع بأيدي الفراعنة، عندما قال بكلِّ حَسْمٍ وجزم: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء ٥٢].

✧ **ظلمُ ترك النّقد:**

من أعظم الظّلم أن ينسى الإنسان ما قدَّمت يداه، فلا يُحاسب نفسه على ما فرَّط في جنبِ الله، وعلى ما انْفَرَط عليه من حقوقِ الناس، ويزداد الظّلم عندما يواجهُ الظّالمُ التذكيرَ بالإعراض، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

✧ **نُفُورُ النُّفور:**

من يتمعّن واقعَنا الإسلاميّ لا يجد تفرقاً فقط، بل يصادف تهافتاً على معاقرةِ أسباب الشّقاق وحرصاً على اجتراحِ عوامل الافتراق، وتكالباً على حيازةِ طاقة الكراهية ومشاعر البغضاء، وعلى اكتناز الضَّغائن وتأجيجِ الأحقاد!

ومن يتدبّر النَّصَ القرآني يجدُ أنه شخَّص هذه المُعضلة عند النصارى، معيداً إيّاها إلى نسيان جزءٍ من منهجِ الله المنزّل وهو الإنجيل، قال تعالى: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة ١٤].

وينطبق ذلك على الذين جعلوا القرآن عِضين، فقد صارت العداوةُ والبغضاءُ عقوبةً مُحبَّبةً إلى النفوسِ لصيقةً بطبائعِ النُّفور من شرعِ الله، كأن التّنافر بين المسلمين ثمرة النّفور من القرآن!

✧ **الهداية السببيّة:**

إن عالم الروحانيّات له قوانينه، لكنّه رغم ذلك لا يَنفكُّ عن السّببيّة، فالهداية نتيجةٌ سببها الإيمان، وإذا كانت الهداية بيدِ الله فإن الإيمان بيدِ الإنسان: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]

✧ **الهداية الدنيويّة:**

نتيجة سوء الفهم لهذا الدّين، ضَيَّقَ عامّة المسلمين كثيراً من الدّوائر المتّسعة مثل دائرةِ الهداية، بحيث أصبحت لا تتّسع إلا لشـــؤون الدّين بمعناه التقليديّ الضّيق الذي يشمل العلاقة مع الله عزّ وجلّ فقط، لتخرج شـــؤون الدّنيا وعمارة الحياة منها.

ولأنّ القرآن الكريم لا يفرق بين الدّين والدُّنيا، إذ الدُّنيا في تصوّره محرابُ المؤمن الذي يُطبق فيه الدِّين، ويَتعبّد الله تعالى بذلك التَّطبيق، فإن للهداية شقاً دنيوياً، ولذلك عندما طارد فرعونُ بجيشهِ موسى وقومه واقتربوا من البحرِ صاحوا مفجوعين: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فقال موسى بثقةٍ تهتزُّ لها الرواسي: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٥٢].

❋ ❋ ❋

نِسْبيَّةُ الكائنات

✧ **نسبيّة السماء:**

السماء موضعٌ لتنزيلِ أرزاقِ الناس كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

وأهمّها غيث المطر، حيث تنهمرُ أنهارٌ من المياهِ التي تَبثّ الحياة في أوصالِ الأرضِ وفي عروق الكائنات والنباتات الموجودة فيها، وبدونها تستحيل الحياة إلى موتٍ قاتم.

وعندما يَتَنكَّب الناسُ الصّراط ويُعرضون عن الذّكر، وحينما يَكفرون بالنِّعَم ويعاقرون الظلم، فإن السماء قد تتحوّل إلى منصَّة إطْلاق للصّواعق، أو سقْف إسقاط للكسَف، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]، ويمضي المقطع القرآنيّ متناولاً هذه القضيّة من زوايا متعدّدة إلى أن يقول: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٨].

✧ **نسبيّة العَصَى:**

تتغلغل نسبيّة القرآن في كثيرٍ من القضايا والموضوعات حتى في المعجزات، فقد كانت العصى إحدى معجزاتٍ موسى عليه السَّلام، وارتبطت بالماءِ في موضعين لكن عمل الماء اختلف بين الموت والحياة، فعندما وصل موسى إلى شاطئ البحرِ وكان فرعونُ يطارده، قال له الله تعالى: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] إلى أن غرقَ فرعون وجيشه.

وعندما وصل موسى إلى صحراءِ سيناء واشتكى الناس إليه العطش:﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾ [البقرة: ٦٠]

لقد حَوَّلت العصى البحرَ إلى أرضٍ صمّاء بعد أن اختفى الماء، وفي المقابل فَجَّرت الماءَ من الصَّخرِ الأصَمّ، وهي ذاتُ العصى!

✧ **تَضادّ الصُّوْر:**

لأن كلّ الأدوات والأشياء والظّواهر من خلق الله وملتزمة بأمره، فإن بعضها تُصبح سبباً في الشيء ونقيضه، ونضرب المثل بالصُّور، وهو أداةٌ يُنفخ فيها فيُحدث صوتاً مدوّياً، وقد جعله الله أداةً لأمرين متناقضين، وهما الموت والحياة مثل الماء، وذلك في نفختين:

■الأولى: نفخة الموت وتسمى نفخة الصَّعْق، وتُؤذن بانتهاء كلّ الأحياء في الأرض، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ [الحاقّة: ١٣ -١٥]

■الثانية: نفخة الحياة، وتسمّى نفخة البَعث، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ [ياسين: ٥].

✧ **نسبيّة الوظيفة:**

ليست العبرة بالأسماء ولا بالأشكال وإنما بالوظائف، فالريحُ المفردة يمكن أن تكونَ (ريحاً طيبةً) كما وصفها القرآن عندما تَدفع الأفلاكَ وتُسيِّر السفنَ، ويمكن أن تكون (ريحاً عاصفاً) تُهيِّج الأمواج فتَتَسبّب في الهلاك.

وقد اجتمع ذكْرُ الرّيحَيْن في قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]

✧ **نسبيّة الخشوع:**

إنّ خشوع المؤمن في الدّنيا عزَّةٌ ورفعة، لأنّه استكانةٌ ورجاءٌ أمام ملك الملوك، وتذللٌ وسؤالٌ بين يدي مالك مفاتيح السّماوات ومقاليد الأرض، يؤدّي إلى اكتشافِ أسرارِ القرآن وارتشافِ معاني الصَّلاة، واكتنافِ أفياء الطّبيعة.

أما خشوع يوم الغاشية فهو ذلٌ وهوانٌ، يتجلّى فيه انكسارُ المعصيةِ وهوانُ الفسق، حيث تلحق الخاشعين آنئذ أغلالُ المعاصي وكلاليبُ الشّرور، وترهقهم ذلّة الإعراضِ عن آياتِ الله، ويَدمغُهم سوادُ الموبقات، ويُجَلِّلهم بالعارِ فتمتلئ قلوبُهم بالحَسْرةِ وتَغُصُّ حلوقُهم بآهاتِ النّدم.

✧ **سؤال للتفكّر:**

ماذا نستفيد من هذه النسبيّة في فكرنا الإسلاميّ وفي حياتنا العمليّة؟

❋ ❋ ❋

الثمار الفكرية للفردوس

دروس من حياة آدم الأولى في الجنة

✧ **الفروق بين معصيتي آدم وإبليس:**

- معصية آدم في (النّهي) عن الأكلِ من الشجرة، ومعصية إبليس متصلةٌ بـ(الأمر)، إذ أمره بالسّجود لآدم.
- معصية إبليس ارتُكبت أمام الله مباشرةً عندما رفضَ السجود، ومعصية آدم غير مباشرة، إذ تمّت بعد أمــدٍ من نهي الله له نتيجة نسيانه.
- تسبّب في معصية آدم النّسيان وضعف العزيمة، أمّا إبليس فالكبر سببه ودافعه.
- جوهر الخللِ عند آدم هو (الضّعف)، وعند إبليس اعتقاد (القوّة).
- اندفع إبليس إلى المعصيةِ وحده، بينما دُفع آدم دفعاً إلى المعصية بوسوسةٍ من الشيطان.
- معصية آدم متصلة بـــ (شكٍّ عقليّ) في كون الأكل من الشجرة سبباً للخلود، ومعصية إبليس متصلة بـــ (ريبٍ قلبيّ) ولذلك فإنّه لا يزال في ريبه يتردّد ويتردّى.

✧ **الفروق بعد المعصية:**

- اعترافُ آدم بالخطأ وتَحمّله لمسؤوليته، وميلُ إبليس إلى تبريرِ المعصية وتحميلها للخارج (القدر).
- انكسار آدم أمام الله وطلبه المغفرة منه، ومكابرة إبليس وافتخاره بنفسه وأصله.

- توبة آدم إلى الله توبةً نصوحاً، بينما أتبع إبليسُ معصيته بمعاصٍ أكبر، وهي: تكبّره بأصله، ونسبته الغواية إلى الله، وتفرغه لإغواءِ بني آدم بكلِّ ما يملك من أسلحةِ الإغواء والإغراء.
- تسخير آدم ملَكَة البحثِ عن المعرفةِ في البناء، وتسليط إبليس معرفته على التّدمير.

✧ سنن الصّعود والسقوط:

- الأصل في الحياة هو الحِل والإباحة والتّحريم استثناءٌ محدود.
- المعاصي تهتكُ أستار الإنسانيّة عن البشر، والتّقوى هي لباسُ الله للآدميين.
- التوبة تُعيد خياطة ما انخرقَ من أثواب الخلال الإنسانية.
- الحوار الربانيّ للشيطان وإمهاله.
- أهمية التحمّل الماديّ والروحي.
- المعصيةُ نزول والطّاعةُ صعود.
- مركزيّة البحثِ عن الخلود.

✧ نقاط ضعفِ الإنسان يمكن تحويلها إلى نُقاط قوة:

١. النّسيان حتى يتناسى الناس أخطاءهم وأحقادهم وثاراتهم.

- احتياج الإنسان إلى تذكّر دائم.
- أبواب التذكّر كثيرة: آيات وشعائر وأذكار وأفكار وصدقات.

٢. الضّعف:

- حتى يبتعد عن الغرور، وحتى يتعاون النّاس ويتكاملون.
- الحاجة إلى التّقوى بالتّلاحم والبحث عن أسباب القوّة كافة.

- إغلاق مداخل الشيطان.
- التوبة (النّقد الذاتيّ).

٣. الجهل:

- إنما صُدِّق الشيطان لجهله بنفسه وبطبيعة الحياة(الخلود).
- الجهل يحتاج إلى تعليمٍ وتعلم.

٤. الظلم:

- ولو لم يكن كذلك فما قبل الإنسان حَمل أمانة الاختيار.
- اختار ظلم نفسه بالأكلِ من الشجرة.
- البحث عن المجهول (تذوّق الشجرة) تحويلها إلى طاقة لدراسة آيات الأنفس والآفاق للاستفادة من طاقتها في تحقيق هدف الإستخلاف.

✧ **العلاقة بين الذكر والانثى:**

- النّفس الواحدة تقتضي وحدة الإنسانية والكرامة والتكليف.
- انشطار النّفس إلى شطرين.
- شغف كلّ طرفٍ بالآخر.
- كامل الشطرية هو سرّ سعادة الإنسان فرداً ومجتمعاً.
- الأسرة لَبنة قويّة إذا تكاملت الأفضليّة الوظيفيّة في تحقيق مقاصد الأسرة، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النساء: ٣٤]، ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ [النساء: ٣٢]
- التّشاور والتّعاون.

أضْرارُ التَّــرَفِ

✧ **أصناف (الواقعة):**

في سورة الواقعة قسّم الله الناس إلى ثلاثةِ أصناف: السَّابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال.

هذه هي الأصنافُ الأساسيّة يوم الواقعة، وهي ما تدلّ عليها الوقائع الحياتيّة، حيث ينقسم الناس بين محسنين طاولوا الملائكة في روائعها، وسيئين لم يتورّعوا عن منافسةِ الوحوش في روعاتها، وبين الصّنفين أناسٌ انتصرت خيريتُهم ولكن بصعوبةٍ بالغةٍ وبفارقٍ بسيطٍ عن شرورهم.

✧ **جريمة التّرف:**

عندما وصلت(الواقعة) إلى أصحابِ الشمال بدأت الحديث بالنتيجة التي حصدها هؤلاء وهي التَّسعُّر في السَّموم والحميم، ثم انتقلت للحديث عن المقدّمات التي صنعت هذه النتائج، والجرائم التي أوصلت إلى هذه المهالك، فافتتحها سبحانه وتعالى بالتَّرف: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة:٤٥]

والقرآن لا يَبدأ إلا بما هو أولى وأهمّ حسب المقام، فبدأ هنا بالتَّرف لأنه جريمةٌ (استراتيجية) في مسيرةِ الإنسان؛ إذ قد يُسْلمُه التّرفُ إلى التَّلَف، حيث يُسهِّل له اقتراف الكبائر، ويُغريه باجتراحِ الموبقاتِ والآثام.

✧ **بداية التّرَف:**

يبدأ التّرفُ بالحرصِ الشديدِ على التّرفُّهِ، وهذا لا يتمّ إلا بجمعِ المالِ على أيّ حال، مما يَتسبَّب في اقتَرافِ العديدِ من الجرائمِ والجنايات، وفي اجتياحِ الكثيرِ من الحقوقِ والحُرمات.

ثم يَنْفُخ التّرفُ والثّراءُ كوامن الطّغيان والكُفران في تراب الآدميّ، حتى تَتلبَّسُه اللوثةُ القارونية فيَصيحُ بأَلْسِنةِ قلبه وعقله ويَديْه ورجليه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾.

✧ **أمُّ الكبائر:**

عندما يَدخل المترفُ قصرَ قارون لا يتردّد عن جَعْل نفسه نداً لله، وما دام قد ارتكب جريمة الشّرك فإن اقتراف سائرِ الجرائم يَسهل عليه، حيث تتوالى الجرائم التي يصنعها ويَحضُّ عليها ويُغري بها، ولهذا صَار أمّ الكبائر ومنبع الآثام.

✧ **تَنطُّعُ المُتْرَفين:**

عندما يصاب المرءُ بآفةِ التَّرف، تنعدم عنده أحاسيس الإنسان، ويَختلّ لديه سُلَّمُ الأولويات. ألا ترون مُتْرَفي المسلمين، على سبيلِ المثال، يُخصِّصون عشرات القنوات الفضائيّة للإبلِ والسّيوف وللأزياءِ والرّياضة؟ ألا ترونهم يخصّصون مئات القنوات للموسيقى والغناء والرقص، وللأفلام والمسلسلات، وللتّعارف والطبخ؟! قنوات تقتل أجيالاً كاملةً قتلاً معنويّاً، بينما يموت في المقابل مئاتُ الآلاف من المسلمين كلّ عامٍ جوعاً وقتلاً أو غرقاً وخسفاً دون أن يعلمَ بهم هؤلاء!

أَلَمْ تَروْا بعضَ هؤلاء يُنفقون الملايين على جمعياتِ الرِّفق بالحيوان في الغرب، ويَضِنُّون عن إنفاقِ الملاليم على ملايين المقهورين من المسلمين؟!

✧ **مهرجاناتُ الجنون:**

يقيم المترفون مهرجانات للجنون؛ يعبثون فيها بأموالِ المسلمين بسَفَهٍ أغْرَى الآخرين بالسّطْو على ثرواتنا.

ألَمْ تَسمعوا، على سبيل المثال، عن لوحات رسم غربيّة تُباع الواحدةُ منها بعشراتِ الملايين من الدّولارات لسفهاءٍ يَزعمون أنهم مسلمون؟!

ألم تقرؤوا عن الملايين التي تَبتلعها نوادي القمار والملاهي وبيوت الدعارة، وعن المليارات التي تتبخّر في البورصات وأسواق الأموال، بينما يعاني ملايين المسلمين من المسغبةِ وشظفِ العيش، ويموت ملايين الأطفال كلّ عامٍ من سوءِ التّغذية، ويتردّى أضعافُهم نتيجة الأمِّيّة الفكريّة وسوء التّربية؟

✧ **الثّقب الأسود:**

يبدو أن المترفين هم الثّقب الأسود الذي يبتلع إمكانيات المسلمين، ورغم ذلك ما زالت مجاميع عريضة من المسلمين تتولّى هؤلاء بل وتضع أموالها في خزائنهم، ذلك أنهم لم يَعوا وربّما لم يقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾، ولا يُعطي مالَه للسّفيه إلا من سَفِهَ نفسَه.

✧ **موتى التّرف:**

ألَمْ تقرؤوا عن الآفاتِ والأمراضِ التي صنعتها مفاسد التَّرف في العالم، حيث يموت ملايين الناس سنوياً نتيجة الإيدز وسائر أمراض الانحلالِ الأخرى؟

ألا ترونَ الفجوات الاجتماعيّة التي أَحْدَثَها المترفون في أوساط الناس، ألَمْ تَروا كيف تتحكّم قلةٌ قليلة من الناسِ بمصائر الأغلبيّة؟ ألم تشاهدوا كيف يموت المترفون من التُّخمة بينما يموت الفقراء من الفاقةِ وانعدامِ الدَّواء، مما يُشعل القلوبَ بالكراهية ويُؤجِّجها بالأحقاد؟

✧ **اجتذابُ الهلاك:**

يَجتذب المترفون أسباب الهلاك، ذلك أنهم يَكفرون بالنِّعم والآلاء، فيَفْسُقون عن أمرِ الله ويَجلبون سخطَه ويستنزلون عذابَه.

ولهذا حذَّر الله من تَحقُّق هذه المعادلة، وذلك على صورةِ قانونٍ إلهيٍّ لا يتبدَّل ولا يتغيَّر، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾.

نِسبيَّةُ الشُّرور

✧ **نِسبيَّةُ العَداوة:**

عندما قامت الدّولة الإسلاميّة على يدِ المصطفى (صلّى الله عليه وسلّم)، حمل العالمُ (قبائلَ ودولاً) رايات العِداء ضدّها.

وعلى الرّغم من تراث العِداء من قبل أكبر دولتين في الأرض (الرومانيّة والفارسيّة) ضدَّ العرب، فإن ذلك لم يُصِب المسلمين بعَمَى الألوان، إذ كانوا يَشعرون أن الرومان أقرب إليهم من الفرس أو أقل بُعْداً وعداءً وكفراً منهم، نظراً لأنّهم أهل كتابٍ سماويٍّ وأصحاب حضارةٍ ذات بَصْمة إنسانيّة، بينما كان الفرسُ عُبّادَ نار وأصحاب حقدٍ شديدٍ على العرب.

ولذلك عندما انتصرَ الفرس على الروم حزنَ المسلمون، فنزلت واحدةٌ من أعظم سُوَر القرآن وسمّيت باسم (الروم)، افْتُتحت آياتُها بتسجيل الحادثة وبشّرت المسلمين بانتصار الرومان وإيّاهم خلال بضع سنين: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾، وهكذا هي نسبيّةُ الإسلام دوماً وهكذا تكون موضوعيّة المسلمين عند التزامهم بدينهم، فليس كلّ الأعداء بنفسِ الدّرجة من العداوة، كما أن الأولياءَ ليسوا بنفسِ الدَّرجة من الولاية.

✧ **فائدة النِّسبية:**

وتَبرز نسبيّةُ القرآن حتى في إطارِ أهل الكتاب أنفسهم، فالقرآن هو صاحبُ قاعدة: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾الواردة في سورةِ آل عمران في سياقِ الحديث عن أهلِ الكتاب، واشتملت كثير من سُوَرِهِ على تفصيلِ خارطة الكذّابين، فشرَّحَتْهم أفكارهم وأفعاله.

وفي هذا الإطار أبرزت سورة المائدة عِلَلَ التديُّن عندهم، لكنّها لم تغادر النسبيّة قيد أُنملة، إذْ أكْثرت من ذكرِ (ومنهم، ومنهم)، وفرّقت بين المعاملةِ المُحتَّمة معهم وإعطاء المعروف لهم كتعاونٍ إنسانيٍّ واجب، وبين المَوَدّة والمحَبّة كمشاعر قلبيّة لا ينبغي أن تكون إلا لأولياءِ الله.

✧ **نِسبيّةُ الكفر:**

سورة المائدة هي أكثر سورِ القرآن الكريم تشريحاً لأوضاعِ أهل الكتاب من اليهودِ والنّصارى، وقد وَسَمَتْهم بالكفرِ والافتراءِ على الله، واتهمتهم بتحريفِ آياتهِ وقتلِ أنبيائه، وبالإساءةِ إلى أوليائه وحمل راية العداء لأحِبّائِه.

لكن ظلّت النسبيّة حاضرة والتي يعبّر عنها العلماء بقولهم: (كفر دون كفر)، وذلك نتيجة تدبّرهم لنصوص القرآن الكريم، ولذلك أجازَ الإسلام بعض التّعاملاتِ مع أهلِ الكتابِ ممّا لَا تجوز مع المشركين، كالأكلِ من ذبائحهم والتّزوُّج منهم.

ومهما كانت درجة الكفر فإنه لا ينتصب وحده كسببٍ لتركِ التّعامل الحسنِ فضلاً عن إعلانِ الحرب.

فلقد أوجبت الآية الثانية من سورةِ المائدة التّعاون مع المشركين على ما يحمي حقوق الناس (البرّ) وما يُقدس حرمات الله (التقوى)، ناهياً المسلمين عن انتهاكِ هذا الأمر بسببِ كُرههم للمشركين الذين صدُّوهم عن المسجدِ الحرام وفتنوهم من قبل عن دينهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ ... ﴾ [المائدة: ٢].

✧ **نسبيّةُ الطّغيان:**

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ﴾ [الصافات: ٣٠].

هذا النَّصُ مُوَجَّهٌ من الكبراء إلى من هم دونهم في الظّلم، فلقد اجتمعوا على الظُّلمُ وتآلفوا داخل حظيرة الطّغيانُ، إذ القلوب جنودٌ مجنّدة والقوالب ما هي إلا مرآة القلوب.

وتؤكد هذا المعنى الآيتان التاليتان ٣١، ٣٢، فتَدَبَّرْهُما أيها القارئ الكريم.

✧ **تكفير المسلم:**

من عواقب الجهلِ بنسبيّةِ بعض المفاهيم القرآنية إطلاق حكم الكفر على كلّ من ليس بمؤمن، كأن الإيمان يأتي دائماً نقيضاً للكفر، مع أن الإيمانَ يأتي كمرتبةٍ فوق مرتبةِ الإسلام، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ وبهذا الجهل الفاضح وقع الخوارج وأضرابهم في تكفيرِ المسلمين منذ آخر عصر الصّحابة.

❋ ❋ ❋

بَصَائِرُ التَّدَبُّر

✧ **حظُّ الحظوظ:**

لقد ساءت (حظوظُ) المسلمين في عمارةِ الأرض وصناعة الحياة، عندما نسوا (حَظاً) مما ذُكِّروا به.

✧ **الثُّقل الـدّولـي:**

سيكون لأمتنا ثقلٌ دوليٌّ يليقُ بمكانتها وإمكاناتها، عندما تستمع للقول الثقيل، فتَتَمثَّله وتُبلغه إلى الناس، وعندما تَثقُل موازين المسلمين بالخيرات حتى يصيروا بالنسبةِ لشعوب العالم سحاباً ثقالاً، تَهْطل بالخيرِ وتَسْكُب المعروف، تَصبُّ النّفع وتغيث الخلق، وعندما يَنفرون خفافاً وثقالاً لتحريرِ المستضعفين واستنقاذ المقدّسات ومَنْع الفتنة عن الناس.

✧ **قَـرْطَسَـةُ القُـرآن:**

لقد أكْثرَ القرآن الكريم من ذكرِ علل التديُّن عند أهل الكتاب، من بابِ التّحذير وإن جاء غالبُه على شكلِ إخبار.

ومن ذلك ما يتعلّق بالتّعامل مع الكتاب السماويّ، فقد أخبر بأنّهم يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه، وذلك من خلال قَرْطَسَته وهي الظاهرة التي قال عنها الله عزّ وجلّ: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الحجرات: ١٤]

واليوم يكرّر كثيرٌ من المسلمين هذه الظّاهرة، حيث جعلوا القرآن قراطيس منفصلة، يظهرون ما يؤيد أهواءَهم وقناعاتهم ويُخفون الأخرى.

وقد يكون الإخفاء هنا بالتّأويل المتعسّف ولَيِّ أعناق النّصوص، ولأن القرآن في مصحفٍ واحدٍ لا يمكن تجزئته إلى قراطيس حسِّية، فإن النّصَ يَقصد القراطيسَ المعنويّة، ولكنّه اختار هذا التّصوير الحسيّ لتقبيحِ هذا الصَّنيع.

✧ **الاسْتكبَار الخَفِيّ:**

إن عدم تدبّر القرآن كما ينبغي، بحيث يتحقّق في التّلاوة فهم مراد الله واستقبال القلب لرسائله بالخشوع والخضوع، لهو صورةٌ خفيةٌ من صورِ الاستكبار.

والاستكبار من أهمّ موانع الإقبال على آياتِ الله عامّة والتّفاعل معها كما ينبغي، قال تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]

وتؤكّد هذا الاستنتاج خاتمةُ الآية، فإنّهم بلسانِ الحال يُكذبون بآياتِ الله وغافلون عنها، ولهذا اقترفوا ما اقترفوا من موبقاتٍ فكريةٍ وجرائم عمليّة جعلتهم من أهلِ سبيلِ الغيّ لا من أصحابِ الرشد.

وتؤكد آيات أخرى أن الغافلينَ عن آياتِ الله لا يمكن أن يكونوا مؤمنين بها، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ﴾ [السجدة: ١٥].

✧ **تعلُّم العَربية ضَرُورَة:**

من الضَّرورة بمكانٍ على مسلميّ العالم تَعلّم اللّغة العربية كوسيلةٍ أساسيةٍ في تدبرِ القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان: ٣٠]

ويتّضح هذا الأمر من خلال:

١- قول الرسول (صلّى الله عليه وسلّم): ﴿إِنَّ قَوْمِي﴾ مع أن رسالة الإسلام عالميّة، لكنّهم قومه في اللّغة التي يجبُ أن تكونَ لغة كلّ مسلم، من باب: (ما لا يتمّ الواجب إلا به فهو واجب)، فقد قال (صلّى الله عليه وسلّم) في معنى الحديث:

" ليست العربيّة بأبٍ أو أمٍّ إنما العربية اللسان".

٢-أن التدبُّر أهمّ فريضة في التّعامل مع القرآن الكريم، لدرجةِ أن هَجْره جعل النبيَّ (ﷺ) يَشكو إلى الله تعالى مُقْترفَه، رغم أنه (صلّى الله عليه وسلّم) رحمة للعالمين، دلالةً على أهميّة التدبّر وخطورة تركه.

وإذا كان العربيّ الذي لا يفهم قواعد العربيّة وأساليبها لا يمكنه تدبّر القرآن كما ينبغي، فكيف بالأعجميّ الذي لا يعرف العربيّة أصلاً؟!

✧ خُشـوع الغَـاشِيـة:

من صفات المؤمنين الخشوع أمام جلال الله، فمن كانوا من الخاشعين والخاشعات كما في الآية [٣٥] من سورة الأحزاب بجانبِ الصّفات الإيمانيّة الأخرى، فإن الله أعدّ لهم ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ومن لم يخشعوا في صلاتهم ولا في رُؤيتهم لآياتِ الله المبثوثة في الأنفسِ والآفاق ولا في تلاوتهم للقرآن، فسيكونون – والعياذ بالله – من أهلِ الأبصارِ الخاشعة يوم تأتي الغاشية، كما قال تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[المعارج: ٤٤]

❋ ❋ ❋

غرَرُ المَظَاهِرِ

✧ **عَدم التّوقُّف عندَ المظاهر:**

مهما كان الذي يُلقي التهم شريفاً، ومهما كان المتَّهم شرّيراً، فلا بدّ من التّبيُّن، فقد اتّهمَ أبناءُ نبيٍّ وإخوة نبيٍّ الذئبَ - وهو وحشٌ مُفترس - بالْتِهامِ يوسف عليه السّلام، بل وجاؤوا أباهم بدمٍ كذب، وجاؤوه عشاءً يبكون!

✧ **الحَذرُ حتى مِن النَّاصِحْ:**

ليس كلّ من ادّعى محبّةَ إنسانٍ وأقْسَمَ له الأيمانَ على نُصْحه، ليس بالضَّرورة أن يكون صادقاً، فقد قال إبليس لآدم وحواء؛ كما قال القرآن: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

وتأمل قارئي العزيز المؤكدّات اللّفظية والمعنويّة الحاضرة في هذا النصّ القصير، لتَعْلمَ كم يبذل الأشرارُ من جهودٍ من أجلِ مخادعة الأخيار.

✧ **عَـظَمةُ الصَّغِـير:**

لا تَحتقرْ شيئاً صغيراً مهما كنتَ كبيراً أو عظيماً، فإن ابنَ آدم الأوّل مَكَّنه خيالُه من ارتكابِ أوّل جريمةِ قَتْلٍ في الأرض، لكن هذا الخيال لم يَهْدِه إلى طريقة يُخفي بها جريمتَه ويُواري بها سوأةَ أخيه، ولم يَتعلّم كيف يَحفر لأخيهِ قبراً إلّا من الغُراب، وهو من أحقرِ الطيور!

وتَفكّرْ في أمرِ النّبي سليمان، فقد أعطاه الله مُلْكاً ليس له نظير في تاريخ الإنسانية، ومع قوة إحاطتهِ بما يحدث في العالم، نتيجة عطايا الله الكثيرة له، فإنه لم يُحِطْ بما أحاط به الهدهدُ وهو فردٌ من ملايين الكائنات التي سُخّرت له، حيث قال الله عنه: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النّمل: ٢٢]

✧ **عَـدم الاغْـتِـرار بالمظاهِر:**

لا تَغْترّ بالبكاءِ فقد جاء إخوة يوسف أباهم عشاءً يبكون، بعد أنْ فَرَغُوا من رَمْي أخيهم في غيابةِ الجبّ، ولم يُعْطِفْهم عليه صغرُ سنِّه وبراءَته ووسامته، ولم يُشْفقوا على والدهم ذلك الشيخ الذي كان كَلِفاً به!

ولا تَغترّ بالقولِ المُنَمَّق، فقد قال إبليس: إنّي أخاف الله ربّ العالمين، وهو الذي عصى أمر الله فاسْتوْجبَ غضبَه واسْتجْلب عذابَه!

ولا تَغْترَّ بمظاهرِ الأناقة والجمال، فالمنافقون أجْمَلُ الناس مظهراً وأقبحُهم جوهراً، حيث يَحرصون على تجميلِ مناظرهم ليس لجمالِ نفوسهم بل لإخفاءِ مَخابرهم الخبيثة!

✧ **خَرْقُ الـرَّتْـق:**

لا ينبغي أن تتوقَّف عند الظاهر دوماً، فقد يكون الألمُ مظهراً للأمل، وقد يكون الخَرْقُ أداةً للرّتْق، كما فعل الخَضر عندما خرق السفينةَ حتى لا يُصادرها المَلِكُ الظالمُ من أصحابها المساكين الذين كانوا يَسُدّون فاقتَهم بالعملِ عليها!

لقد ظنّ موسى أن مقصود الخَرْق هو إغراقُ أهلها فغضبَ واستنكر، ولما أَعْلَمَه الخَضِرُ أن القصد هو إنقاذُ أهلها من خطرِ المصادرة اطمأنّ وطابتْ نفسُه!

✧ **أَرْزاءُ الآلاء:**

إنَّ فتْح أبواب النّعَم على الخلْق ليس بالضَّرورة علامة رضى من الله، بل قد يكون علامةَ غضبٍ على نسيانهم لذِكْره، واسْتدراجاً لهم حتى يزداد غيُّهم واغترارُهم، فيرتكبون حماقاتٍ تَستوَجب نزول العذاب الذي يَستأصل شأْفَتهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥]، وكما تنطبق سنّة الاستدراج على المجتمعات تَنْطبِق عَلى الأفراد.

اسْتِشْرافُ المُسْتَقْبَل

✧ **اسْتِدعَاءُ مَصَابِيْح الأَمَلْ:**

يومئُ القرآن إلى الآمالِ وهو يتحدّث عن الآلام والأوجاع، حتّى لا تطغى على حسِّ الإنسان فيفقد إيمانَه بخالقه وثقتَه بربه، ومن ثَمّ يستسلم لها.

ومن أمثلةِ ذلك ما وردَ في سورةِ (الفلقْ)، فقد أُمر صلّى الله عليه وسلّم وأمتُه من بعده، أن يستعيذوا بربّ الفَلَق من شرّ ما خلق.

ويُشْرق الأمل من بين سحائب السّورة، من خلالِ إضافة الفلق إلى الربّ قبل الحديث عن شرورِ الخلق، إنساناً وحيواناً وهواءً، وعلى الأخصّ السواحر اللاتي ينْفثْنَ في العُقـد، فإن الفلق يحمل معنى الانبلاج، ولذلك وصف الله نفسه بأنه: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٥]

وهكذا فإن القرآن عندما يخوض في حوالكِ الظّلمات يستدعي المصابيح، فيشيرُ إلى المَنَافِس في الضَّوائِق، وإلى الانفراجاتِ في الشدائد، حتى لا يَغرق الإنسان في ظلماتِ اليأس أو يَتيه في دياجيرِ القنوط.

✧ **طَاقَةُ القَلَقِ:**

القلق المعرفيّ حالةٌ صحيّة تعتري الإنسان السّويّ، فتفتح شهيّتَه للقراءة، وتدفع طاقته نحو البحث والتّنقيب، وتُذكي سعْيَه لاكتشاف المجهول، بحثاً عن إجاباتٍ لأسئلةِ الحياة ومشاكلها، وعن حلولٍ لأُحْجياتِ الطَّبيعةِ وألْغازِها.

ولذلك وجدنا الخليل إبراهيم يَطلب من الله أن يُريَه كيف يُحيي الموتى، فقال له الله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾.

✧ **غيْثُ الشّوامِخ:**

كُلّما تَعمْلَقَ الإنسان بالتزامِ أمْر اللهِ واجتناب نهيِه، كان أهلاً لتَنزُّل رحماتِ الله عليه وعلى من حوله.

ومَثَلُ هؤلاء المؤمنين كالجبالِ الشواهق، حيث تَجْتلبُ السُّحبَ التي تَصُبّ أمطارَها عليها، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]

وقد ذهب علماء المناخ إلى أن الجبال الشاهقة بمثابةِ مَصْيَدةٍ للأمطار، وهذا مُشَاهد في كافةِ القِمم الجبليّة في الأرض.

✧ **هدْيُ الاهْتِداء:**

إنْ حرصتَ على اقتفاءِ أسباب الهداية متكلاً على الله، فإن الله سيُعطيك أكثر مما أَملْت وأعظم مما رَجوْتَ.

فقد تاهَ موسى (عليه السلام) في سيناء، وذهب يبحث عن قبسٍ هدى يَدلُّه على طريقِ مِصر، فوجد في وادي (طُوى) ما (يَطْوي) أكثرُ الناس أعمارَهم في البحث عنه، وهو الله تعالى، فأين ثُريّا ما رأى من ثَرَى ما أراد؟!

✧ **صُرُوفُ الـدَّهْـرِ:**

أثبتت صروفُ الدّهر أنها لا تنصرفُ عن أحد، حيث يَتقلّب المرء بين جَمْرها وتَمرها، وينتقل بين حُلوها ومرِّها، ويُبتلى بين خيرها وشرّها، ألم يقل الله عزَّ وجلّ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، [الانشقاق: ١٩]، مؤكِّداً الرّكوب باللّام الضاربِ بجذورهِ في أعماقِ اليقين!

مؤكِّداً الركوب باللّام الضارب بجذوره في أعماق اليقين؟

✧ **الإبْصارُ بِأعْيُنِ الله:**

إذا رأينا الحياة بأعين الله، فإن سيرتَنا ستكون سديدةً ومسيرتنا ستغدو مظفَّرةً، وسنفوز بحَسَنتيْ الدُّنيا والآخرة.

ومن أهمِّ مكاسب النَّظر بعين الله انْصبابُ شلاّلات الآمال التي تُنْعشُ أشْدارَ الأعمال، فإن الآمال تُقرِّبُ ما بَعُدَ وتُسهِلُ ما صَعُب، وتُيسِّر ما تعسَّر.

قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٥-٧]، ومن عاشَ مع الله رأى هدفَه قريباً.

❋ ❋ ❋

مَصَابِيْحُ النُّورِ

✧ **انْتِبَاذُ التَّأَهُّل:**

مع أنَّ أهمّ طُرقِ التأهُّل لنيلِ عونِ الله ومَعيَّتِه هي المرابطةُ في ثُغُورِ حقوقِ الإنسان، إلَّا أنَّ المؤمنَ في مرحلةِ بناء ذاته يَحْتاج إلى الانْتِباذِ عَنْ ضَجيجِ النَّاس والنأْي عن مُهاتراتهم؛ حتى يَصفو لُبُّهُ ويُشْرِقُ قلبُه، فيَتأَهَّل لتَنَزّل عَطايا ربِّه.

أَلَمْ تَتَبِذْ مريم بنت عمران من أَهْلِها مكاناً شرقيًّا؟ ألم يَبلُغ حرصُها على الخُلوِّ مع ربِّها بعيداً عن الشَّواغل إلى حدٍّ أنَّها اتَّخذت حِجاباً بينها وبين شَواغل أُسْرَتِها؟!

عندها هَطَلتْ المعرفةُ وهبطت التَّقوى، فتَنزَّلت الكَرامَاتُ عليها حتَّى رَأَتْ فاكهة الصَّيفِ في الشِّتاءِ، وَحَملتْ بالمسيحِ دون واسطةٍ من زوج بل بنفخةٍ من رُوحِ الله!

✧ **انْشِراحُ الرُّوحِ:**

لَمّا لَمْ يكن الإنسان كائناً مادِّياً صرفاً، فإنَّ قوانين المادَّةِ البحْتة لا تَنْطبقُ عَليْه، ومن ثمّ لا تُوفِّر له السَّعادةَ وراحة البال.

فهو مَخْلوقٌ من نفخةِ الله الرُّوحيّة أيضاً، ولذلك لا يَسْعَدْ قلبُه ويرتاحُ بالُه إلاَّ بالزَّاد الرُّوحيّ، بجانب المتطلَّبات المادِّيّة بالطَّبع، وهذا ما يوفِّره الإيمان بالله على أكمل وجه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[محمد: ٢]

وتكفير السَّيئات من أسباب الانْشراح، لأنَّ الذُّنوب تُرهقُ القلوبَ بأثقالِ الهُمومِ والغُمُومِ، وتُفْسِدُها بأوشَاب الكَدَر والتنغُّص، وتَطبعها بالرّان والأَغْشِيَة.

✧ مُصِيبَةُ الْحُزْنِ:

الْحُـزْنُ مِن طبائع الإنْسان اللَّصيقة به، ولأنّه من أَوْشَاب التُّراب فإنَّ علاجَهُ لا يَنْفكُّ عَن الإيمان، فَإنَّ الأمن من آثار الإيمان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]

ومن شُعب الإيمان ذِكر الله لأنه يُورِث أصحابَه الطمأنينة، كما قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]

ولأن الحُزْن إذا حضر فإنَّه يُقضُّ مضاجِعَ الإنسان، وَيُنَكِّدُ معيشَتهُ، فيطبعها بالقَلق ويُدْهقُها بالمرارة، فإنَّ أَهْلَ الجَنَّة يَحمدون الله بعد دخولهم إليها فيقولون: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤]

✧ قَوَارِبُ الْقُرُبَات:

إنَّما يَغرقُ في بحار الحياة وتبتلعهُ الفتـنُ من لَمْ يُخلِصْ عملَه لله، لأنَّ المخلص يبتغي بِكُلِّ الأعمالِ التَّقرُّبَ من الله، فكأنَّ ابْتِغاء (القُرُبَات) بالأعمال يَصْنع له (قـوارب) النَّجاة من الغرق. قال تعالى عن طبيعة المؤمن: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٩٩]

✧ تَرقِّي الإنسان فِي مَدارِجِ التَّقوى:

عندما أوجب الإسلام الصِّيام علَّلَهُ بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وجاءت ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بصيغةِ الرّجاء للإشارةِ إلى جُهدِ الإنسان في الاسْتمداد من محطَّة الصِّيام، فالزَّاد موجودٌ ولكـن جُهد الإنسان المتَّصل بِمُتابعةِ الشَّرعِ

وإخْلاص القصْدِ هُو الَّذي يُقرّر الاسْتفادة من عدمها، وهُوَ الَّذي يُحَـدِّد كَمَّية الطَّاقةِ المُسْتفَادةِ من الصِّيام، مع أنَّ في المحطَّة ما يكفي كُلَّ فرد للوصولِ سالماً غانماً إلى رَمَضَان الآخرِ.

ومن ثمَّ فإنه يوفّر الطَّاقة الرَّافعة له إلى الفِردوسِ الأعلى، لأن الالتزام بمقاصدِ الإسْلام وحِكَمِ مشاعِرِهِ وشعــائرِهِ يُوجِدُ للإنسانِ فِردوساً في دُنياه قبل الفردوس الأزَلِيّ.

✧ لِبَاسُ اللَّيلِ:

وصف القرآنُ اللَّيلَ بأَنَّه لِبَاسٌ، ويَبدو أنَّه لباسٌ عامٌّ، فهو بسَوادِهِ لباسٌ للعَوْراتِ التي تَتَعرَّى بعيداً عن الأعين، وهُو لِبَاسٌ للطَّبائعِ الَّتي تَتَغطَّى بثيابِ السَّكينةِ وتتلفّع أَرْدِيَةِ السُّكونِ، بعد أن تَنْكشف في معاشِ النَّهارِ ونُشُور اليوم، تَحْت شَمْس الضُّحى وقلَق الفكر، وفي دأبِ الحركةِ وشِدَّة الزّحام.

✧ مَصَابِيْحُ الرُّوحِ:

إذا كان الله تعالى قد زيَّن (السَّماء) الدُّنيا بمصابيح النُّجوم وحِفظاً من الشياطين، فَقَدْ زيَّن (الأرض) بِـمصابيحِ الرُّوح وجعلها حِفظاً لَها من مَعيشَـة الضَّـنْك ومِن تـَنَزُّلِ العَذَابِ.

❋❋❋

الثِّمار الفِرْدَوسيّة لآدم

(١ – ٤)

✧ **الفُروقُ بين مَعْصِيَتَيْ آدم وإبليس:**

وقوع معصية آدم في (النّهي) حينما نهاه الله عن الأكلِ من الشجرة فلم يَنْتهِ، ووقوع معصية إبليس في (الأمر)، إذ أمره الله بالسجودِ لآدَم فلم يَسجُد.

ارتُكبت معصية إبليس أمام الله مباشرةً، عندما رفض السّجود لآدم، أمّا معصية آدم فكانت غير مباشرة، إذ تَمَّتْ بعد أمَدٍ من نَهْي الله له.

تَسَبَّب في معصية آدم النّسيانُ وضعفُ العزيمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، أمّا إبليس فقد كان الكبرُ سببُه ودافعه، حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾كان جوهر الخللِ عند آدم هو (الضَّعف)، معتقداً أنه سيقَوِّي ضعفَه بالأكل من الشجرة، بحيث يتخَلّص من الموت ويصبح من الملائكة، أمّا جوهر الخَلل عند إبليس فهو اعتقاده أنه يمتلك (القوة) نتيجة استعلائه بالنار التي خُلق منها!

انْدفَع إبليسُ إلى المعصية باعتقادٍ ذاتي، بينما دُفع آدم إلى المعصيةِ بوسوسةٍ شيطانيةٍ مفادها أن الأكلَ من الشجرةِ سيجعله ملاكاً ويمنحه الخلود الأبديّ.

اتّكَأتْ معصيةُ آدم على (شَكٍّ عقليّ) في كون الأكل من الشجرة سبباً للخلود، واتّصَلتْ معصيةُ إبليس بـ (ريْبٍ قلبيّ)، ولذلك فإنه لا يزال في ريبه يتردّى!

وعندما نسْتقْرئ مواضع الشكّ في القرآن نَجد أنه يمكن أن يصيبَ أيّ مؤمن حتى أن الله قال لرسوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ...﴾، لكنّه يزول بالبراهين والأدلّة، أما الرّيبُ فإنه مرضٌ معقّد يصيب القلب ومن الصَّعب جداً الفكاك منه، ولذلك لا يصيب في العادةِ إلا المنافقين.

۞ حداثة آدم بالحياةِ والمعرفة، إذ كانت هذه أوّل تجربةٍ له، أمّا إبليس فقد كان كبيراً في السِّنّ وصاحب علمٍ وافرٍ وخبرةٍ متراكمة.

✧ **الفُروقُ بعد المعصية:**

۞ اعتراف آدم بالخطأ وتَحمّله لمسـؤوليته، حينما وقف هو وزوجه نادمَيْن مبتهلَيْن: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، أمّا إبليس فقد ذهب نحو تبرير المعصية وتحميلها للقدرِ الذي هو الله، إذ قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ...﴾

۞ انكسار آدم أمام الله وطلبه المغفرة منه بعد اعترافه بالخطأ كما في الآية السّابقة، ومكابرة إبليس في المقابلِ وافتخاره بأصله، ونسبة الغواية إلى الله، وإعلان تصميمه على السّير في ذات الطَّريق المنحرف، بل وأعلن عزمه على جرّ بني آدم إلى هذا الطريق الزّلِق.

۞ توبة آدم إلى الله توبةٌ نَصوح، بينما أتْبَعَ إبليسُ معصيته بمعاصي أكبر، وهي: تَكبُّره بأصْله، ونِسْبته الغواية إلى الله، وتَفرغّه لاحْتِناكِ بني آدم بنا يَملك من أسلحةِ الإغراء، والإغواء كما أوردت ذلك عددٌ من آياتِ القرآن.

تَسخير آدم ملَكَة البحث عن المعرفةِ عنده في البناءِ والتعميرِ بعد أن علّمه الله الأسماء كلّها، واستئثار إبليس معرفته في الهمّ والتّدمير، ومن ثم انشغلَ في نصب حبائل الغواية، بينما اشتغل آدم في نَسْجِ حبالِ الهداية.

❋ ❋ ❋

الثِّمار الفِرْدَوسيّة لآدم

(٢- ٤)

✧ **بواباتُ الضّعْفِ البَشَريّ:**

نتعلّم من تَدبّر قصّة آدم في الجنة، أنه خرج بسبب عوامل كامنة فيه، ويمكن القول إن آدم خرج من بوابات ضَعْفِه العديدة، وأهمها:

۞ بَوّابةُ النِّسْيان:

النسيان نعمةٌ في كثير من الأحيان، حتى يتناسى الناسُ أوجاعهم وأحقادَهم، ويتخلّصوا من ثاراتهم وضغائنهم، وحتى يَتمكَّنوا من العبورِ بسهولةٍ نحو قيمِ التّغافر والتّسامح.

وفي المقابل يحتاج الإنسان إلى تَذكُّرٍ دائم؛ حتى لا يَلِج عليه الشيطان من بوّابةِ النسيان التي قد تُصبح فسيحةً بحسبِ غفلة الإنسان.

ولتحقيق التذكّر توجد عددٌ من العوامل، أهمها:

۞ تَدبُّر الآيات:

سواء كانت آيات قرآنيّة أو كونيّة أو إنسانيّة، فإن التأمل فيها يُذكِّر الإنسان بالله ويَشدّه إليه.

لقد سمّى الله القرآن (الذّكْر)؛ لأن الإبقاء على ذاكرةِ الإنسان في يقظةٍ دائمة، من ثمارهِ اليانعة.

۞ إقامة الشعائر:

للشعائر التعبديّة مقاصد عظمى عديدة، ويأتي التذكّر في طليعتها.

والصَّلاة هي أهمّ هذه الشعائر، وعندما أمر الله موسى بإقامتها قال له: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، وقال لعموم المؤمنين: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، ولهذا فإنني أجزمُ بأن منَ تذكّر الله في محرابِ الصّلاة لا يمكن أن ينساه في محرابِ الحياة.

❁ التّرنُّم بالأذكار:

إن الذِكر اللّفظي المتّصل بالوعي العقليّ والمتصّف بالخشوع القلبيّ، هو عبادةٌ مطلقةٌ ومقيدةٌ في آنٍ واحد؛ إذ أنّه مشروع في أيّ ظرف ويُؤجر الذاكرُ عليه في كلّ وقت، وهناك أذكار مأثورة يستدعيها المرء في سائرِ أحواله اليوميّة، في الدّخول للبيتِ والخروج منه، في دخولِ المسجد والخروج منه، قبل الأكلِ وبعده وقبل النّوم وبعده، في النَّظر للمرآة ولبس الجديد، في رؤيةِ جمال الطَّبيعة ومشاهدة النِّعم التي يتمتَّع بها الناس، وفي أمورٍ كثيرةٍ تنتظم حياة المؤمن وتجعله في حصنٍ من وسوسةِ الشيطان وتَسويل النّفس الطينيّة.

❁ سماع المواعظ:

بسبب الطّبيعة المزدوجة للإنسان فإنه يحمل استعدادات النّسيان وإمكانات التذكر، ومن ثم قد يغفل عن دخولِ حصن الذكر، وقد يؤدّي الشعائر دون حضور العقل والقلب فلا يخرج منها بأيّ طاقة تُذكِّره بالله تعالى.

ولهذا جاءت فريضة التذكير، عَبْرَ النّصائح والمواعظ التي تزيل غشاوة النّسيان وتَقْشعُ حجابَ الغفلة، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

۞ بوّابة الضَّعْفُ:

خلق الله الإنسان ضعيفاً، حتى لا يصيبه الغرور ولا يقع في الكِبر ولا يندفع إلى الطّغيان، وحتى يتعاون النّاس مع بعضهم ولا يتباينون، ويتكاملون ولا يتآكلون.

ويحتاج الناس دوماً إلى التّقَوِّي بالتّلاحم والتّعاضد والتّسلّح بالبحثِ عن أسبابِ القوّة كافة.

وما دام الإنسان يعرف طبيعته الضّعيفة، فلا بدّ له من إغلاقِ مداخل إبليس، والبقاء في حالةٍ من اليقظةِ والانتباه، ما استطاع إلى لكَ سبيلاً.

ويقتضي الضَّعف الإنسانيّ من المرءِ أن يراقبَ ذاته ويُشدّد الحساب على نفسهِ الأمّارة بالسوء، من خلال ما يُسمّونه اليوم بالنَّقد الذاتيّ.

ولا بدَّ أن يُوقنَ أنه مهما فعل فلن يَنْفكّ عن بشريتهِ وسيخطئ حتماً، ومن ثمّ لا بدَّ له من معانقة قيمة التّوبة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وتدبّر كلمة جميعاً ولاحظْ أن النداءَ للمؤمنين!

۞ بَوّابةُ الجهل:

لقد كان الجهل من البوّابات الرئيسيّة التي وَلَج الشيطانُ من خلالها إلى آدم، وما قَبل أن يَتحمّل أمانةَ الاختيار إلا لظُلمه وجهله، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ وإنّما صدّق آدمُ وساوسَ الشيطان لجهلهِ بنفسهِ وبطبيعةِ الحياة، حيث صدّق بأن الله نهاه عن الأكلِ من الشجرة لأنّه لا يريد له الخلود!

ومن المؤكّد أن الجهلَ لا يزول بالأماني والأحلام، وإنّما يحتاج إلى تَعلّمٍ واستفادةٍ من كلّ صاحب علمٍ ومعرفةٍ ومن كلّ ذي خِبْرةٍ ودراية.

۞ بوّابةُ الظُّلْم:

❁ لو لم يكن الإنسان ظالماً بطبيعةِ تكوينه، ما قَبِل أن يَحمل أمانة الاختيار في العبادة، كما مرّ في الآيةِ السابقة، وكان سيُشْفِق على نفسه من خطر السّقوط في الامتحان، إذ لا قَرارَ للساقطين إلّا في النار!

❁ ولو لم يكن ظالماً لنفسهِ ما أكل من الشجرة المُحَرَّمة، تاركاً فردوساً كاملاً من الطَّيبات التي منحها اللهُ إياه.

❁ إن هذه الطَّبيعة الممزوجة بظلم الصّلصال تحتاج إلى قوةٍ كبيرة، تساعد المرء على ترويض نفسه وتطويعها للخير والعدل، وتبتعد بها عن مزالق الظُّلم والطُّغيان، مع ابْتدار العمل الجَمْعيّ لمَنْع الظُّلَم من التّكَوُّن واجتثاث القابليَّة للطُّغيان.

ويجب في هذا السياق نَقْل طاقة البحث عن المجهول (تَذوُّق الشجرة) من عالم الغيب إلى عالم الشّهادة، حتى يتمّ استثمار آيات الأنفس والآفاق في تحقيق هدفيَ الاستخلاف والاستعمار.

❋ ❋ ❋

الثِّمار الفِرْدَوسيّة لآدم

(٣- ٤)

✧ **قِيَمُ الصّعود والسّقوط:**

إذا تأمّلنا حياة آدم في الجنة كمقدمةٍ للحياة الدنيا، سنجد فيها حضوراً لقيمِ السّقوط والصّعود، وفي مقدمة هذا القيم:

۞ الأصل في الأشياء هو الحِل:

لقد أطلق الله العنان لآدم في الجنة ليفعل ما يريد ويأكل ما يشاء، وحرّم عليه الأكل من شجرةٍ واحدةٍ فقط، وهو مؤشّر إلى أن الحِلَّ هو الأصل وأن الإباحة هي الطبيعيّة، أما الحُرمة فهي استثناء ولا بدَّ لها من دليلٍ سماوي لأن التحريم حقّ الله وحده، وفي منطقة المتشابهات فإن الفقيه الحقّ هو الذي يُيَسر على الناس، جرياً مع قاعدة التيسير والإباحة الأصلية.

وقد ربط النبي (صلّى الله عليه وسلّم) الهلاك بالتشدّد والتّنطّع أو التفلّت والانحلال، أيّ بإدخالِ الحلال في دائرةِ الحرام أو إدخال الحرام في دائرةِ الحلال.

✧ **المعاصي تَهْتكُ أَسْتارَ الإنسانيّة:**

خَلَق الله البشر من التراب، وفي هذا المستوى من الخِلْقة يشترك الآدميّون مع سائرِ الحيوانات في الغرائزِ وحتى في المَظْهر المُتعَرِّي.

وعندما نفخ الله في آدم من روحهِ مَنَحَه كرامةً لم يُعطها لأيٍّ من الكائنات، وابتدأ التكريم بأمره تعالى للملائكة بالسجود لآدم بعد اكتماله كإنسانٍ عندما نفخ فيه من روحه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ ومن ثمّ فإن

الآدميّ عندما يَخلع رِبْقةَ الطَّاعة لمن منحهُ نفحة الكرامة يَفقد تلك الكرامة ويتردَّى في ظلماتِ التُّراب، فيعود إلى طبيعتهِ البشريّة العارية من كلّ قيمةٍ وخُلُق.

ولأن الله أرادَ أن نفهمَ هذا المعنى المُجرّد، فقد جَسَّده لنا بطريقةٍ حسيَّة، عندما سقطت ثياب آدم وحواء بعد معصيةِ الأكل من الشجرة، وطفقا يخصفان عليهما من وَرَق الجنة!

خِياطةُ التوبة للخِلال الإنسانية المُنْخَرِقَة:

إن انطلاق الآدميّ للترقيع عندما يرتكب المعصية لا يُجْديه شيئاً، كما لم يُجْدِ آدم وحواء شيئاً، وبدون التَّوبة سيستمرُّ التّعَرِّي وتتوحّش الطِّباع.

ولمعرفةِ الله بطبيعةِ الآدميّ فقد أعطاه فرصةً للانتقالِ من (عُرْي البشريّة) الوَضيعة إلى (لباس الإنسانيّة) الرفيعة، وذلك بالعودةِ إلى الاستظلال تحت راية هُدَاهُ التي لا يَضلّ ولا يَشقى مَن استقامَ تحتها.

✧ **ضرورة الحوار:**

سجّلت القصّةُ حوارات عديدة بين الله وملائكته، وبين الله والشيطان، وبين الله وآدم، مما يُبيِّن ضرورة الحوار في حَلّ المشاكل ورفْع الإشكالات، وأهميّته في إقامةِ الحُجّة على مَن خالف حتى يَهلك عن بَيِّنة، وبدونه ستشيع في الناس غرائزُ الدواب وتسود عندهم شرائع الغاب!

وبجانب الحوار هناك التَّسامح الذي برزَ في إجابة الله لطلبِ إبليس بالإنظار إلى يومِ القيامة رغمَ كفرهِ وإساءَته الأدب مع الله!

✧ **أهميّة التّجَمُّل الماديّ والرّوحيّ:**

في التعليق القرآنيّ على قصّةِ آدم وزوجه وبُدُوِّ سوآتِهما، أمر تعالى بَنيه بالاستفادة من الدرس؛ بأن يأخذوا زينتهم عند كلّ مسجد، ويتَّخذوا من آلاء الله لباساً

كالرّيش، مع مراعاة التّوازن القائم في تركيبة الإنسان المزدوجة، وذلك بتزيين الرّوح أيضاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾

وبالطَّبع فإن التّزيُّنَ والتّجَمّل يجريان وفق قاعدة الفردوس، وهي أن الأصل في الأشياءِ الإباحة، ولذلك لم يُحرِّم الإسلام من اللّباس تحريماً ذاتياً إلّا الحرير.

وقد أثبتت الدِّراسات العلميَّة وجود علاقةٍ وثيقة بين التّجَمُّلَيْن الروحيّ والماديّ، فجمال الرّوح ينعكس على الجسم بالرضا والنّضارة ويُزين الجسم بتقاسيم غير محسوسةٍ تزيد المرءَ جمالاً، والعكس صحيح فالذين يَحرصون على التجمّلَ الطبيعيّ دون دافعٍ من كبر أو بحثٍ عن شهرة، تنعكس نظافة الجوارح عندهم على نظافةِ الجوانح، ويُؤثِّر جمالُ الثّياب على جمال الأخلاق.

✧ **منازل المعاصي ومعارج الطاعات:**

إن ممارسة المعاصي سهلةٌ على الإنسان؛ لأنها تَنحَطُّ به من معالي الملائكيّة إلى أسافلِ الحيوانيّة.

ولتجسيدِ هذا الأمر وتذكير الإنسان به دوماً، ارتبط هبوط آدم من الجنةِ بغريزةِ الأكلِ من الشجرةِ الحرام، وجعل تعالى العودة إلى الجنة منوطاً بامتثال الإنسان لمنهجِ الخلافة في الأرض، فالطَّاعات هي معراجُ الصُّعود إلى الجنة بل والصُّعود في فَرْدَسَة الأرض والحصول على التّمكين فيها.

ومن المؤكّد أنها الطاعات المُمْتدّة في شُعَب الإيمان كلّها والمنسابة في محرابِ الحياةِ كلّها، وفي مقدّمتها قراءة آيات الأنفس وتوظيفها في خلافةِ الله، وقراءة آيات الآفاق واستثمارها في استعمارِ الأرض.

✧ **مركزيّة البحث عن الخلود في أنشطةِ البشر:**

لقد ظلَّ الموتُ مُؤرّقاً لبني آدم، جرياً على طبيعةِ آدم الذي لا بدَّ أن هذا الأمر أَهَمَّه، فاستغلّه إبليس وقال لآدم: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾

وظلَّت الأديان تستثمر رغائب الخلود في تهذيب سلوكيّات الإنسان، من خلال التأكيد على حياةِ الخلود الأخرويّ إمَّا في النَّعيم المَقيم أو في الجحيمِ الدَّائم.

وحتى النِّحَل التي لم تُؤمن بالآخرة ذهبت إلى تَمْنية أتباعها بالخلود، من خلال ابتداع عقيدة الحلول والاتحاد!

أمّا الإسلام فيدعو ابنه لتعمير الأرض بمشاعر الأُخْرَويّ الذي يموت غداً، وبمعارف الدُّنيَويّ الذي يعيش أبداً.

❋❋❋

الثِّمار الفِرْدَوسيّة لآدم

(٤ - ٤)

✧ **العلائق بين آدم وحواء:**

إن تَدبّرَ حياة آدم الأولى يَضع اللّبناتِ الأولى للرؤيةِ الإسلاميَّة في علاقةِ الرجل بالمرأة، وفي هذا المقام سنتوقّف باختصارٍ مع العناوين الآتية:

✧ **وحدة النّفس الإنسانيّة:**

لقد أكّد القرآن أن الله خلق آدم وحده، ثم شَطَر منه زوْجَه حواء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ...﴾ وصرّح النبيّ ﷺ بأنّها خُلقت من ضلْعِ آدم.

فهي إذاً نفسٌ واحدة وليست نفسين، مما يقتضي وحدة الأصل الإنساني، وتَماثُل الكرامة، وواحديّة الحقوق والتّكاليف العامّة.

وبذلك نَسَفَ القرآن كل دعوى تنال من المرأة وأبطل كلَّ دعوةٍ للانتقاص منها.

✧ **فطريّة التَّزاوج بين الجنسين:**

لقد انشطرت النَّفس الواحدة إلى شطرين، ومَيّز تعالى كلّ شطرٍ ببعض الخصائص، حتى تتكامل الحياة وتستقيم المسيرة.

وينبني على هذه الحقيقة أصلان:

۞ الأول: شَغَفُ كلّ طرفٍ بالآخر:

فحواءُ تَعشق آدمَ وتهفو للعودةِ إليه بعد أنْ انْشطرتْ من ضِلعه الأيسر حيث القلب والعواطف الجيّاشة، إنها تريد العودة إلى قلبِ الرجل، وبدون ذلك لا تشعر بالسّكينة والأمان ولا تُحسّ بالدفء في صقيعِ الحياة!

ولا يزال آدم مُغرَماً بحواء ولا يستطيع العيش بدونها، فهي الشِّق الذي انْشَطر من جانبِهِ الأيسر، وكأن قلبهُ ذهب معها!

۞ الثاني: تكامل الشطرين إكْسير السّعادة:

إن اجتماع شطري النّفس الواحدة هو سرّ سعادة الإنسان فرداً ومجتمعاً، ذلك أن الأسرة محطّةٌ هامّةٌ من محطّاتِ السعادة، فهي إكْسير السَّعادة ومصنع الأفراح.

ويتمّ العبور من لَفَحات الفرديّة التّعيسة إلى نَفَحاتِ الوحدة السعيدة عبر الزَّواج الشرعيّ، والذي أشارَ الخالق إلى عناوين حكمته فقال عزّ وجَلّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾، ولعظم ما يُحدث الزواج من تآلفٍ وتكاملٍ بين الزّوجين ختمَ الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ومن يَسْتقرئ تاريخ الأمم التي تَعرّضت للدَّمار وسقطت من المَتْن الحضاريّ إلى هوامشِ التخلّف، سيجد أنّها ناقضت سننَ الله وتَمرّدت على الفِطرة، ومن ذلك تعطيلها لوظائفِ الأسرة بأيّ صورةٍ من الصُّور.

✧ **أُخوّةُ التكامل لا التّماثل:**

إن انتقال علاقة الذَّكر بالأنثى من دائرة التَّكامل إلى دائرةِ التَّماثل، يُسبب الكثير من الآلام للزَّوجين، حيث يُذْكي بينهما التّنافس الحاد، وصولاً إلى الصِّراع الذي يَنسف السَّكينة، ويَقضي على الحُبّ، ويَضع السَّعادة في كَفّ عفريت.

ولو أراد الله أن تقومَ علاقة الرجل بالمرأة على التَّماثل لَخلقَ حواء منفصلة عن آدم، لكن انتزاعها من الشّق الأيسر لآدم حيث يتربّع القلب، ذو دلالةٍ عميقةٍ على تمييز الخالق لها بالعواطفِ التي تُمكّنها من الاستمتاع بدورِ الزّوجة والقيام بوظيفةِ الأمّ، حيث تصبح مصدراً للحُبّ ومثوىً للحنان، مع ما يرافق ذلك من نعومةِ الخَلْق والخُلُق.

ولأن الرّجل يحتاجُ إلى مُعارَكةِ الحياة ومُغالبةِ الطَّبيعة وإلى طلبِ الرِّزق ومصارعة الأشرار، فلا بدّ أن يكون عقله أكبر من قلبه، ولا بدَّ أن يتحلَّى بقدرٍ من الخشونةِ الطّبْعيَّة بجانبِ الخشونة الجسميَّة.

وبهذا الاختلاف النسبيّ يَتحقَّق التَّكامل ويَمتلئ البيت بالسَّعادةِ والحبور، حتى يُصبح قطعةً من جنّة آدم وحواء الأولى.

✧ **القَوَامةُ تكليفٌ لا تشريف:**

وَرد في كثيرٍ من الآيات ذكْرُ آدم دون حواء، ولا سيما عند ذكر معصية الأكل من الشجرة، كقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ ولم يَذكر حواءَ رغم أنَّها أكلت معه كما وردَ في آية أخرى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا﴾، ويُشير هذا إلى قَوَامَةِ التّكليف، حيث يتحمَّل آدم المسؤولية الأعظم؛ لأن حواء مجبولة على السّيرِ خلفه، ولو لم يأكل من الشَّجرة ما أكلت.

✧ **الأفضليّة النِّسْبية:**

لو سأل سائل لِمَ أعطى الله القوامة لآدم؟ وهل فيها تفضيل؟

سيجد المتدبّر أن آيةً واحدةً قد أجابت على السؤالين، وهي: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: ٣٤]، وبالنسبةِ لإنفاق الرجل فهو أمرٌ واضح، ولا شكَّ أن من يُنفق ليس كمن لا يُنفق، ولكنْ ما هي الأفضلية هنا؟

إنّها القوَّة العقليَّة الأكبر والتي تقابلها قوّة العواطف عند المرأة، وهي القوةُ الجسديَّة وخشونة الطَّبع مقابل نعومة المرأة وتفوّقها الجماليّ، ولهذا قال تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ ولم يَقل بما فضَّل الله الرجال على النّساء، مع أن المقام مقام ذكر أفضليّتهم، ولكن الله الذي أحْكَم آياتهِ صاغها هكذا، حتى لا يَتوَهّم أحدٌ وجود أفضليّة مطلقةٍ للرّجال.

وأكّد في مقام آخر على هذا المعنى الدّقيق، داعياً كلّ جنس إلى الاقتناع بأفضليته النسبيّة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢].

✧ **التّشَاوُر والتعاون:**

ما دام آدم وحواء مخلوقين من ذاتِ الأصل، ويَمتلك كلاهما قدراً من الأفضليّة النّسبيّة، وعليهما نفس الواجبات ولهما ذات الحقوق العامّة، فإن الشورى حقٌّ لهما، والقيام بأعبائها واجبٌ عليهما، كما لمحنا آدم وحواء في سائرِ الأحداث حاضرَيْن بالتّوازي، وهذا ما نَصّتْ عليه آيات عديدة في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، مع العلم أنّ كلّ آيات الشورى عامّة، وتدخل تحتها النّساء مع الرجال، وذلك كسائرِ الصّفَات الإيمانيّة والأوامر التعبديّة، وهذا ما جسَّدهُ المصطفى (صلّى الله عليه وسلّم) بمشاورتهِ لعددٍ من النِّساء كعائشة وأم سلمة.

أمّا الذين حرَموا المرأةَ من حَقِّ الشورى فهم الذين ابتعدوا عن تدبّرِ القرآن وورثوا عِلَلَ أهل الكتاب، آخذين مَرْوياتهم السّقيمة التي تنال من المرأة، ابتداءً من الزّعْم بأن حواء تعاونت مع إبليس وأغْرَت آدمَ بالأكل من الشجرة، ووصولاً إلى الزعم بأنّها مجبولة على الخطأ المَحْض، حتى كذَب بعضُهم على النبيّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) وزعموا أنه قال: (شاوروهنّ وخالفوهنّ).

❋ ❋ ❋

بَصَائِرُ الْقُرْآنِ

✧ **الإبْصَارُ بالآياتِ:**

العلمُ بآياتِ الله يفتحُ الأبصارَ، ويُفَـتِّقُ البَصائرَ، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]

ولذلك وصَف الله المؤمنينَ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]

وسَمَّى تَعَالى آيات القرآن بالبَصائرِ فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]

✧ **مُشَاقَّـةُ القُرآن:**

إنَّ جَوهَر مشَاكِل المُسلمين في زَمَانِنَا هذا أنَّهم اتَّخَذُوا هَذا الْـقُرآنَ مَهْجوراً أو جَعلوهُ عِضين، واتَّخَذُوا السُّنة النَّبَويَّة ظهريًّا، وتعاملوا مع المصَاحفِ الْكَريمَةِ كقَراطِيسَ يُبْدُونَ منها ما اتّفق مع أهْوائهم وعصبيَّاتهم، ويُخفُون مَا يَنْقُضُ أفكارَهم وأفعالَهم!

وبذلك صارَ كثير منهم يُشَاقُّون كتابَ اللهِ، حيْث يَسيرُون بِمُوازاته أو يُواجهونه، فَمِنْ أيْن سَيأتِيهمُ الهدى؟

ومن سَيكون إمامُهم وحادِيهم إلى الخيْراتِ، ومن سَيحْميهم من الوُقوعِ فِي الشُّرور والمَضَرَّاتِ ؟!

✧ **الْعَربيَّةُ لُغَة الْعقْلِ الأُولَى:**

عَلَّلَ اللهُ إنزال القُرآن الكريم باللُّغَةِ العَربيَّة فَقَـال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]

وهذا يعني أنَّ العربيَّـةَ لُغةُ العقْلِ الأولى بين سائرِ اللُّغَات، وذلك كما أظنّ لِعَواملَ عديدة، مِن أَهَـمِّها ثَـرَاءُ العَربيَّةِ بالمفردات، بحيـثُ تُـمكِّن العقْل من التَّعبيرِ عن الفُروقِ الدَّقيقَةِ بيْن المَفاهيم والمعَـاني والأشْياء، وغناها بالاسْتعاراتِ والكِنايات، والمجَازاتِ الَّتي تَسْتنْفِرُ مَلَكاتِ العَقْلِ للْعَملِ، ومِنْها مَلَكةُ الخيالِ.

✧ **الإِمَامُ الْقُرْآنيُّ أَو الْقَرِينُ الشَّيْطَانيُّ:**

من لَمْ يكُن القرآنُ لَهُ (إمَاماً) في حياته، فستُعْشي الذُّنوبُ بَصيرَتهُ حتى لا يَراه، وعندها سيُقَيِّض اللهُ لَهُ الشَّيطانَ لِيَصيرَ قَريناً، يَتسلَّطُ عَليْه ويقُودُه نحْو المآثم والمغارم، ويَسيرُ به نحْو المهاوي والمهَالك.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]

ولكَيْ لا يكُون الشَّيطَانُ لكَ (قريناً) فاجْعل مِن القُرآنِ لكَ (إمَاماً).

✧ **شُهُودٌ رَغْمَ أُنوفِهِم:**

لقد شهد مُشركُو العَرب بعظَمة القُرآن، مِن حيثُ أرادوا النَّيلَ منه ومن المُصْطفى (ﷺ)، فَعندما اتَّهمُوه بأَنَّه شَاعرٌ إنَّما اعْتَرفُوا برُقِيِّ مَعانَي القُرآن وفَصاحته البَالغَة، وببَلاغَتـه الَّتي لا نَظيرَ لَها في الاسْتعاراتِ وَالمجَازاتِ والكِنَايَاتِ، وفي التَشْبيهَاتِ والصُّور المُجَنِّحة في عَنَانِ السَّماء والباذخة بالجمال.

وعِندَما اتَّهمُوه بأَنَّهُ كاهنٌ وساحرٌ فإنَّما شَهدُوا للْقُرآن بتأْثيرِ معَانيه عَلى العُقولِ والقُلوبِ، وبجَاذبيَّته الآسِرة والبَالغَة حدّ السِّحرِ، وبخوارقه في كشْفِ الغُيوب

وفَضْح الْعيوبِ، وفِي كَشْفِ المؤامراتِ والدَّسائس، ومَعْرفته بِما خلف الحُجُبِ وما وَراء الطبيعة.

✧ **مُقَارَنَة:**

إذا كان المولى عزَّ وجلَّ قد قال لليهود والنَّصارى: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٨]، فهل سيكُون المسلمُون على شيءٍ دُون أَن يُقيموا القرآنَ في حياتهم؟!

❋ ❋ ❋

بَـوائـقُ النِّفَـاقِ

✧ **صِـمامُ الأمَان:**

إنَّ القلبَ هُوَ صِمامُ أمـانٍ للْحَواسِ وَالْجَوارحِ، وعَلى رأْسِها حاسَّتيّ السَّمع والبَصر، فإذا أصيب بطلَ عملُ الحواسِ، ففَي البَصرِ قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: ٤٦].

وفي السَّمع قال تعالى:﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

✧ **ارْتِكاسُ الْكسْب:**

إنَّ عدل الله لا تشوبُه شائبةُ الجَوْرِ أو الْجَبْر، فالفاعلُ الحقيقيّ هو الله، ولكن بمـوجبِ كسْـبِ الإنْـسان واختياره.

وإنَّ انْتِكاسَ الفاسقينَ وارْتِكاسَ المنافقين هو ثمرةُ ما اكتسبوا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]

✧ **نِعْمةُ الشُّعُورِ الْمُرْهَف:**

إنَّ الشُّعورَ الشَّفافَ والإحْسَاس المُرْهَفِ نِعْمةٌ جَزيلةٌ مِنْ نِعمِ الله المُستحقَّـة لأَهْلِ الإيمان والَّتي لا تُقدَّرُ بثمن.

ألا ترى بأنَّ الله تعالى وصَف المنافقين بأنَّهُم يُحبِطُونَ أعْمالَهُم، ويَخدعون أنْفُسَهُم، ويمكُرون بأنفسِهم، ويُهلكون أنفسَهم، ولكنَّهم لا يشعرون بهذهِ الجرائم في حـقِّ أنفسِهم، فكيف يمكن أنْ يَشعُروا بغيرهم؟!

إنّهم عُراةٌ من المشاعر، خُلاةٌ من العواطف، ذَوُو أحاسيس مُتبلِّدة، وَلذلك وَصفَهم الله بأنَّهم: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل: ٢١]

✧ **اقْتِرافُ الأمْوالِ:**

كُلَّمَا حرص النَّاسُ في جمع الأمْوال على الحلال، ساعدهم ذلك على التَّحَكُّم بحركةِ الأمْوالِ، ومنعها من التسلُّلِ إلى القلوبِ وتحوُّلـها إلى غايةٍ تتقدّمُ على سائرِ الغايات.

والعكسُ صحيحٌ، فإذا لمْ يتحـرَّ المرءُ الحَلالَ انْزلَقَ إلى مُربَّع حُبِّ المالِ ووضَعَه في القلبِ، ولهذا سمَّى القرآنُ عمليَّةَ جمْع المال وِفْقَ هذه الطَّريقةِ بالاقْتراف، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]

✧ **تَعرِّي المُـنافِقين:**

النِّفاقُ نارٌ تُحرِقُ لباس التَّقوى الإيمانيّ فيجْعل صاحبَهُ عارياً في مَهَبّ طبائع الطين.

ومع أن المُـنافِقَ يـتّهمُ المؤمنَ بالتَّعرِّي، في صُورةٍ من صُورِ الإسْقاط، فإنَّ إحْساسَهُ بعُرْيِه يجْعلُه يَحسبُ كلَّ صيْحةٍ عليه هو العدُوّ، ولذلك فإنه يتّخذ من أيْمانه جُنَّـةً، حيثُ يُـكثرُ من الأيْمانِ الكاذبة، ليَستُرَ بها عُريَه، ويتدرَّعُ بها من نظرات المؤمنين الَّتي يَشْعُرُ كأنَّها سهامٌ تَخْترقُ حصونَهُ ودروعَهُ.

ولا يتوقَّفُ إحْساسُ المُنافقينَ بالعُريّ عند حَدّ، حيثُ يعيشون في قلقٍ دائم، ظانِّين أنَّ كُلَّ ما يَخُصُّهُمْ يَعيشُ في عُرْيٍ مكشوف، حتَّى أنَّ صنفاً مِنَ المُـنافقينَ جاؤوا إلى النَّبيِّ (ﷺ) يسْتأذنُونَهُ في عدمِ الخروجِ للجهاد معه بمبرّر أنَّ بُيوتَهُمْ عَورة،

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣] لقد أرادوا صَرْفَ الأنْظار عن عُرْيِهم فتَعرّوْا من جديد حتى كشفوا عُوارَهم وعوراتهم في بَيْداء الكذب المفضوح.

✧ **فُقْدان الرِّضى الإيمَاني:**

تمتلكُ النُّفوسُ مقْدرةً فطريّةً على التَّماثُل مع مُتَطَّلبات الشَّرعِ الحكيم دُون ضِيقٍ، وعلى الانْسِجام مَعَ أحْكامِها دون حَرجٍ.

يحدث ذلك أثناء عيش المسلم في ظِلالِ الإيمان الَّذي يتغَلْغَلُ في الضّلوع وينسابُ في الْحَنَايا، بمعنى أنَّ الشُّعور بالضِّيق أو الحَرَج أمام أيّ حُكمٍ من أحْكامِ الشَّريعةِ الغــرَّاء، هو بُرهانٌ على عدم توطُّـنِ الإيمان.

هذا ما نستنبطُهُ من قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وهذا الشُّعور هو القنطرة التي يَعْبُر المرءُ عليها من الإيمانِ إلى النّفاق.

✧ **التسلُّلِ مِنْ ثُغورِ المسؤوليَّة:**

إنَّ التَّسَلل من ثغورِ المسؤوليَّة إلى حُصونِ السِّلبيَّةِ مخالفةٌ صريحةٌ لأمر الرسول (ﷺ)، وعاقبتُها هي الوقوعُ في الفتنة أو مصيبَة العذاب الأليم: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

✧ **انْتِهاءُ المنافِقين:**

لقد عمل المنافقون بالنّهي الربَّاني ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة :٤١]، ولكن في الاتجاهِ الآخر، إذ اشْترى بعضُهم بالآياتِ ثمناً كبيراً وليس قليلاً.

فَوائدُ الشَّدائد

✧ **تَفْجيرُ أعْينِ التَّضرُّعِ:**

إنّ الَّذين خَلطُوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً، امتحنهم الله بالبَأْساءِ والضرَّاءِ التَّي تُزلزِلُ كيانَ الإنسان، حتَّى يتخلّصَ من خُبثِه ويَخرُجَ مِن غَفْلتِه،

وحتّى يَتَحرَّرَ مِنْ نسْيانِه لربِّهِ ومن غفلة لُبّه، فيعودَ إلى اللهِ متزلِّفاً مُتَضرِّعاً.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٣]

وتُوضِّحُ الآيـةَ الأُخْرى أنَّ من كَثُرتْ ذُنوبُهُمْ اشتدَّتْ قَسْوةُ قُلوبهم وزيَّنَ لهُمُ الشَّيطانُ أعمالَهُم، ومن ثمّ قد لا يَسْتَفيدُونَ مِنْ هذِه الامْتحاناتِ والتَّنْبيهَاتِ الشَّديدَة شيئاً.

✧ **عَطيَّـةُ السَّكيـنَة:**

إنَّ تَنَزُّلَ السَّكينَة على المؤمنين عِنْدَ الشَّدائِد والنَّوائب هِي عَطيَّـةٌ من الله، ومِـنْ ثَمَّ تُصبـحُ بُرْهاناً مِنْ بَراهِين وُجودِه تعالى ودليلاً على إيمان المؤمنين، ولذلك يَزْدادُون إيماناً في هذه الظُّروف الصَّعبة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

✧ **أَعْراسُ المَـآتِم:**

الابْتلاءُ سُنَّـةٌ إلهيَّةٌ ماضية، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة : ١٥٥]

كَأَنَّ هذه الابْتلاءَات ضرُورِيَّة لِتَمْتِين عُرى الصَّبْر وتَفْتِيق مَلكات الْخير والْجَمال في الإنْسَان، وكأَنَّ (مآتمَ) الْخَوف والجُوع ونَقْص الأَمْوال والأَنْفُس والثَّمرات، (أرْحام) تَخرجُ منْها (أعْراسُ) الطُّمأنِينة الحانية والأنفس الصّالحة، وتَنْسَلّ منها (أفْراحُ) الأمْوالِ المُباركَةِ والثَّمَراتِ اليَانِعَة، ويَتصبّبُ منها الرِّزقُ الرَّغِدُ والأَمْنُ السَّابِغ.

ولِهذا بَشَّـرَ الله الصَّابرينَ على الأَتـْراح بمَوْلد الأفْراح، وبَشَّرَ القَابضِينَ على الْجَمْرِ بامْتلاءِ حياتِهم ببرْد العيش، وبَشَّرَ الصَّـابِرينَ على مَراراتِ المِحَنْ بِحلاوةِ المِنَح.

وبهذا يُصبحُ للْحياةِ مذاقٌ مُمَيَّزٌ وطَعْمٌ حِلْوٌ، بِجَانِبِ الرَّصيدِ الأُخْرَوي الـمَفتُوحِ للصَّـابِرينَ.

✧ **زِراعَـةُ الأمل:**

لَقَدْ تقَـلَّبَ يُوسُف عليه السَّلام منذُ يَنَاعَته في ابْتلاءات عدَّة، من حَسد الإخوة وتشْكيلِهم عُصْبة ضِدَّهُ، وتآمُرِهم عليه حتَّى أَجْمعُوا على أَنْ يَجعلُوه في غَيابة الجُبِّ، وبَيْعه في سُوق الرَّقيق بثَمن بَخْس، ومُواجَهتِه لِذُلّ الْعُبوديَّة في قَصْر الْعزيز ومُراوَدَة امْرأَةُ الْعَزِيز له، وأخيراً رَمْيه في السِّجـْنِ من قبل العزيز رغم يَقِينه ببَـراءتِه مِمَّا اتُّهِمَ به.

لكنَّه مع ذلك ظَلَّ مَرفُوعَ القَامَة عَزيز الهَامَة، واستمرّ قَويَّ الإيْمَان برَبِّه شَديد الاعْتزاز بدينِه، وما فتئ يدعُو إليْه حَتَّى وهُو في ضَنـَك السِّجـْن وضِيق الْعُبُودِيَّة.

لقَد كان أَمَلُـهُ بالله عَظيماً وثِقَتُه بربّه قَويَّةً، حيث ظلَّ يَتقَوَّى بِقُوتِ الأَمَلِ مع تركيزِ عيْنه على النِّهايَة الطَّيِّبَة والعَاقِبة الحُسْنَى.

ولأَنَّ الأملَ مِنْحَةٌ مِنْ مِنَح الإيْمَانِ وثِمارِه الْجَنِيَّة، فَقدْ زرعتْهَ في حناياه تلك الرُّؤْيا الَّتِي رآها في المَنام وأَخْبَرَ بِها والدَه، عن الْكواكِبَ والشَّمسِ والْقمرِ الَّتِي تَسْجُدُ لهُ.

وعندما أَجْمَع إخْوتُه على أَنْ يَجْعلُوه في غَيابَةِ الْجُبِّ زرع الله في قلبه بشارةً، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

والْوَحْيُ هُنا لم يكن سِوَى الإِلْهام الَّذيْ زَرعَ في قلْبِه الأَمَل، إذ أَنَّه كان يافعاً آنذاك ولَمّا يَبلُغ النُّبوةَ بَعد.

❋ ❋ ❋

سِيقَانُ الاسْتِقَامَة

✧ **تَوسُّطُ الاسْتِقامَة:**

من المعلوم أنَّ الاستِقامةَ تتحقّق على قدمين، ولهذا جاءت القدمان في الوسط بين الزحف على البطن والسير على أربع الذي تَتِّسم به أغْلب الحيوانات. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]

فالاستقامةُ تَوسّطٌ حتى في الشكلِ الحسيّ والشأْنِ الماديّ.

✧ **شَهْوةُ الظُّهور:**

يحرصُ كثيرٌ من النّاس على (الظُّهُور) أمام النَّاس مهما كان الثَّمن، ولو أدّى ذلك إلى الارْتكاسِ في الخطايا واقتراف الآثام، وإلى مُعاقَرَة الْكَبَائِر والتّردّي في سائر الأوزار.

وسيأتي هؤلاء يوم القيامة: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١]

وذلك جزاءً وفاقاً، فقد حَمَلتْهم شهْوةُ (الظّهور) على ارتكاب الأوزار، حتى فقدوا قَوامَ الاستقامة، فاحْدَودَبَتْ ظُهُورَهُم من ثِقَلِ الأوزار وانْتَكستْ فِطرُهم من كثرةِ الخطايا، ونتيجة لهاثهم وراء شهوة العُلُوّ في الأرض.

ولذلك قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]

✧ **اسْتِقَامَة الإنْسَان:**

إذا لَمْ تَستقمْ على قَدَميْ الْعلم والإخْلاص، فستكون ممن يَمشون على أرْبع، لَكَأنَّ الاسْتقامةَ مُرادفةٌ للإنسانيّةَ الكريمة.

ألم يَقل الله عمَّن يُعطِّلون عقولهَم وأسماعهم وأبصارهم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]

✧ **أَجْنحَةُ الاسْتقَامَة:**

إنّ المسافة بين الخالق والمخلوق هائلةٌ، ولا يمكن للمسلم الوصول إلى الله بأيّ وسيلة دون تحقيق الاستقامة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦]

فأمْعِنوا النَّظر في جملة﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ ليستقيم هذا المعنى في أذهانكم، وتتحمله أجْنحةُ خواطركم.

✧ **قَانُون النَّصْر:**

إنَّ قانون النَّصر الإلهي يَجعلُ استقامةَ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾سببُ السُّقيا الرَّبَّانية لماء ﴿يَنصُرْكُمْ﴾.

✧ **قَانون الاسْتِقَاء:**

الاستقامة الإنسانيَّة هي دلْوُ الاستقاء من مياه الغَدَق الرَّحْمانيَّة، ألم يَقل الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[الجن: ١٦]؟

والماء هو أصلُ الحياة، وكل سببٍ من أسبابِ الحياة يَسري عليه هذا القانون الإلهيّ العادل.

✧ أَسَاسُ المُمَاثَلة:

من الواضح أنّ حجر الزّاوية في العلاقات الدّوليَّة وأساسها المتين يقيمه القرآن على مبدأ المماثلة، ينطبق ذلك على الاستقامة في العلاقات الَّتي ينبغي أن تكون أصلاً: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]

وينطبق على الاعتداء: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٠٤]

وينطبق كذلك على الوسائل، كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾ [التوبة: ٣٦]، فقد طالبهم بالتذرُّع بالتجمّع كما يَفعل أعداؤهم.

❋ ❋ ❋

نِسبيَّةُ الألْوان

✧ **الإبْهاجُ الذَّهَبِيُّ:**

فُطِرَ الإنسانُ على حُبِّ الأموال فهي من زينةِ الدُّنيا الجميلة، وأهمّها الذّهب بصوتهِ الرّنّان ولونِه الجذّاب، اللّون الأصفر المائل نحو الحُمْرة، وقد سُمّيَ هذا اللّون بالذَّهَبي نسبةً للذّهب.

ولمَّا كان الأصفر هو المُكوِّن الرئيسيّ لِلَون الذّهب، فإنه لونٌ مفرحٌ لحنايا الإنسان ومبهجٌ لجوانحهِ كما يرى علماء النّفس، وقد أشارَ القرآن الكريم إلى خاصيّةِ الإبْهاج فيه، فقال تعالى: ﴿**قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ**﴾ [البقرة: ٦٩]

✧ **نِسْبيَّةُ الأصْفَر:**

إنّ انْفقاعَ الصُّفْرةِ لا يَدلّ دائماً على البهجةِ والسرور، فقد يكون علامةً على الخوف، حيث يَمْتَقع وجهُ الخائفِ نتيجةَ انسحابِ الدَّم منه، واللّون الأصفر المُشَرَّب بالحُمْرةِ رمزٌ لبزوغِ الحياة وغروبها، كما في حالةِ إشراقة الشَّمس وغروبها، ففي الإشراق تتألّق الآمالَ وتتدفَّقُ الحركة، تنطلقُ الآمالُ وتنشرح الصُّدور، أمَّا عند الغروب فيحُلّ الوُجوم ويُخيّم الحُزْنُ، تَتسلّل الكآبةُ وتَضيق الصُّدور، كأن الكون كلّه في مأتمٍ كبيرٍ على موتِ يومٍ آخرٍ من أيام الله.

✧ **نِسبيَّة الْبَياض:**

اللّونُ الأبيضُ رمزٌ للصّفاءِ والنّقاءِ وعنوانٌ للإشراق والضِّياء، ولهذا جعل الله وجوهَ المؤمنين يوم القيامة بيضاءَ مُشْرقةً، كما قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ**﴾ [أل عمران: ١٠٧].

ولكن ليس كلُّ أبيضَ جميلاً، فبياضُ الجسم قد يكون من البرص، وهو مرضٌ بغيضٌ كان عيسى عليه السَّلام يعالجُ الناسَ منه، والحزن عندما يَشتدّ يُصيب العينَ بالبياض حتى يؤدّي إلى تَلفها، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[يوسف: ٨٤].

✧ **نسبيَّةُ السَّواد:**

اللَّون الأسود يُستخدمُ كرمز للذَّمامة وسوء المصير، ولِحُلول الكروب والأحزان، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمرن: ١٠٦] وقوله تعالى:﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨].

لكن الأَسْوَدَ يَصير جميلاً عندما يساهم في رَسْم خارطة الدَّهْشة على صفحات الوجود، كالصُّخور مثلاً، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

✧ **النِّسبيَّة الزَّرْقاويَّة:**

لو لم يَكنْ اللّون الأزرق جميلاً ما جعله الله لوناً للسّماء وللبحار والمحيطات، لكنه قد يكون علامةً للموت وسوء المصير، فالإنسان عندما يموت تتغيَّرُ ملامحُهُ إلى الزُّرْقة قبل أن يَصْفرَّ ثم يَسْوَدَّ، ولذلك جعله الله علامةً فارقةً للكافرين يوم المحشر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]

ولأن كلّ النّاس يُبعثون على ما ماتوا عليه، ولأن المجرمين كانوا أمواتاً في قَوَامِهم الرُّوحي، ولكنّهم لا يَشعُرون نتيجة استمرار شلّال الحياة بالتَّدفُّق على قوامهم المادِّي، فإن الموت المعنويّ يتجسّدُ حِسِّيًّا في أرضِ المحشر، فتحلُّ زُرْقةُ المَوْت في أوصالهم.

❋❋❋

نَفَائِسُ القَصَص

✧ **عِجْلُ الغَرْب:**

نتيجة انبهار مجاميع من المسلمين ببهارج حضارة الغرب، سَرَق بعضُهم منه شيئاً من حُليّ ثقافته وصنعوا منها عِجْلَ العلمانيَّة غير المقدّس، وما بَرحوا عليه عاكفين وبه مبهورين، وما زالوا بخُواره مفتونين مع أنّه لا يُكلّمهم ولا يَهديهم سبيلاً.

ولم تَستطع صحوةُ هارون كبْحَ جماح هؤلاء السُّفهاء، ولا بدّ من عودةِ موسى حتى يَنسف العجْلَ في اليمِّ نَسْفاً.

✧ **حُوتُ الضَّنَك:**

كل من يَخْرج من حصنِ الله ويخوض في محيطاتِ الغَيّ وبحار الغفلة، فإن حوتَ الضّنَك سيَلْتقِمُه وهو مُليمٌ، ولا نجاة له من تَوحّشِه ولا خروج له من جوفِه، ما لم يعترف بظلمه، ويُشهر سيفَ الوحدانيّة من غِمْدِ فِطْرتِه، ويَرفع صوت الذِّكْر والتَّسبيح وهو كظيم.

✧ **درْسُ الطُّوفان:**

تعاني أمّتُنا في زماننا من طوفانِ معاصٍ لم يترك ميداناً إلا وأغْرَقَه، سواءً في الفكرِ والثّقافة أو في السياسةِ والاقتصاد، في التربيةِ والاجتماع أو في الآدابِ والفنون.

ويُعلِّمنا درسُ الطُّوفان الذي حدثَ في عهدِ نوح عليه السَّلام أن تجفيفَ بحيرات المياه الضَّخمة يحتاجُ إلى غلق المنابع أولاً، ثم تجفيف الموجود، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]

ولن تستوي سفينةُ الصَّالحين في عصرنا على جُوديّ التَمكين إلا بغَلْق منابع الفواحش والمنكرات، ولا سيّما الاجتماعيَّة منها، وتجفيف ما هو موجودٌ منها، حتى تكون السياسة نقيةً كالماءِ والاقتصاد متعلقاً بالسّماء، وحتى تَصير الآداب والفنون غيثاً يُطهِّر المجتمعات من أنْجاسها وأرْجاسها، بل ومعارج موصلةً إلى ثُريّا التّقوى وجوزاء الإحسان.

✧ **علْمُ الله والأسْبابِ:**

عندما بدأ الطّوفانُ أمَرَ اللهُ نوحاً بأن يأخذ أهلَه إلى السفينة: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، قال هذا رغم إدراكهِ أن الله يعلمُ أنه ابنه، لكنّه أخذ بالأسبابِ فتكلّم.

وعندما جاء الملائكة إلى إبراهيم وأخبروه بأنّهم ذاهبون بالعذاب إلى قرية قوم لوط لم يَركَن إلى علم الله بنبيِّه لوط، بل: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]

✧ **الرُّؤْيةُ بالأنْفِ:**

عندما يَعمُرُ الإيمانُ القلبَ فإن الجوارح تصيرُ ذات قدراتٍ جبّارة، وقد تصيرُ خارقةً ويَنوب بعضُها عن بعض، فعندما فَقَدَ يعقوب بصرَه نتيجة قوّة حزنهِ على ابنهِ يوسف انْتَصبتْ أنفُه لتَطوي له المسافات، مبشّرةً إيّاه بعودةِ ابنه يوسف، قال تعالى حاكياً عن هذا المشهد: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾[يوسف: ٩٤]، ولقد كانت أنفُه صادقةً في ما أخبرت حتى أنه قال: لأَجِدُ ولم يَقل: لأَشُمُّ!

✧ **النَّومُ في شتاء التَّخلُّف:**

أوردَ الله في سورةِ القلم قصّة أصحاب الجنّة، الذين تمالؤوا بعد موت أبيهم على منعِ خيرهم عن المحتاجين.

فكانت العقوبة هي ما لخّصَها اللهُ بقوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩، ٢٠].

ولقد كانت الحضارة الإسلاميّة جناتٍ وارفة الظّلال، وعندما سلك المسلمون سُبُلَ الضَّلال ومنعوا خيرات الإسلام عن النَّاس، بسوءِ تمثيلهم للإسلام أولاً وعدم قيامهم بمهام الشَّهادة على الناس، جاء طائفُ الغَزْو بصُوَرِه العنيفة والنّاعمة، فجَاسَ خِلَالَ الدِّيارِ مُحْرقاً الأخضر واليابس، بينما المسلمون نائمين في ظلام التخلّف الطّويل.

✧ **سِلاحُ الأقْلام:**

إن للأقلامِ قوّةَ السِّهام، وربّما كان تأثير قلمٍ أقوى من صاروخٍ أو قنبلةٍ نوويّة.

لقد أطْلَق اللهُ على السِّهام التي طرحها آل عمران للاقتراع مصطلح الأقلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]

❋ ❋ ❋

وَشَائِجُ التَّآلُف

✧ **التّوازُنُ طريقُ التَّآلف:**

أساسُ التَّآلفِ بين الكائناتِ هو التَّوازن، غَيرَ أنّ التَّوازن في الدّواب يتحقَّق وفْق قَوانين الصِّراع، وعلى سبيلِ المثال لَو لَمْ تأكل القططُ الفئرانَ لاخْتلَّ التَّوازن وعاثت الفئران في الأرض فساداً.

أما التَّوازن في بني الإنسان فيتحقّق بواسطةِ قانون التَّدافع الَّذي قال الله عنه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة: ٢٥١].

وعندما تَستقيمُ قوانين التَّدافع يَتحقَّقُ التَّـوازُن الَّذي يُنَمِّي أواصرَ التَّفـاهم ويمُدُّ جُسـورَ التَّعـاون، وعندما يستعيرُ الإنسانُ قوانين الدَّوابِّ في الصِّراع المحْمُوم، فإنَّ وشائجَ التَّـآلف تنقطعُ وأواصرُ القُربى تتمزَّقُ، ويَحِلُّ التآكل مكانَ التَّكامل ويحتلّ التَّباينُ محلَّ التَّعاون.

✧ **التَّوْشيجُ والتَّجْميع:**

إن اهتمامَ القرآن بالتَّرْبيطِ والتَّجْميع واضحٌ في ثناياه، حيثُ يُقيم العلائق ويُربِّط الأواشجَ، يَنْسجُ الصِّلات ويُمتِّن الأواصرَ، بل ويضع المفردات المختلفة تحت عنوانٍ جامع كما في سورة يوسف، حيث استخدم مصطلح (الْعِير) ثلاث مراتٍ في مقطع واحد، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ

رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٧٠، ٨٢، ٩٤]. والعير هي القافلة التي تضمُّ مجموعةً من النَّاس يَقودون إبلاً مُحمَّلة بالأثقال.

وبقدر ما يُمثّل هذا الاختزال صورةً من صُوَر الإيجازِ القرآنيّ المعجز، فإنَّه يُجسِّد اهتمام القرآنِ بتَجْسيرِ العلائقِ وتَمتِين الوشائج.

فإذا كانت العلاقـةُ بين مجمـوعةٍ من البشرِ وقطيعٍ من الإبل ورُكام من الأشياءِ تستحقُّ الائتلاف تحت عنوان واحد، لأنّها تقاسمتْ الآلامَ والآمالَ خلالَ مُدَّةِ الرِّحلة، فكيف بمجتمعاتٍ تَتمدَّدُ بينها مئاتُ الأواصرِ والوشائجِ والمُشْتركات؟!

✧ **ائتلافُ رياحُ الْخَيرِ:**

إنَّ خيريَّةَ التَّجمُّع والائتلافِ وكراهيَّةَ التَّفرِّدِ والانْتباذ، لا تَنْطبقُ على الإنْسانِ وحده، بل تنطبق على سائر الكائنات بما فيها الجمادات.

ولذلك استخدمَ القرآنَ الكريم الرِّيحَ المفردة في مقام العذاب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]، واستخدم الرِّياح في مَقام الرَّحمة والخير، كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وكان يُمكن بقدرةِ الله المطلقة وعبْر قانون النِّسبيّة الكونيّ، أنْ يجعلَ الرِّيحَ الواحدة للرحمة تارةً وللعذابِ تارةً أُخرى.

ولكنّه تعالى لم يفعل وكأنه يعطينا درساً فكريًّاً في وجوبِ الائتلاف، من أجل اسْتمطار خيْراته واستِدْرار منافعه.

✧ **تَلاقُحُ سحائبِ الأفْكارِ:**

لِمَ لا نعمد إلى تلاقحُ أفكارنا عبر التَّحاور والتَّشاور، فإنّ الخيرَ كلَّه في ذلك؟ ألا تَرون أنَّ السُّحب لا تُمطر إلا إذا تلاقحتْ الشحنات الموجبة مع الشحنات السالبة، كما جاء في القرآن وكما أثبت العلم؟!

✧ **تأليفُ سحائبُ القُلوب:**

إن أَرْكِمَةَ السُّحُبِ مَهما كانَتْ مُثقلةً بالمياهِ فإنَّها لا تُمْطرُ إلا إذا تآلفت وامتزجت مع بعضها البعض، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣]، فكيف يمكن أن تَهْطلَ سحائبُ القلوبِ بغيث الحُبِّ دون ائتلاف، وكيف يمكن أنْ تَسيلَ بالرَّحمةِ والْخيرِ دونَ أي امْتزاج؟

✧ **التَجْسِيرُ بَين الأقْوالِ والأفْعالِ:**

من الفتوقِ التي تعانيها الشخصيّة البشريّة وُجود هُوَّةٍ بين الأقوالِ والأفعال، ويبدو أن الرُّكوع الجماعيّ لله وإقامةَ الشّعائر مع الناس عاملٌ أساسيٌّ في تَجْسيرِ هذه الهُوَّة، ورُبّما كان ذلك هو علَّة الأمرِ بالرُّكوعِ مع الرَّاكعين بعد الأمَرَ بإقامةِ الصّلاة مع أن الركوع من الصّلاة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة ٤٣ – ٤٤] ومما يؤيد هذا الاستنباط أن الله أمَرَ بالاستعانة على هذا الأمر بالصَّبْر والصَّلاة: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فالصَّلاةُ تُزكّي طبائع التّراب الرّديئة، والصّبرُ يُرَوِّضُ نوازعُ النّفس الأمّارة بالسّوء، حتى تَسْتقيَ من منهجِ السّماء وتتحقّقَ الاستقامةُ المنشودة.

❋ ❋ ❋

صَواعِقُ الرَّحْمةِ

✧ **رَحْمَةُ الْعذَاب:**

إن العذابَ الّذي يُذيق الله الفاسِقين إيّاه، فيه رحمةٌ لهم من ناحيتين:

الأولى: أنه عذابٌ أدنى وليس أكبر.

الثانية: المقصد منه التنبيه والتقويم.

قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]

وبذلك فإنه قد يَدرأُ العذاب الأكبر ويدفعُ هؤلاء بعيداً عنه، إن هم تابوا وأنابوا.

✧ **رحمةُ الضَّراء:**

ابتلى اللهُ عبادَه بالشرِّ والخير، لكنه يبتليهم بالنِّقم أكْثر من النِّعم، لأن جِبلَّتَهُمْ تجعلُهم يُعرضونَ عَنْ ابتلاء النِّعمة ويَنْسبونها لأنفسهم، بينما يُصبحون ذوي دعاءٍ عريض إذا ابتلاهم الله بالنِّقم، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]

بمعنى أن إمكانيَّةَ سُقوط النَّاس في امتحانِ السَّـرَّاء أَكْبرُ من امتحانِ الضَّـرَّاء، ولذلك رحمهمُ اللهُ وَجعلَ مُفردات الامتحان بالضَّـرَّاء أكْثر وأغْلب.

✧ **الكرامةُ على قَدْر الكَرْب:**

عندما تَعظُم الكُروبَ وتشتدُّ الخُطوب على المؤمنينَ، فإنَّها تَصير تأهيلاً لهم، فإن صمدوا أمامَها وانتصروا عليها، صارت علامةً على اسْتبقاءِ الله لهم لوراثةِ

الأرض: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الصافات: ٧٥، ٧٦].

لقد كان الكَرْبُ عظيماً فكانت الكرامةُ طوفاناً أغرق المجرمين في شرّ أعمالهم، ووضع بأيدي المؤمنين مقاليدَ التمكين، ذلك أنّهم كانوا الأقْوَى والأصْلح.

✧ **التَّدبيرُ ثمنُ المُدافعَة:**

لَو كان المُسلمونَ أقْوى قَليلاً في عام الحديبية وكان المشركون أضْعف، لاخْتلَّتْ المُعادلةُ الَّتي صَنعَت (الْفَتحَ) غيْر المَنْظور - حسب تَسمية القرآن - إذ كان بالإمكان دخول المسلمين مُعتمرين وخائفين من مشركيّ مكةَ نتيجةَ دخولها عُنوةً، وستُؤدِّي كرامة مكَّة المَجْروحَة، إلى تأْجيجِ الأحقادِ في النُّفوسِ واسْتِعارِها في المُجتمعِ المَكِّي .

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]

لكنَّ المعادلة التي جعلت قريش تَتجبّر وتمنع المسلمين من الاعتمار، أفْضَتْ إلى توقيع صُلْح الحُدَيبيَّة، الذي تَسبّب في انْزياح نفوذ قُريش وانديَاح الدّعوة الإسلاميَّة في آفَاق الجزيرة العربية، وفي عودة المسلمين لقضاءِ العمرة في أجواءٍ من السلام والطّمأنينة، وأدى إلى تعاظُم قُوَّة المُسْلمينَ بشكلٍ كبيرٍ خِلال أقلّ من ثلاثِ سنوَاتٍ.

وهذه ثمرةٌ من ثمارِ العنايةِ الإلهيَّة والتَّدبيرِ الرَّحماني، عندما يَستكملُ المؤمنون طاقتهم القلبيّة في استمطارِ التَّوكُّل، ويَسْتفرغون وُسْعَهم الماديّ في استثمارِ الأسْباب.

✧ **أَعْيُنُ اللهِ:**

قال الله لنبيه محمد: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور: ٤٨]، والملاحَظ أنه قال ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ حيث جمع العين، ويبدو أن المقصود بها:

- عينُ المراقبة والمَعِيَّة.
- عـيـنُ الرَّحمةِ والرأفة.
- عـيـنُ الهدايةِ والإعانة.
- عين التَّسديدِ والتَّوفيق.
- عـيـنُ النَّصر والتَّمكين.

ويؤيد هذه المعاني أنه قال: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بالباء لا بالفاء، فتأمّلوا ذلك مَلِياً.

✧ **مِنحةُ التَّحمُّل:**

إذا تحمَّلتَ في مِضْمار العُبوديَّة لله مخلصاً ما لا طاقةَ لعامَّة النَّاسِ به، فإنَّ اللهَ سيمنحُكَ ما لا طاقةَ للنَّاس به، إكراماً لكَ بينهُمْ وتمييزاً لك عنْهُم.

فعندما تحمَّلَتْ مريمُ نظرات الاحتقارِ لها، بسببِ حَمْلِها منْ دُونِ زوجٍ، أكْرمَها الله بطفلٍ تَكلَّم في المهدِ أمام النَّاس، فمَسَح نظرات الاتِّهام زارعاً نظراتِ الإكْبار، وحوّلَ كلمات العتابِ إلى كلماتِ إعجاب، وتحوَّلتْ منْ فتاةٍ مُتَّهمةٍ إلى صِدِّيقةٍ مُلهمة، ومن أنثى تَتخفّى عن أعين الأنام إلى امرأةٍ ترتاد آفاقَ الزَّمان.

وهكذا، فإنك إنْ تَحمَّلتَ في جنبِ الله المحنةَ فستنقلبُ بإذن الله إلى منحةٍ.

❋ ❋ ❋

الإعْجازُ البِنَائيُّ

✧ **ذروة البناء:**

يوجد في القرآن ما يمكن تَسميته بالإعجازِ البنائي، فقد وصل اهتمامُه بالبناءِ إلى الذّروةِ العالية التي لا نظير لها في كلّ الدّيانات والثقافات، حيث سَلك بأتباعه الطُّرق الآمنة وتَذرّع بالوسائلِ الناجعة، وحَثّ على التوَسُّل بسائرِ الأسباب المؤدّية إلى العمارةِ والبناء؛ بحيث يتحقّق الهدف الغائيّ من خلقِ الإنسان وهو عمارة الأرض، حتى تُشْبهَ الفردوس الذي خرج منه أبوهم آدم.

✧ **البِناءُ الإيجابي:**

للإعجاز البنائيّ أوجهٌ كثيرة، ومن أهمّها العناية الفائقة بالبناءِ الإيجابيّ، سواء في بنائه للفرد أو الأسرة أو المجتمع أو الأمّة، وذلك بطريقةٍ لا تَسمح بتسرّب أيّ طاقة خارج نطاق البناء والتّعمير، مما يختصر الجهود والطَّاقات ويختزل الزَّمن والأوقات، ويرفع الفاعليّة الإنتاجيّة إلى أبعدِ مدىً، وبحيث تنهدم الشّرور والمنكرات بطريقةٍ تلقائيةٍ ممنهجة، تُجنِّب المجتمع تداعيات الهدمِ والإسقاط.

وتتضحُ عناية القرآن ببناءِ بدائل المعروف أكثر من انشغالهِ بهدمِ بوائق المنكر، من خلال عدَّة أمورٍ، سنوضِّح أهمّها في الفقرات الآتية:

۞ الاهتمام بصناعةِ المعْروف أكثر من محاربةِ المنكر:

وردَ لفظ (المعروف) مُعَرّفاً ومُنكَّراً في القرآن الكريم في ٣٨ موضعاً، مقابل ١٦ مرةً ذُكِرَ فيها (المُنْكر)، أي أنّ العنايةَ بصناعةِ المعروف في مجالاتِ السّياسة والاقتصاد والاجتماع والثَّقافة ينبغي أن تساوي ضِعفَيْ الاهتمام بمحاربةِ المُنْكرات

في شتّى هذه المجالات، لأن هذه الطَّريقة تمنع التَّصادم مع أصحابِ المُنكر، وتحقّقُ الهدف في النّهاية.

۞ تقديم التبشير بالمعروفِ على التحذير من المنكر:

لم يتفوّقْ المعروف في عددِ المرَّات التي ذُكِرَ فيها فقطْ، بل في تَقدُّمه على المنكرِ في ٧ مواضع اقترن فيها اللّفظان، ولم يتقدَّم المنكر إلاَّ في موضعٍ واحدٍ لا علاقة له بالإيمان والمؤمنين، فقد ورد عندما كان القرآنُ يَسرُدُ صفات المنَافقين.

۞ اسْتِزراعُ الخَيْر أكثر من اجْتِثاثِ الشَّر:

وَردَ لفظُ (الخير) مفرداً في ١٧٦ موضعاً من القرآن، بينما ورد لفظ (الشرِّ) في ٢٨ موضعاً فقط، أي أنّ جهود زراعة (الْخَيْر) ينبغي أن تستحوذَ على اهتمامِ المسلم أكثر من جهودهِ لمحاربةِ (الشَّـرْ) بأزْيَد من ستّة أضعاف.

۞ تَعْزيزُ الحُبّ أكثر من زَعْزَعَةِ الكُرْهِ:

ورد مُصطلح (الْحُبِّ) ومشتقاته في ٨٦ موضعاً من القرآن، مقابل ٤١ موضعاً ورد فيها (الكُرْه) ومشتقَّاتُه، مما يدلّ على أن إشاعة الحبّ يؤثّر في أغلبِ النَّاس أكثر من الشدَّة والغلظة عليهم.

ويؤكد نجاعة هذا الأمر التّجربة التَّجسيديَّة لهذه القيم في عصرِ الضّياء، حيث دخل الناس في دين الله أفواجاً أيام الصَّحابة الكرام، ولم يحدث مثل ذلك في أيِّ عصرٍ آخر، لأن المسلمين لم يبقوا في نفسِ الذّروة التي اعتلاها الصَّحابة وتابعوهم من مشاعرِ الحبّ ومشاعل الحريَّة وصوارم العدل.

✧ **خصوبة الإيجابيّة:**

إن ما سبق يُبرز لنا بجلاءٍ إعجاز هذا القرآن الذي أكّد على خصوبةِ منهج الإيجابيّة في الإثمار، ولهذا دعا إلى الاشتغالِ بالبناءِ والانْشغال عن الهدم، وحضَّ

على استباقِ الخيرات التي تُضيِّق الخناقِ على الشُّرورِ دون اشتباكٍ مع أصحابها، وحثّ على إشاعةِ الحُبِّ الذي سيحاصر الكراهيَّةِ، وهكذا في سائرِ القيم المتقابلة.

وبذلك يتمّ استعمار الأرضِ، فتُزدهرُ الحياة ويزدهي النّاس، بل وتزهو الكائنات ويَسعدُ الخلق.

فتَدبّروا قرآنَكم يَرحمكم الله ويمنحكم عطايا الإيجابيّة الطَّيبة.

❋❋❋

خَـلائِقُ الْقِيَادَة

✧ **كَارِزْمِيّةُ بِلْقِيس:**

كانت الملكةُ بلقيس نموذجاً للشَّخصية الآسرَة ذات الجاذبيَّة الشَّديدة، لكونها مَلِكة ذات مَلَكَات رفيعة مَكَّنتْها من تَمَلُّك قلوب شعبها، بدلالة قوله تعالى على لسان الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾[النمل: ٢٣]، وتشير كلمة تَملِكُهُمْ إلى أنَّها كَانت شَديدَة الاسْتِبداد إلى حَدِّ التَّمَلُّك، أو أنها تَمَلَّكَتْ قُلوبهم.

ولما كانت وِفْقَ رِواية الْقُرآن مَلكَةً شُورَوِيَّة: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢] وامرأة عاقلةً، كما اتَّضحَ بجلاءٍ في كافّةِ نواحي قِصَّتِها، فإنَّ المعنى يَنصرفُ إلى جاذبيتها الشَّخصية.

✧ **المُلكُ المَشْدُود بِأوْتَادِ النُّبُوَّة:**

من المعلوم أنَّ الإنسان يَحملُ في ذاتِه اسْتِعْداداتِ الطُّغْيان: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ – ٧].

ولأنَّ المُلوكَ يَمْلكُونَ الأمْوال والأجْناد والأشْياع فإنَّهُمْ الأشَدّ طُغْيَاناً بَيْن البَشر، حتَّى أنَّهم يَنظُرون إلى شُعوبِهم كحَشَراتٍ مِن شِدَّةِ اسْتِعلائهم وَنَظْرَتِهِمْ الاحْتِقارِيَّة لَهُم.

لكنَّ المُلكَ المَشْدُودَ إلى أَوْتادِ النُّبُوَّةِ والمُسْتَنِير بِضِيَاءِ الْهُدى الرَّبَّانِيِّ لا يتأثر بهذهِ المظاهر، فهذا سُليمان عليه السَّلام لم تَمنعُه حُشودُ الجُنود ومظاهرُ الأُبَّهة.

والْفَخَامةِ مِن رُؤيةِ النَّملِ تَدُبُّ على الأرض، بل لم يَمنعْه ضَجيجُ الموكب من سماع أَصْواتها، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٧-١٩].

✧ ضَرُورَة التَّنْظِير:

إنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥] وهو يتحدَّث عن مواكبِ النبوّة وألْوية العظمة يَرسم منهجاً واضحاً للجماعةِ المؤمنة، حيثُ ينبغي أن تجتمعَ لها المواهب والقُدرات الحركيّة والفكريّة، العمليَّة والنَّظريَّة، ومن ثمَّ فإنَّ أيّ كيانٍ يخلو من أولي الأبصار لنْ ينجحَ ولنْ يُفلح ولنْ يُكتبَ له التَّمكين، فكيف بكيانات تَنظُر إلى الفكرِ كتهمةٍ تُعادل الزَّيْغ عن منهج الله؟!

✧ حِمايةُ جُدُر المُجْتَمع:

إنَّ التَّلبُّس بمشاعر المسؤوليَّة يَجْعلُ المرءَ حريصاً على الحقِّ خادماً للخلْق، يُقيمُ جُدُرَ الحقِّ ويمنعُ جُدُرَ العَدلِ من الانقضاض، ويَحولُ دونَ تَهدُّم بنيانَ المجتمع وانهيار أركانه، ألم نقرأ في رحلة العبد الصَّالح مع موسى عليه السَّلام: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧]، هذا مع أن الجدار يَهمُّ يَتيمين فقط، فكيف بِجُدُر المُجتمعات الَّتي تَهُمُّ الملايين ممن أحالهم الاستبداد إلى أيتام؟!

✧ **الانْغراسُ في أرضِ الثَّباتِ:**

أثقلُ رجُلٍ في ميزانِ الحقِّ هو محمد بن عبد الله (صلَّى الله عليه وسلَّم)، ومع ذلك قال له الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]

ولذلك لا بدَّ أن نَنْغرس في ميادينِ العلم، ونُثقِّل موازيننا بقوةِ الإخلاص، ثُمَّ ندعو الله أن يَهَبَنا الثَّبات فإنَّ الثَّبات يحتاجُ إلَى قَدَمَيْ العلم والإخلاص.

✧**اللِّسَانُ المبِينُ:**

مهما كان المعنى أصيلاً ومقنعاً فإنّه إن لم تتم صياغته صياغةً فصيحة، تتجلَّى فيها البلاغةُ ويتألقُ فيها البيانُ، لن يتمّ فَهمَهُ كما يَنْبغي ولنْ يفهمَهُ السَّامِعونَ كما يجب، ولا سيما في مُجْتمعاتِنا العاطفيَّة.

ولم يَدْعُ موسى ربه قائلاً: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٨] إلا لإدراكهِ أهميّة الفصاحة في تكوينِ الدّاعية والقائد.

✧ **الاسْتفادةُ من الْمواهِب والْخِبَرات:**

القيادةُ في الإسْلام عبادةٌ متعديةٌ ومسؤوليَّةٌ ثقيلةٌ، وكذلك فإنَّ القائد بعد استعانتِه بالله يوظِّفُ كُلَّ المواهب ويستثمرُ سائر الْخِبرات المـُمْكنة، مِن أجْلِ تحقيق المقاصد بأكفأ الوسائل والأساليب.

ولذلك فإنّه لا ينفرد بالرأي ولا يَستبدّ بالقرار، بل يشاور أهل الرُّؤى والرَّويَّة، لإدراكه بأن الشورى ملزمةٌ لمحمد (صلّى الله عليه وسلّم)، وهو النبيُّ المرسل والرجلُ الأكمل، حيث أمره الله تعالى فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولذلك طبَّق رسولُ الله (صلّى الله عليه وسلّم) الشُّورى يوم أُحُد مع مخالفتها لقناعته.

ويستفيدُ القائدُ من الخبرةِ والحِكْمةِ والنَّصيحةِ، ولَوْ جاءَت من أضْعفِ الخَلق، كما فعل ملك الأنبياء سُليمان عليه السّلام، حينما استفادَ منْ رُؤْيةِ طائرِ الْهُدهُدِ، ولَم يغْضبْ منه حين تَفاخَر بخبرتِه قائلاً: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[النمل: ٢٢]، فإذا كان أعظم مُلوكِ الدُّنْيا سَارَ خَلْف (هُدْهُد)، حيث أرسلهُ إلى المَلكَةِ بلقيسَ برسالة، فكيف إذا كان القائد أقلَّ من سليمان، وكان النَّاصِحُ والمشيرُ أهَمّ مِنَ الْهُدهُد؟!

❋ ❋ ❋

جَزائرُ الإيجابِيَّة

✧ **قذائفُ الله:**

إنَّ حقائقَ الحقّ هي قذائفُ يَقذفُها الله على الباطلِ بأيدي جنوده المؤمنين، ويَرمي بها في وجوهِ أهْلِ الزَّيغ والضَّلال، الذين يُجانبون تعاليمَ الله ويُجاوزون حُدودَهم بَغْياً وعُدواناً، والذين يَنْتَهكُون حُرمَاته الواضحة ويُخالفُونَ نواهيه القاطعة، قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

إننا نسمع أصوات القذائف المرعبة، لأنّ الله هو الذي يَقْذفها وإن كانت تَتمّ بأيدي المؤمنين أو بأقلامهم وألسنتهم، ولذلك سرعان ما يَزهق الباطل مَهما بدا قويّاً، ويَذهبُ جفاءً إلى مزبلةِ التاريخ مهما تَوَهَّمَ الناس أنّه طويل العمر.

هكذا قضَتْ مَشيئَة الله الأزليَّة، وعلى هذا مَضَتْ سُنَنَه الثابتة، كما قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

إنَّها تِلْقَائِيَّة السُّـنَن الخادمة لعمارةِ الحياة، وحتْميَّة النَّواميس المُتَضَمِّنَة لمشيئَة الله، فحينما يُقْبِلُ الْحَقُّ لا بدَّ أن يُدْبرَ الباطل، وعندما تُشْرق شمسُ الحقائق تَغْرُب لوامعُ الأكاذيب وتنطفئ أساطير القوَّة وتَزْهَق أوهام الصَّلاح، كما قال تعالى لنبيه محمد (صلَّى الله عليه وسلَّم): ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء:٨١].

ونلاحظ هنا ترتيب الحقّ والباطل، فالباطل ضعيفٌ أمام الحقّ، لكنّه لا يَخْنُس ما لم يَأتِ الحقُّ مؤمناً بأحقّيته ومتسلِّحاً بكافةِ الأسباب التي طالتها استطاعاتُ أولي الأيدي والأبصار.

✧ **الاشتغال بإظهارِ الحق:**

تُعلِّمنا الآية السابقة ألّا نَنْشغل بإزهاقِ الباطل بل نشتغلُ بإظهارِ الْحَقّ، وأنَّ ظُهُور الحقِّ أُفُولٌ حتميٌّ للباطل، وأنّ انْتِصَارَ الْحَقِّ هَزِيمَةٌ تِلقَائِيَّةٌ للبَاطل، وَهَذا يُحتّم جَعْلَ أَعْمَال أَهْل الْحَقِّ إِيْجَابِيَّة، إذ لا بدَّ أنْ يَنْغَمسوا فِي البناءِ أكثر من الهدم، وأن ينغرسوا في أوديةِ الأمرِ بالمعروفِ ولا يَتيهون في صحاري النَّهْي عن المنكر، بحيث يصنعون البدائل التي تَجذب الناس إليهم، محققةً مصالحهم وجالبةً لهم كلَّ نفع.

✧ **سَدُّ الصَّلاحِ:**

إنَّ مَنطِقَ ذي القرنين الإيجابيّ يُعلّمنا بأنَّ الاحْتماء من فسادِ يأجوج ومأجوج، لا يتمّ بالضَّرورة عبر مُعارَكتهم، إذ قد يتحقّق عبر الاحتماء بـــ (سَدّ الصَّلاح) الذي يُقيمه أصحاب العلم والعدل والعمل، جامعين بين هدايات الزَّبور وزُبَر الحَديد.

✧ **عُنوانُ الإيْجَابيَّة:**

من أهمّ عناوين الإيجابيَّة في القرآنِ الكريم قوله تعالى لحبيبِه محمد: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، حيث يوجّهه للانهماكِ في العملِ بالمأموراتِ والإعراضِ عن أهل الجهلِ والضَّلال.

وبتراكم منجزات العمل الملتزم بالأوامر ستختفي مفاسدُ المنهيات تدريجيّاً ممّا سيؤدّي إلى تقهقرِ المنحرفين والفاسدين.

إنَّها دعوة لالتفافِ الجهود حول المعروفِ والْتفات الطَّاقات عن المنكر، ولا سيما في الظُّروف التي يَتمكّن فيها أهل الباطل من مقاليدِ الخلق وامتلاك أَزِمَّة القوَّة.

اسْتِسْقَاءُ السَّمَاءِ

✧ **أَهَمِّيَّة الدُّعاء:**

تتضحُ أهميَّة الدّعاء من أنَّ الله لا يَعْبأ بشيءٍ من أعمال المشركين، باستثناء دُعائِهم الَّذي يَمنعُ نُزولَ الهلاك، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[الفرقان: ٧٧]، ويتضمَّن الدُّعاء الاستغفار الَّذي يَختصُّ بمنع العذاب الاستئصالي، كما صرّح القرآن: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]

✧ **الدُّعاء العَمَلي:**

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] في هذه الآية إشارة إلى أن تدبّر القرآن وعدم التّعجّل في تلاوته، وسيلةٌ عمليةٌ للاستزادةِ من العلم، ثم يأتي الدُّعاء القوليّ بعد التّسلّح بالأسباب.

✧ **الدُّعاء الجَماعِيّ:**

مع أن الدعاء عبادةٌ فرْديَّةٌ تنتصبُ كجسرٍ بين العبدِ وربِّه، إلا أنَّ أكْثر أدعية القرآنِ الكريم جَماعيَّة، بما فيها التي يتلوها المسلم بمفرده، كقولهِ تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦]، ولا وجود للدَّعوات الْفَردية إلّا في حالاتٍ قليلةٍ تَستدعيها طبيعة المطلب وظروف الشَّخص، كدعاءِ زكريا عليه السَّلام بأن يَهَبَ له الله الولد بعد أن طَعَن في السِّن وكانت زوجته عاقراً، وكدعوةِ سُليمان عليه السَّلام بأن يَرزقه الله مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده.

وهذا يَلفت أنظارنا إلى أهمَّية الجماعة حتّى في الدُّعاء، حيث تنعكسُ بركة الجماعة على قُبُول الدعاء.

ويشاركُ هذا الأمر في تكوين الحسِّ الجمعي، ويصنع القابلية للتَّكافل الاجتماعي حتى في الدُّعاء، حيث يدعو المسلمُ لنفسه ولكلِّ مسلم آخر مهما اختلف الزَّمان وتناءى المكان: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

✧ **الْتِماسُ الأنْوارِ:**

من لم يَلْتمسوا أنْوارَ الله في العبادات والمعاملات، وفي التزام الشّعائر والشّرائع، وفي تطبيق الأوامر والنّواهي، فَسيخْبِطُون خبطَ عشواءٍ، وستَلْتبسُ عليهم السُّبل وتَتَشابه عليهم الأَشْياء، وستشتدّ حيراتُهم وتَكثُر عثراتُهم.

وفي القيامة ستَتَبخَّرُ أعمالُهم وتُظلمُ طريقُهم، وعندها يَطلبون من المؤمنين أن ينتظروهم ليقتبسوا من أنوارهم، فيقال لهم كما جاء في القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[الحديد: ١٣]

✧**الاسْتسْقاءُ السَّببيّ:**

حتى في الظُّروف الاستثنائيَّة التي يَسْتسقي المسلمون فيها عونَ الله ونِعَمَه، فإنّ سماء النِّعم الإلهيّة لا تهطل بدون تفعيل الأسباب الممكنة ولو كانت بسيطة، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، فما جدْوى العصا في تفجيرِ عيون المياه؟!

إن الجدوى تَكْمُن في لَفْتِ الأنظار إلى وجوبِ قيام الإنسان بتفعيلِ ما يَملك من أسبابٍ قبل الدُّعاء اللَّفظي وبعده.

✧ **اسْتمطارُ سحائبِ الذكرِ:**

عند الله من الخيراتِ ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خَطَر على قلبِ بشر، وإن استمطار ما عند الله يَتمّ بوسائل عديدة، ومنها القيام بذكر الله، فإنَّها وسيلةٌ لاستمطارِ سحائب ذكر الله للعبد، كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]

وإذا ذَكر الله عبدَه؛ هَطَلتْ عليه غُيوثُ الرَّحمةِ والرَّاحة، وانْهمَرتْ عليه أمْزانُ الطّمأنينة والرِّضا، وانْسكبت غيماتُ البهجةِ والسَّعادة، وفرَّت منه الوساوس والهواجس، وغادرته الظُّنُونُ والأوهام، ليعيشَ في بَحْبوحَةِ الأمنِ وبَهْجَة الطّمأنينة.

✧ **انْمِحَاءُ الذَّات:**

لقد توسَّل نوحٌ عليه السَّلام في اسْتِمْطارِ نَصرِ الله، بانْقِهاره ومَغْلوبيَّته: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر: ١٠]، حيث قدَّمَ في دعائهِ مظْلوميَّتَه قبل مطلبه؛ فحَدَث الطُّوفانُ الأعظم في تاريخ البشر.

❋ ❋ ❋

مَرَاقي التَّرَقِّي

✧ **الْبحثُ عن جَدْوى:**

يَكرهُ الإسلام العبثيَّة، ويَحثّ على التَّخطيط، ويَحضّ على التأكد من الجَدْوى، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]، حيث ربطَ أمر التّذكير بوجودِ نفع التّذكرة، إذ لا مكان للعشوائيةِ أو التَّواكليَّة، ولا قبول لما يُسمَّى بالكتابةِ للكتابة والقَراءةُ للقراءة والفنُّ للفنّ والأدب للأدب، بل هو العملُ الفاعل والجهد الذي يتغيا النّفع ويَستهدف الخِدْمة، فإذا انعدمَ النفع سقط مبرِّر العمل، ووجبَ عليه الانتقال إلى عملٍ آخر.

✧ **النَّفيرُ الحَضَاري:**

إنّ تولّي الأمَّة عن إعدادِ حُرَّاس لثُغورها الفكريّة والسِّياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والإعلاميّة هو قاعدةُ الاستبدالِ والتَّغيير، قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٣]، ولأن الطَّريق إلى ذلك هو إعلانُ النَّفير العامّ بأبعادهِ السِّياسية والاقتصاديّة والثَّقافيّة والعسكريّة كافّة، فإنَّ عدم القيام بهذا النَّفير يؤدّي إلى الاستبدالِ المصحوب بالعذاب، كضريبةٍ ضروريةٍ للذّل، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩]

✧ **بين الرُّقي والتَّرقِّي:**

لا أدري لماذا نكتب الكثير عن قيم الرُّقيِّ والكمال والحضارة، ولا نكتب إلَّا أقلّ القليل عن وسائلِ التَّرقّي ومدارجِ الكمال وعن الطَّرائق الموصلة إلى الحضارة!

إنَّنا نحتفي بالمبادئ ولا نبحث عن المدارجِ التي تُوصلنا إليها بكفاءةٍ عالية.

إن المولى عزَّ وجلّ لم يأمر بركوبِ ناصية التَّقوى فقط، بل أمرَ بابتغاءِ الوسائل الموصلة إلى تحقيقِ تقواه وبلوغِ رضاه، حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[المائدة: ٣٥]

وإنَّ الفرقَ بين الرُّقيّ والتَّرقّي هو ذات الفرق بين المقاصدِ والوسائط، حيث ما زالَ كثيرون يظنُّون أنَّ الحديثَ عن الرُّقيّ أو الحضارة سيُحقّقها في الواقع، دون الاجتهاد في البحثِ عن الوسائطِ المناسبة، ودون الدَّأَبِ في ابتكارِ الوسائل والأساليب الأشدّ نجاعة وكفاءة.

✧ **حَياةُ الإحْياء:**

إن الَّذي يَطفُو فوق المجتمعاتِ من الأفكارِ والشِّعارات كالدُّخان هو الفاسد؛ ولذا يُصبح زَبَداً ويَذهب جُفاءً، وأمّا الذي يَتغلغل في قلبِ المجتمعِ فإنّه الَّذي ينفعُ ويبقى، حيث يُحيي الواقع كما يحيي الماء الأرض، ومن ثمّ يحيا بحياةِ الخيرِ الذي يَحمله، إذ يُصبح جزءاً من ذلك الخير ويَصعب فصلُه، كالماءِ الَّذي يدخل في تكوينِ النّباتات وما فيها من أوراقٍ وأزهارٍ وثمار.

✧ **الفِكرُ الإغْنائِيّ:**

أدنى درجات التَّفكير المَنْطقيّ أن يَحسب المرء قبل الإقدام على أمرٍ ما المكاسبُ المَرجُوّة ويَتحسب للخسائر المتوقّعَة، ولذلك شنّ القرآن الغارة على رؤوسِ الأموال المُرابية التي لم تُغْنِ عن أصحابها شيئاً، وأوجب الزَّكاة حتى على أموالِ الأيتام حتى تظلّ تعمل ولا تُكنَز؛ لتساهمَ في تدويرِ عجلةِ المجتمعِ وتَقدُّمِه.

✧ **استشراف العواقب:**

إن النَّظر في كيفيَّة عاقبة المُفسدين يستدعي معرفة المُقدِّمات والأسْباب، ويستوجب تحليل ما بينهما من تفاصيل وعوامل، وهذا كلُّه يدخل تحت مضمون الأمر الإلهيّ: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

✧ **الاسْتِثمارُ المُثْمر:**

استَثْمِروا ما منحكم اللهُ من طاقاتٍ وعطايا، ليباركَ بها ويرزقكم من حيث لا تَحْتسبون.

فلقد فعَّل موسى عليه السَّلام عصاه إلى أبعد مدى، فكانت سبباً يتوكَّأ عليها في مُنْزلقات الطُّرق ويتحامل عليها في مرضهِ وضعفه، ويَهشُّ بها على غَنمه، ضرباً لأوراقِ الشَّجر حتى تَتَغذَّى عليها وهدايةً لها إلى ما فيه مصلحتها، وكان يَدّخرها لحاجاتٍ ومنافع أُخرى، كمواجهةِ الوحوش الضَّارية والهوام اللَّادغة وقُطّاع الطُّرق.

وعندما استثمرَ كافة إمكانات العصا، منحها الله قدراتٍ أخرى نَقَلَتها من عالَم الشُّهود إلى عالَم الغيب، أو من دائرةِ الأسباب الجارية إلى دائرة الأسباب الخارقة، حيث أمره الله أن يضرب بها البحر: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، وأمره أن يضربَ بها الحَجَر فانبجست منها اثنتا عشرة عيناً.

❋ ❋ ❋

اقْتِبَاسَاتٌ قُرْآنِيَّة

✧ **الفَنَاءُ بحثاً عن الخُلودِ:**

في الامتحان الأوّل في الجنَّة حذَّر اللهُ آدمَ وزوجَه من الاقترابِ من الشّجرة؛ حتى لا يكونا من الظَّالمين.

لكنَّهما اقتربا منها بدافعيةِ الجهلِ والظُّلم الكامنين فيهما، وبتأثيرِ من إغواءِ الشَّيطان وإغرائِه الّذي خدعهما بأنَّ هذه الشجرة هي شجرةُ الخلد، فبَدَتْ لهما سَوْءاتُهما.

وما زال أبناء آدم يتعرَّوْن من لباسِ التَّقْوى كلَّما أكلوا من شجرةِ الحرام، ولهِثوا وراء أوْهام الخُلود.

ولولا أوْهام الخُلود ما تَقاتَل النَّاس على أموالٍ وأعراضٍ تَفْنى، إذ خلقها الله لخدمتهم لكنَّهم أبوا إلا أن يَخدموها هم.

✧ **ذرَّاتُ الأعْمال:**

إنَّ الأعمال الَّتي لا تَنْسلك ضمن الرُّؤية الكونيَّة للإسلام، ولا تنْخرط في منظُومتهِ القلبيّة؛ تَتكسَّـر على أحجارِ الرِّياء، أو تَتبدَّد في فيافي الضَّلال، وتُصْبِح كرمادٍ اشتدَّت به الريحُ في يومٍ عاصف.

✧ **الْقِياداتُ الميِّتة:**

كانت جاهليَّة العرب قبل الإسلام تَسْتَحلُّ أكلَ الأنعام المحرَّمة، وهي المُنْخنقةُ والمَوْقوذةُ والمُتردِّيةُ والنَّطيحةُ وما أكَلَ السَّبُعُ.

أمَّا جاهليَّة هذا العصر فقد جعلت من هذه الأنعام أوثاناً سياسيَّة، حيث الطَّاعةُ العمياء لزعامات ميِّتة، كالمُنْخَنقَةُ بجهلها، والمـوْقوذَةُ من ضَرْبِ الأحرار، والمُتردّية من علْياء غُرورها، والنَّطيحةُ مع مثيلاتها، وما أكل السَّبُعُ الغَرْبِيُّ، ومن ثم صارت هذه الأنعام هي من تأكل عابديها!

✧ **حُوريّات التَّجْديد:**

إنَّ كثيراً من أفكار التَّجديد ورُؤى النُّهوض والابْتكار العلمِيّ، ما تزال في خيام التَّسَـتُّر وأكمام التَّخفِّي، لم يَطْمهثنَّ في بلداننا إنسٌ ولا جان.

والسَّبب يعود إلى أنّ العُلماء قاصرو طَرْفٍ ومُقَصِّرين في البَحْث، مُتوقِّفين عن التَّجريب والتَّنقيب.

✧ **القصَاصُ الحَضَاريُّ:**

إنَّ عدل الله المُطلق قائمٌ على ركائزِ عدّة، من أهَمِّها القصاص، ليس على مستوى الأفراد فقط، بل على مستوى المجتمعات والدّول والحضارات.

وعندما اغْتال المسلمون الأسباب اقْتَصَّ الله لها من النَّتائج، حتى صار مسلمو زماننا أمواتاً ولكن لا يشعرون!

وفي المجتمعاتِ الإسلاميّة المتطوِّرة نسبيًّا، نجد أن حضارتها تعاني من نقص في عينِ الاستبصارِ أو في أنفِ الاستشعار، في أُذُن الاقتباس أو في سِنِّ العَضِّ على النّواجذ، وِفْقَ ما قصَّرت في الأسباب والمدخلات، والجروح قصاص!

✧ **بابُ العَصَبيّات:**

العصبيات القبليَّة والعرقيَّة، الطائفيَّة والمذهبيَّة، الفكريَّة والسِّياسيَّة، هي بابٌ كئيبٌ نحو الفتنة، باطنه فيه الرَّحمة وظاهره من قبله العذاب.

✧ **مُشْكلة القيَادة:**

تنعكس مشاكل التخلّف على كلِّ مجالاتِ الحياة، وتَبرز في كلّ مفاصلها، ومنها المَفْصَلُ القياديُّ، حيث تعاني القيادة في أمّتنا على مستوى الأنظمة والمنظَّمات، المؤسَّسات والتجمّعات من أزماتٍ قياديّة، وذلك لسببين:

١. انفصال أهل السُّلطان عن أهل القرآن.

٢. استغناء أولي الأيدي عن أولي الأبصار، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[ص: ٤٥]، فقد كَمَنتْ عظمةُ آل إبراهيم في جَمْعِهم بين الأفكار والأفعال.

❋ ❋ ❋

أَنْفَاسُ التَّدَبُّر

✧ **زَمنُ التَّدبُّر:**

أشارَ الله تعالى إلى أنَّ من حِكَمِ النُّزول المتفرِّق للقرآن، قراءته بتمهّل ليَتمّ فهمهُ واستيعابه.

ومن الآياتِ الواردة في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]

لقد ظلَّ القرآن يتنزَّلُ خلال ٢٣ عاماً، فهل نستنبط بأن التَّدبر الأمثل للقرآن يحتاج كمتوسطٍ زمنيٍّ إلى هذه المدة؟!

ويؤيّد مشروعيَّة هذا التساؤل أن عمر بن الخطاب الذي كان أقرب الصَّحابة إلى القرآن، ظلَّ ١٢ عاماً يحفظ ويتدبَّر سورة البقرة وحدها!

✧ **إعْجازُ القرآن:**

القرآن معجزةٌ في مبناه ومعناه، خارقٌ في نَظْمِه البيانيّ ونظامه العياني، راقٍ في عباراتِه البليغة ومعارجه الحاملة للنّاس إلى هضابِ الهدايةِ وشواهق الحكمة، فريدٌ في امتلاكه لأساليب الجمال الممتعة وأسباب الكمال المُقنعة، فهو فيما انْفكّ يُمْتع القلوب ويُقْنع العقول.

✧ **بين التَّدبر والخشوع:**

التدبّر يَزرع (الأسباب) الربّانية في (العقول)، والخشوع يُخبئ (الأسرار) الرحمانيّة في القلوب، حتى تصبح شعاباً مرجانيّةً زاخرةً بالزِّينةِ ومُتْرعة بالنَّفاسة.

ويُحقق التَّدبرُ الإيمانَ البرهانيّ، فيما يحقّق الخشوع الإيمان العرفاني، التدبّر يزرع في الحنايا أزهار الجلال والخشوع يزرع ورود الجمال، التدبّر يُنبت التَّصورات الشاملة ويبني النَّظريات الكاملة، والخشوع يُثمر المواجيد الحيَّة ويطلق العواطف النَّبيلة، التَّدبر يخلق الإدارات اللَّازمة لعمارةِ الأرض، والخشوع يبني الإرادات الضروريَّة لصناعةِ الحياة.

✧ **المؤمنُ الذَّهبي:**

مَنْ جَمَعَ بين التدبّر العقليّ والتَّخشُّع القلبيّ، فقد تَأهّل لحلولِ السبائك القرآنيَّة في ذاته، حيث تَزْخر بها جوانحُه وتَتزيّن بها جوارحُه، ويرتقي الإنسان مع القرآن مهما كان معدنهُ رديئاً، إذا استمرَّ في التَّعرض لنفحاته، ومن المحتمل أن يرتقيَ في التألُّق والإشراق، إلى أن يُصبح إنساناً ذهبيّاً ذا نفاسَةٍ عاليةٍ.

✧ **ثَرْوةُ المُوقنين:**

لن يستضيء أيُّ قوم بقناديلِ القرآن، ولن يهتدوا بمناراتِ هداه، ولن يستفيدوا من رحماته، إلَّا إذا توفَّر لهم الإيمان الجازم والإيقان اللّازم بأنّه كلام الله الذي يمتلك قدرات خارقة، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]

فالقرآن ثروةٌ عظيمةٌ للإنسانِ في المعاشِ وفي المعاد، ولكن لن يستفيدَ منه إلا الموقنون، فهو ثروةُ الموقنين.

✧ **أنْفاسُ التّدبّر:**

القرآن هو البحرُ الذي لا ساحلَ له، ولكن الله يَسَّر للنَّاس الغوص فيه عَبْر أنفاسِ التدبّر.

ويستخرج المتدبّرون منه مفرداتِ الهداية وحِلْيَة الإعجاز، ويستخرجون منه فكراً طريّاً يلبّي حاجات الإنسان ويتلاءَم مع خصوصياتِ الزّمان والمكان.

أَفْيَاءُ الاخْتِيار

✧ **اسْتِفهام افْتِتاحِيّ:**

إذا كان الله قد عرض أمانة الاختيار على كافةِ الخلائق، فحملها الإنسان باختياره، أفيُجبره على حمل تفاصيل هذه الأمانة؟!

بالتأكيد لا، غير أن الإنسان الذي اختارَ في عالم الذَّر حمل هذه الأمانة مُعرَّضٌ لامتحانٍ عسيرٍ أشْفَقَتْ منه الكائنات، فإن وَفّى أفلح ورَبِح، وإن أخفقَ خابَ وخَسر.

ومن ثَمَّ فإنه وحده من يختارُ طريق الإيمان الموصل إلى الجنان، أو طريق الكفرِ الموصل إلى سَقَر، وليس لأحدٍ عليه من سُلطان، ولا يجوز لأحدٍ أن يكون عليه بِمُسيطر أو جبَّار، وما على الرسلِ ووارثيهم إلَّا التّذكير والبلاغ.

✧ **قُوَّة التَّقاليْد:**

عندما يَربط الأخلافُ أنفسهم بالأسلاف لا بالمنهج فإنهم ينْقادون لهم انقياد العميان، إذْ يُسْلِمون لهم قِيَادَهم كأنهم أنعام، قال تعالَى عن هؤلاء: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠] حيث يجْرون مُسرعين خلفهم بدون إرادة، فقُوَّةُ الزِّمام تقودهم من خطامهم، وربّما شعروا أنهم سيختنقون إن لم يُسْرعوا!

إنها طبائع المجتمعات التقليديَّة الَّتي استحكمت فيها ثقافة القطيع، حيث يُسابق الجميع لإظهارِ الغَيْرة على التَّقاليد، وإبرازِ الحِرص على حمايةِ التُّراث.

✧اخْتيـار الإنسان:

تؤكّد آيات (مشيئة الإلهية) بصورة مُبَطَّنة احْترام (المشيئة الإنسانيّة)، كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأنعام: ١٤٩] أيّ لو شاء لَهداكُم الْهداية الْجَبْريَّة رَغمَ أُنُوفِكُم، لكنَّه ترك لكم (حريّة الاخْتيار) حتَّى تَستَقيم (قَوانين الاخْتبار) وبذلك أقام عليكم الحُجَّة.

✧ السَّيطرة العَاطفيَّة:

تَشَدَّدَ القرآن الكريم في حُرَّية الاعتقاد، حتَّى وهو يُخاطب الرحمة المحمدية، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[الغاشية: ٢١-٢٢]

ولا يوجد من النّاحية المادِّية شيءٌ يَشي عن أيّ سيطرة، لكنّه التَّكثيف العاطفيّ والسِّحر البيانيّ الذي قد يَسُوق المرءَ بدون قناعة عقليَّة، ولذلك سمّاهُ القرآن إكراهاً، قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾؟!.

✧ خَارطَةُ الأيدي:

منح عدلُ الله المطلق الإنْسانَ حريةَ الاختيار، وأعطاه قلمَ القُدرة الذي يَرسم بهِ ما يريد لنفسه من خيرٍ أو شر، وثوابٍ أو عقاب.

وبنى عزَّ وجلَّ عدله على قاعدة (الجزاء من جنس العمل)، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران:١٨٢]

إنَّ الإنسان يَرسم خارطةَ نَفْعه أو ضُرِّه، أجْره أو وزره، وإنّما الخواتيم من نوعِ المقدّمات والثّمار من جنسِ البذور، فلا يَلومنّ أَحدٌ إلّا نفسَه.

✧ **إرادة التَّقدّم والتَّأخّر:**

لا يُحاسب الله الإنسان إلَّا بوجودِ الحرِّية والاختيار، فلا تكليفٌ إلا بحريَّة، ولا ابتلاءٌ إلّا باختيار.

ولذلك قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾[المدثر:٣٧]، فلو أُجْبر الإنسان على التَّقدم لا يَسْتحقّ الثَّواب، ولو أُكرِه على التَّأخر فلا يَسْتوجب العقاب.

✧ **رياحُ الثَّقافة الجمعيَّة:**

تصلُ خُطورة ثقافة القطيع إلى حدِّ تجريفِ الفرد ليُصبح مُجرَّد ريشةٍ في مهبِّ ريحِ المجتمع، ولهذا دعا القرآن إلى تفعيل التفكُّر بعيداً عن التيار الجمعيّ، فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾[سبأ: ٤٦]، وتزداد خطورة ثقافة القطيع في عصرنا نتيجة الإمكانات الضَّخمة التي يمتلكها الإعلامُ الجارف للعقولِ والقلوب.

❋ ❋ ❋

التّناسُب العَادِل

✧ الجزاء المفتوح:

إن عدل الله وفضلهِ أعطيا صنفاً من المسلمين(شيكاً) على بياض، بلغةِ الاقتصاد المعاصر، ليسجّلوا ما يشاؤون، وهم المحسنون، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤]

صحيحٌ أن كلّ من في الجنةِ يطلبون ما يشاؤون، ولكن من أصنافِ النّعيم المحدّد في كلّ درجةٍ من درجاتِ الجنَّة، أمَّا جزاء المحسنين فإنّه مُطلقٌ في كَمِّهِ ونَوْعِه، ويتناسبُ مع الأسباب التي بذلها المحسنون في الدُّنيا، حيث لم يتقيَّدوا بالمقاديرِ والأوقات المفروضة صلاةً وصدقةً وصياماً ودعوةً ونفعاً، بل كان عطاؤهم بغيرِ حساب، وينسابُ مع عدلِ الله الذي يجزي على القطمير والذّرّة، ومع فضلهِ الذي يُضاعف الحسنات والأجور أضعافاً مضاعفة، ولا سيما ما يرتبط بحقوقِ الناس، قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وكمثالٍ على مسابقةِ المحسنين، وعدم وقوفهم عند المقادير المفروضة والأوقات المطلوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥- ١٩] ونلاحظ هنا كيف أطْلق الله حقَّ المال ولم يقيّده بوصف (معلوم) الذي ورد في آية سورة المعارج، والتي تحدَّثت عن عامّةِ المسلمين الذين يكتفون بالزّكاة وهي الحقُّ المعلوم في مالِ المسلم، بينما المحسنون ينفقون بلا حساب.

✧ **دارُ الثَّواب:**

من عاش في الأرضِ قانعاً بزادِ السَّير وشاعراً بمُتعةِ السَّفر، غير طامعٍ بالخلودِ أو بالعُلوّ في الأرض، فإن الله يمنحه (دار المُقَامَة) في (جنةٍ عالية).

ومن كابَدَ الخوفَ من تَنكُّب الطّريق أو الزّيغ عن الهدى؛ أمَّنه الله في (دار القرار).

ومن نَشرُوا أفياءَ الحُبّ وأشاعوا مشاعرَ السَّلام، فإن الله يَمنحهم مباهجَ السعادة في (دار السلام).

✧ **سُؤال الْفَضْل:**

في الدُّعاء العمليّ والطَّلبِ الدَّنيويّ يتحرَّك الإنسان بميزانِ العدْل الإلهي، فيطلب من الله على قدرِ تَسبّبه وقُدراته ومَواهبه، وفي الجزاءِ الأخرويّ والعطاء الإلهيّ المحض يطلب الإنسان فضل الله السابغ. قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

ولهذا جاء في الحديثِ الشريف: "إذا سألتم الله الجنة، فَسَلُوهُ الفردوسَ الأعلى".

✧ **جزاءُ الشَّفاعة:**

لأن الشَّفاعة للآخرين وسيلةٌ محايدةٌ يمكن أن يملأها الإنسان بالخيرِ أو الشر، بالحُسن أو القُبح، فإن للشافع جزءاً من أجْرها أو وزْرها، قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥]

ولهذا فإن دَيْدَنَ الأنبياء والصَّالحين من بعدهم أنهم: وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

✧ **قَرارُ البَوَار:**

من كانوا من أهلِ البوار في الدُّنيا، وتركوا الأرض بُوراً بدون عمارتها وفق منهجِ الاستعمار الإلهيّ، لن يحصدوا في الآخرةِ إلّا الهَشيم، ولن يستقرُّوا إلَّا في دارِ البوار وهي جهنم.

وينطبق ذلك بصورةٍ أشدّ على القيادات التي قادت شعوبها بقراراتٍ كارثيّةٍ نحو الهلاك، وأَحلَّتْ أوطانَها دار البوار، فإنّها لا شكّ ستسقط في دارِ البوار وبئس القرار، ولذلك عَجَّب الله نبيه محمداً (صلّى الله عليه وسلّم) من هذا الصنف، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

✧ **المَصيرُ البائس:**

للإنسان الحُريَّة في أن يختارَ طريقه ويقرّر (مصيره)، لكن الذين تَنَكّبُوا الصِّراط المستقيم، وساروا في سبيلِ المغضوبِ عليهم أو الضَّالين، لن يصلوا إلَّا إلى جهنم، وبئس (المصير).

ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

✧ **احْذَروا حَطَب السَّيئات:**

السَّيئات التَّي يكتسبها الإنسان في دارِ العملِ هي الحطبُ الذي سيحترق به في دارِ الجزاء، وما يزال المرء يحتطب ذنوباً صغيرةً وكبيرةً حتى تصبح أكواماً تمنعه من رؤيةِ الحقائق كما هي، ومن إدراكِ الآلام التي يسبّبها للناس.

ولأن الجزاء من جنس العمل، فإن أَرْكمة السَّيئات والخطايا ستتجسّد في الآخرة وتحيط بصاحبها لاسعةً إيّاه بنيرانها على الدَّوام، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٨١].

إنه العدل الربانيّ المُطلق والذي جعل الجزاء من جنسِ العمل، فازْرَعوا اليوم ما تُحبّون حَصادَ غداً.

فَجَوَاتُ الشَّقَاءِ

✧ **أمانةُ التَّكليف:**

عندما عرضَ الله سبحانه وتعالى أمانة الاختيار، كامتحانٍ يعطي الله أصحابه إمكاناتِ النَّجاح وممكنات السّقوط فيه، أشْفَقَتْ السَّماواتُ والأرض من هذه الأمانة وأَبَتْ أن تَحْملها، فحملها الإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]

ويتَّضح من خاتمةِ الآية أن عِلَّة قبولهِ بهذا الامتحان الصَّعب هو توفّر الظُّلم والجَهل في تكوينهِ الترابيّ.

وبسبب هاتين الصِّفتين نشأت في حياةِ الإنسان الكثير من الفجواتِ بين الثُّنائيات التي لا تستقيم حياة الإنسان إلَّا بها، ومن خلالها تَسلّلت إليهِ أسباب الانحرافِ وهَبّت عليه رياحُ الشَّقاء.

✧**بين المادَّة والرُّوح:**

الإنسان كائنٌ نسبيٌّ بامتياز، فهو ليس بروحانيّة الملائكة البَحْتَة ولا بماديّة الحيوانات المَحْضَة؛ لأنّه ذو خِلقتين: خلقة ترابيَّة تَنْحطُّ به إلى ثرى الأرض، وخلْقة روحيّة تَطيرُ به نحْوَ ثُريّا السَّماء، ومن ثَمّ فإنَّ سعادته الدنيويَّة وفوزه الأخرويّ منوطان بالتَّكامل المتوازن بين الغلافِ الماديّ المُعْتم والجوهر النُّورانيّ الشَّفاف.

إنَّ حياة الإنسان بدون زاد الرّوح ضَنَكٌ مؤلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]،

وبدون تلبيةِ مطالب الجسم تصير الحياة شاقّة، كما قال تعالى لنبيه محمد: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١-٢]، وذلك عندما قَسَا على نفسه في مبتدأ الدَّعوة الإسلاميَّة.

✧ **بين القول والفعل:**

إنَّ أهم عامل يُعَرِّضْ الإنسان لمَقْت الله تعالى وغضبه، هو وجود مسافةٍ بين الأقوالِ والأفعال، قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، وكلّما طالت المسافة زادَ المَقْتُ.

✧ **بين الأماني والوقائع:**

الكِبرُ آفةٌ تنشأ في القلبِ فتُكبِّر حظوظَ النّفس وتُصغّر حقوق الآخرين.

ويزدادُ كِبر الإنسان كلَّما ارتفع مقامهُ أكثر في خيالاته، أيّ على قدرِ اتِّساع المسافة بين ما هو عليه في الحقيقةِ وإمكاناته من جانب، وبين ما يراه جديراً بنفسهِ وما يعتقد أنّه يستحقّه من جانبٍ آخر.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

✧ **بين الخيالات والمُمارسات:**

كلَّما زادت المسافة بين ادعاءاتِ الجماعات والأمم وبين أفعالها وسلوكيّاتها، زادت نقمةُ الله وغضبهِ عليها، ولا شكَّ أن اليهود هم أشدّ الأمم مقتاً من قبل الله، ولذلك غضب الله عليهم ولَعنهم وجعل منهم القردةَ والخنازير.

فقد سَوَّلَتْ لهم أنفُسُهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنّه لن يدخلَ الجنةَ إلَّا من كان منهم، بزعمِ أن الآخرين ليسوا على شيءٍ وأن الله خلق الأغيار لخدمتهم ليس إلّا!

وفي الجانب العمليّ أساؤوا إلى الله وجسَّدوه في صورةٍ بشريةٍ، ودنّسوا صُوَرَ الأنبياء وجعلوهم زناةً ولصوصاً وقتلةً، وحرَّفوا آيات الله واشتروا بها ثمناً قليلاً، ووقفوا دائماً مع أعداءِ الله ضدّ أوليائه حتى أنهم قتلوا الكثير من الأنبياء وقدّموا رؤوس بعضهم للمومسات، ولم يتورّعوا عن استحلالِ المحارمِ واقتراف سائر الموبقات.

❋ ❋ ❋

أثْقالُ الإسْتِقامَة

✧ **اسْتِقَامَةُ الْبُوصَلَة:**

يؤكد القرآن الكريم أن بوصلة الهداية الفكريَّة، ضمانةٌ لاستقامةِ الطَّريق أثناء مَخْرِ عُبَاب الْحَياة، بِكُلِّ ما يعتريها من أمواجِ الفتنِ ولُجَج العداوات، وما تحتويه من عوارض الطريق وعوادي الاستقامة.

قال تعالى وهو يخاطب حبيبه محمدا (صلّى الله عليه وسلّم): ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]

وما دامت بوصلة الهداية سليمة فإن مسيرة الاستقامة قويمة.

✧ **مشيئةُ الاسْتِقامة:**

لقد أقْسمَ اللهُ تعالى في سورة التّكوير بالنُّجوم والكواكب إذا اختفت وباللَّيل إذا عسعس والصُّبح إذا تنفس، على أن القرآن كلام الله وأنه ذكرٌ للعالمين ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]

وتؤكد آيات الأنفس والآفاق التي اكتشفها العلم الحديث على أن القرآنَ منهج هدايةٍ متكاملٍ لاستقامةِ الإنسان، لكنّ الاستقامة لا تتحقَّق بالتَّلاوة بل بالتَّدبر الذي يمنح الإنسان إرادة الصَّلاح ومشيئة الاستقامة.

✧ **عِزَّةُ الاسْتِقَامة:**

لو لم تكن الاستقامة أمراً عزيز المنال، ما وضع الله (دعاء الاستقامة) في قلب (أمِّ الكتاب) التي تتلى في كلّ ركعةٍ من ركعاتِ الصَّلوات المختلفة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾

[الفاتحة: ٦] حيث يبرز الدّأَب في الطّلبِ حتى يصبح ديدن المصلّي في كلّ ركعةٍ وفي كلّ وقتٍ ولكلّ أحد.

ولأن الاستقامة عزيزة فقد أمرَ الله بها حبيبه محمد (ﷺ)، إذ قال له: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢] حتى ذهب كثيرٌ من المفسّرين إلى أن هذه الآيةَ هي في مقدِّمة الآيات التي أثارت خوف النبي (ﷺ) وشيَّبَتْ شَعْرَه، كما قال: "شَيَّبَتْني هودٌ وأخواتها".

✧ أَثْـقَالُ الاسْتِـقَـامَة:

إن الاستقامة على الهدى المبين بحاجةٍ إلى أَخْذ الكتاب بقوّة، كما قال تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأعراف: ١٧١]، ذلك بأنه قولٌ ثقيل، والقوّة هنا هي:

- قوّة عقليّة تُحقّق الفَهم والتَّمييز.
- قوة نفسيّة تتولّد عن الإخلاصِ فتُولِّد الإرادةَ والتَّصميم، مما يؤدِّي إلى استعذابِ المشاقّ وتَحمُّل المكاره.

ولذلك فإن المستقيم بحقّ لا يَهْتزّ أو يَرْتَجّ، ولا تُزلزله الحوادثُ أو تُخلخله العواصف.

✧ نَفَاسَةُ الإنْفَاق:

الإنفاقُ عن إيمان سببٌ أساسيّ في انبعاثِ مشاعرِ الراحة، بحيث لا يحزن على الماضي ولا يخافُ من المستقبل، فيعيش في بحبوحةِ الطّمأنينة ويتمتّع برفاهيةِ الأمن، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤]

✧ **الاسْتِجَابَةُ لِمنْهَج الاستقامة:**

الاستقامة على (منهج السماء) هي ضمانة (حياة الأرض) التي أوكلَ الله عمارتها للإنسان، كخليفةٍ له كلّفهُ بالعقل، وكرّمه بالعلم، وسلّحه بمتطلباتِ الخلافة، وسخَّر له كلّ ما في السَّماوات والأرض من أجلِ هذه الغاية.

غير أن هذا كلّه لن يتحقَّق ما لم يتمّ النّهْل من منهج الحياة وهو القرآن الكريم، فإن الاستجابة هي طريقُ الاستقامة، ولهذا قال المولى عَزّ وجَلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الانفال: ٢٤]

إن الاستجابة شرطُ الاستقامة، وثمرتها هي الحُسنى في الدّارين، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الرعد :١٨]

✧ **ثباتُ الاستقامة:**

نستطيع مِنْ تَدبُّرِ القرآن الكريم أن نقولَ بثقةٍ بأن من لم يمتلك (قرار) الاستجابة لمنهج الله الكامل، فلن يَقرّ له(قرار) في طريقِ الاستقامة، وسيكون عرضة للزيغ والزَّلل، وستتعرَّض له الفتن في كلِّ منعطف، وسَتنْصُبُ الغِواياتُ حبائلَها له في كلّ مَحَكٍّ، ولا مَنْجَى من ذلك إلَّا بالاعتصام بحبلِ الله المتين والالتزام بطريقهِ المستقيم.

❋ ❋ ❋

مَوازِينُ الْعَدْلِ

✧ **فاعلية العدل:**

ضربَ الله مثلاً وصنع مقابلةً بين نقيضين، ويبدو من تدبّر مغازيها أن العدلَ يقابل: العجز عن الكلامِ والبيان، فهو إذن فصاحةٌ وبيان.

- العجزُ عن الفعل، فالعدل إذن دأبٌ وعملٌ وهو فاعليةٌ وقدرة.
- الكلال على المولى (عالة)، فهو استغلالٌ واعتمادٌ على الذَّات وتفتيق لقُدراتها.
- العجز عن تحقيق الخير في أيّ وظيفةٍ وأي مهمّة تُطلب منه، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦]

✧ **العدل منحةٌ سماويّة:**

لم يذكر الله بأن قيمةً من القيم الحضاريّة نزلت من السَّماء باستثناء العدل، حيث أنزله الله مع الكتاب، وجعلهُ جوهر سائر الرَّسائل السماويَّة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ [الحديد: ٢٥]

✧ **التعلّم من الكون:**

بنى الله هذا الكون وفق نظام دقيق موزون، وطلب من بني آدم أن يقيموا الحياة بذاتِ الطَّريقة، فيعمروا الأرض بميزانِ العدل ويقيموا الحياة على القسطاس المُستقيم.

وأكَّد على ذلك بأسلوبي التّخلية (النَّهي عن الظُّلم) والتَّحلية (الأمرُ بالعدل)، وذكر مصطح الميزان في ثلاث آياتٍ متتاليات: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩]

فإذا كان قوام السَّماء بالعدل: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] فإن قوام الأرض أيضاً بالعدل، لكنّه موكول إلى الإنسان، ولذلك أمرَ الله به أمراً حثيثاً: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٨-١٠]

✧ **التّوازن الخلاَّق:**

لقد أودعَ الله في هذه الأرض من كلّ ما تحتاجه من الأشجارِ والنباتات، وبما يكفل تحقيق التوازن البيئيّ فيها: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[الحجر: ١٩]

والدَّرس الفكريّ الذي نتعلّمه هو ضرورةُ التّنوع حتّى يتحقَّق التَّدافع، مع ضرورةِ التّوازن حتى لا يقعَ الاختلال الذي يثمرُ الصِّراع ويصنعُ الحروبَ والدَّمار.

✧ **الـمُداولةُ العادلةُ:**

يداولُ الله الأيام بين النّاس كما يشاء، ومشيئته عادلة، ولذلك أودَعها في سننٍ صارمة، من استثمرها رَبح ونَجح، ومن فرَّط بها وتنكبها خابَ وخَسر.

هذه المداولة هي التي تجعل وراثةَ الأرض لمن كان أصلَح لعمارتها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]

✧ **دنيا العدل وآخرة الفضل:**

من الفروقِ بين الدُّنيا والآخرة أن الإنسان عندما يسلك طرائق الدُّنيا يُعطه الله بعدلِه، فما يأخذه منها مهما كان يظلّ أقلّ مما أرادت نفسُه.

أمَّا من يَسلك صراط الآخرة فإن الله يعطيه بفضله، فيحصل بذلك على أكثر ممَّا أراد، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]

ولعمري أن ذلك من أهمّ الحوافز لإبقاءِ الدُّنيا في اليدِ وإدخال الآخرة في القلب.

✧**عدل العقاب وفضل الثواب:**

اقتضت مشيئة الله النافذة ورحمته الواسعة، وكذا علمُه بضعفِ هذا الإنسان، أن يجعلَ عقابه عدلاً وثوابه فضلاً، وهو ما عبَّر عنه المولى عزَّ وجلّ بقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

هذه هي القاعدةُ العامّة، ويزيد فضل الله لمن يشاء أضعافاً مضاعفةً، حتى أنّه قد يُدخل بعض النَّاس الجنة بعملٍ بسيط، كالرّجل الذي سقى كلباً شربة ماءٍ أو الذي كان يداين النّاس كما جاء في الحديثِ الشريف.

ويمكن أن يغفرَ الله لمن يشاء من المسيئين سوى الشّرك وحقوق النّاس التي لا تمحوها إلَّا التَّوبة بشروطها المَعروفة.

❋ ❋ ❋

عَوَاقِبُ الظُّلْمِ

✧ **خَرائبُ الظُّلم:**

إن الحُكم الخالي من العدلِ والمُتْرع بالظُّلم، مهما بذلَ أصحابهُ من أسْبابِ النَّفع أو بذروا من حبوبِ الزَّرع، سيستحيلُ إلى إعصارٍ مدمِّرٍ يُهلكُ الحرْثَ والنَّسل، ويجعل المدائنَ العامرة خرائب خاوية.

وفي عصرنا هذا وصل طُغيان بعض المستبدِّين إلى حدِّ التَّعامل مع أوطانهم كمزارع خاصَّة بهم، يُعطُون ويمنعون من يشاؤون وبدون أيِّ معايير موضوعيَّة أو قوانين عادلة.

وصار كلّ ظالم من هؤلاء كصاحبِ الجنَّة الذّي اغترَّ بكثرةِ المال وقوّة القبيل، فكفر بآلاء الله وكانت العاقبة خسراً، كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

ومصيبةُ أوطاننا أشدُّ وأنكى، لأنَّ هذا تكبَّر وتجبَّر في جنَّته الخاصّة، أمَّا هؤلاء فإنّهم يَبغون ويطغَون في أوطان يَملكها ملايين المواطنين، وبعد مَجيء العقوبة فإنّهم لا يندمون على ما فرّطوا في جَنْبِ الله بظُلمهم للنّاس.

✧ **مَعِيّةُ الله:**

إن حضور معيّة الله تجعل الضَّعيف قويَّاً والجبَّار ضعيفاً، وإذا حضرَ مدد الله بَطل مفعول الطَّاقة وتبدَّلت طبائعُ الأشياء.

ويُقدم القرآن في هذا السياق درس موسى وفرعون مع الماء، فقد كان موسى طفلاً رضيعاً لا يَعِي من أمرهِ شيئاً، فاحتضنَه الماءُ حاملاً إيَّاه إلى حيث الأمان، بينما ابتلعَ ذات الماءُ أعظمَ ملوك الأرضِ في زمنهِ وجيشهِ الفرعونيّ في ثوانٍ عديدةٍ.

✧ **نارُ الفِتْنة وفِتْنة النَّار:**

من أشعل نار الفتنة ليُحرقَ بها خلق الله، فإنّه سيحترق ببعضِ نيرانها في الدُّنيا، وسيحترقُ بأضعافها في الآخرة، هكذا قَضت مشيئةُ الله العادلة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٣-١٤].

ولاحِظْ جملة (ذوقوا فتنتكم) حيث يأمرهم بتذوُّق لَفْح النار، كما كانوا يُذيقون في الدُّنيا ضحاياهم نيران المرارات، مشيراً إلى أن هذه الفتنة من صناعةِ أيديهم ونفخِ أفْواههم، ولذلكَ أضاف الفتنة إليهم، وبذلك يزدادون حسرةً وألماً.

✧ **ترصُّد المترصِّدين للنَّاس:**

لا يَكُفُّ الطُّغاة عن التَّربُّص بالنَّاس، وعن ترصُّد الأحرار والتَّجَسُّس عليهم، بعد أن سلبوهم حرّياتهم وصادروا أكثر حقوقهم، وبعد أن حرموهم من إنسانيتهم وأحالوا حياتهم إلى جحيمٍ تتلظَّى.

وكعادةِ القرآن الكريم في ترتيب الجزاء المناسب للجريمة، فقد توعَّدَ الله هؤلاء الطُّغاة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النّبأ: ٢١-٢٦]، ونلاحظ كيف ختمَ الله عناوين هذا العذاب بالتأكيدِ على قاعدةِ الجزاء من جنسِ العمل.

✧ **بَرْزَخُ الحُرِّية:**

عندما حرَّر الله بنيّ إسرائيل من استعبادِ الفراعنة الذين أغْرقَهم الله في البحر، اتَّجهوا من مصرَ ناحيةَ فلسطين، حيث كان أجدادهم، لكنّهم بقوا في صحراءِ سيناء بأمرِ موسى، وكأنَّ الله كان يؤهِّلُهم في هذا البرزخ الحارّ حتّى يتدرَّبوا على حياةِ الحُرَّية في فلسطين بعد إلفتهم لعبوديةِ مصر الطَّويلة.

لقد كانت أحداث هذه المرحلة التي امتدَّت إلى أربعين سنة برزخ تطهيرٍ ومحطَّة تنقيةٍ، وكانت فترة تأهيلٍ ومدرسة تربيةٍ، حتّى يَنْبَتُّوا عن طبائع العبيد ويتخلَّصُوا من غوائلِ الرِّق، وحتى يتخلقُّوا بأخلاقِ الأحرار وينتظموا تَحت بيارقِ الحرِّية.

✧ **ثَمُود العَصْر:**

من المعلوم أنَّ الأمَّة الوحيدة التي صرَّح القرآن بهداية الله لها وإيثارها للعَمَى على الهدى هي أمّةُ ثمود، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وكانت النَّاقة هي رمزُ الهدايةِ التي(عقروها)، فأنزلَ الله بهم الصَّيحةَ التَّي جعلتهم أمةً (عقورا)، إذ عقمت وانْتَهتْ من الوجودِ وأصْبحتْ تاريخاً يُقرأ ضِمنَ ما يُسمَّى بالعربِ البائدة.

ويبدو أنَّ أغلب عرب زماننا هذا هم ثمودُ هذا الزَّمان، فقد منحهم الله أسباب الهداية لكنَّهم آثروا السَّيرَ في سُبُل الغِوايةَ، فحصدوا صاعقة التَّخَلُّف الَّتي جعلتهم غُثاءً أحْوَى!

لكنّ رحمة الله بالأمَّةِ الخاتمة لم تستأصلْ شأْفتهم؛ لبَقِيَّة من خير ولوجودِ الطَّائفةِ القائمةِ بالحقّ، وما زالت الفُرصة سانحةً لهم للعودةِ إلى جادَّةِ الاسْتقامةِ.

❋❋❋

نِسْبِيَّة الْقِيَم

✧ **نِسْبِيَّة الإيْمان:**

من طبائعِ المتشدِّدين السير مع ظواهرِ النُّصوص دون فهمٍ للمقاصدِ أو تدبرٍ لباطنِ النّص، والغريب أنّه حينما لا يكونَ الظَّاهر أشدّ على المُكَلَّفين، فإن بعضهم يتعمَّقون في قراءةِ الباطن بطريقةٍ متكلّفة حتى يُحمِّلوا الناسَ الإصْر.

وعلى سبيلِ المثال فإنَّ نفراً من هؤلاء مُصرُّون على وُجُوبِ إكراه النَّاس على دخولِ الإسْلام، رغم وجودِ أكثر من مائةِ آيةٍ تُؤكِّد على حُرِّيَة الاعْتقاد، وتُحرِّم الإكراه.

وعندما أفلست دَعواهم حول نسخ هذه الآيات بآيةِ السَّيف، ذهبوا إلى أنَّ المُحرَّم هو الإكراه على الإيمان وليس على الإسلام، مُستدلِّين بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]!

مع أنَّ الإيمان في حقيقته يقينٌ عقليٌّ ومشاعر قلبيَّة لا يعلمها إلَّا الله، فكيف يمكن أن يغرسَها بالقوَّة إنسانٌ في قلبِ آخر؟ وكيف سيعرف أنَّها قد انغرست ليتوقّف عن الإكراه؟ وما هي الحوادث التي صنعها الرسول (صلَّى الله عليه وسلَّم) لإكراهِ الكفَّار على الإيمان، والتي تنزّلت الآية بموجبها حسب هذا الفهم؟!

إنّ الإيمان مصطلحٌ نسبيٌّ وهو هنا كما في كثيرٍ من آياتِ القرآن يأتي بمعنى الإسلام بدلالةِ أنّه في عشراتِ الآياتِ يخاطبُ المؤمنين ويدعوهم إلى العملِ بِخلال المؤمنين، كأنّه يقول: يا أيّها المسلمون تحلّوا بِخلال الإيمان حتّى تُصبحوا مُؤمنين.

✧ **نِسْبِيَّة الْعِلم:**

قَرَّر القُرآن الكريم نِسْبيَّة العلم، فقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وهي سِمَةٌ من سمات النِّسبية الإنْسانيَّة مُقابل الإطلاق الإلهيّ في سائرِ صِفات الجمالِ والكمال.

وتنطبق هذه النِّسبيَّة حتَّى على الأنبياء، بفعلٍ من عوامل وَهْبيَّةٍ وكسْبيَّةٍ عديدة، فنُوحٌ هو صانعُ السَّفينة التي مخرت عُبابَ الطُّوفان، وإبراهيم هو باني البيت الذي صمدَ آلاف السنين أمام نوائب الدَّهر وغوائل النّاس، ويوسفَ هو مُفَسِّر الرُّؤى المنامية والخبير الذي أدارَ اقتصاد مِصر في أحلكِ الظُّروف، وداود هو الَّذي ألان الله لهُ الحديدَ، فَصنع دروعاً سابغاتٍ وسيوفاً قاطعاتٍ، وسليمان هو الَّذي تعلَّم مَنطِق الطَّير وسياسة الكائنات، وهكذا سائرُ الأنبياء والمُرسلين إلى مُحمَّد ﷺ، الَّذي كان أعْظم المُربِّيين والسَّاسة، فصنعَ من أتفهِ القبائل أعظم أمَّةٍ أُخرجَتْ للنَّاس، وبنى أعْظم دولةٍ عرفها الوجود في زمنٍ قصيرٍ بِفعلِ عبْقَريَّته التَّربويَّة وحِنكتهِ السِّياسيَّة.

إن التَّخَصُّصَات لا تَنْفكّ عن النّسبية، حيثُ يتفوَّقُ المُتبحِّر في تخصُّصه حتى يُصبح أستاذاً للآخرين، وفي ذات الوقتِ هو تلميذٌ للآخرين جميعاً في سائرِ تخصُّصاتهم.

وبهذا تتكاملُ التَّخصُّصات ويتواشَجُ النَّاس، حيث يتواضعون لبعضهم ويتعاونون، فتَنسجم الحياة وتَزْدهر.

✧ **بيئة الإيمان أو الكُفر:**

ليست البيئة وحدها من يصنعُ الإيمان أو الكفر، بدلالةِ أنَّ زوجَتَيّ نوح ولوط اللَّتين عاشتا في بيتين من بُيوتِ النُّبوَّة كافرتان، إذ رغم اكتنازِ البيتين للإيمان فقد هلكتا مع الكافرين، لأنَّهما لم تسْتمسِكا بالعُرْوةِ الوُثْقى فجرفهما تيَّار الكُفر الهادر.

وبالعكس منهما امرأة فرعون الَّتي عاشت في بيتٍ مُتْرعٍ بالكُفر، لكن انفكاكها عنه وتبرُّأها منه، مع مدّ يدها إلى حَبْلِ الله المتين أَلْحقها بمعسكرِ الإيمان.

بُدُّور (بَدْرٍ)!

✧ **أهميَّة الترعيب:**

أوردتْ سورةُ الأنفال أحداث غزوة بدر الكبرى التي وقعت في ١٧ رمضان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، فلماذا كان العدد ألفاً ولم يكن أكثر أو أقل؟ وهل اشترك الملائكة في القتال المباشر؟

ذكرتْ كتبُ السيرة أن المسلمين كانوا ثلاثمائة ونيّفاً، بينما كان المشركون قرابة الألف، ويبدو أن مهمّة الملائكة انْصبَّتْ على المشركين بإلقاء المخاوف والهواجس في قلوبهم، حتى يصيبهم الرُّعب والخَوَر، لتَضعف معنوياتُهم وتَخورَ عزائمُهم، ومن ثمّ تضعف فاعليتهم القتالية أمام المسلمين.

ولهذا كان عدد الملائكة يساوي عدد المشركين، كأن كلّ ملاكٍ اختصَّ بإرعابِ واحدٍ من المشركين، أما القتال فهو مهمّة الصَّحابة الذين أجهزوا عليهم.

وممّا يؤيّد هذا الاستنباط أن الآية التالية تقول: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]

إن مهمّة الملائكة هي تثبيتُ قلوب المؤمنين وتحقيق الرّعب الربانيّ الذي ألقاه الله في قلوبِ المشركين، وضرب الأعناق والأيدي إنّما يقوم به الصَّحابة الكرام، كما أوردت الآية ١٢ من نفس السُّورة.

وهذا يبين بجلاءِ أهمِّية السِّلاح المعنويّ الذي يُلقي الرّعب في قلوبِ الأعداء مقابل رفع الإيمان وقوّة الشّعور بمعيَّة الله في قلوبِ المؤمنين.

إن هذا الأمر كفيلٌ بقلب الأرقام وجعل الأقليّة أكثريّة، نتيجة قوّة بأسها وشدّة إقدامها، مقابل تحويل الأكثريَّة إلى أقليَّة.

✧ **ملائكة التَّرعيب:**

تتحدَّث سورة آل عمران عن موقعة أُحُد، وتشير إلى حضور الملائكة كما في بدر، قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، فلماذا كان الرقم ثلاثة آلاف؟

إنّه نفس عدد المشركين في هذه المعركة، كأن الرسول (صلَّى الله عليه وسلَّم) عندما دعا ربّه كان يرى أن كلّ مشركٍ بحاجةٍ إلى ملاكٍ يُثبِّطه ويلقي سلاح الرُّعب في قلبه، إذ كانوا أصحاب حميَّةٍ جاهليةٍ وذوي شجاعةٍ وإقدام.

ويؤكّد المقطع على ذات المقصد الوارد في الأنفال عن بدر، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]

وقارِنْ عزيزي القارئ بين الآيتين في السورتين ستجدُ التَّشابه يقترب من التَّماثل، مع فرقٍ دقيقٍ يحتاج منك إلى تدبّرٍ لتعرفَ عظمة هذا القرآن وأهميَّة القوَّة المعنويّة في تعظيم القوّة الماديَّة للجيوش.

وبعد استقراء تجارب قرونٍ طويلةٍ ذهبَ قادةُ الجيوش في عصرنا هذا إلى أن فاعليَّة أيّ جيش تنبني على الجوانب المعنويَّة بنسبة ٧٥٪، والنّسبة الباقية هي على الجوانبِ الماديَّة، ممَّا يتفق مع الرؤية القرآنية.

✧ **هطول التثبيت:**

ما يزال الغيب يتدخَّل في هذه المعركة التأسيسيَّة ليُظهر لنا ما هو خفيٌّ في صورةٍ محسوسة، مبرزاً به أهميّة القوَّة المعنويَّة التي تجعل الواحد بألفٍ أو بمائةٍ أو بعشرة،

وأضعف المؤمنين لا ينبغي أن تقلَّ فاعليته عن اثنين من أعدائه، ففي أرض معركة بدر ذكرت الآية ١١ من سورة الأنفال أن الله يُغشي المؤمنين النّعاسَ ويُنزِّل عليهم ماء من السَّماء يطهرهم به ويُثبِّت به الأرض الرمليَّة لتحرّكاتهم، وثبَّتَ به قلوبَهم لشعورهم بأنَّهم على الحقّ وأن الله حاضرٌ معهم، فكان هطول تثبيتٍ وانْسكاب تأييد، ولهذا تحقّق النَّصر المؤزر، كما أكَّد القرآن عندما قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وعندما قال: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾ [الأنفال:١٧].

✧ **بين التَّهويل والتَّهوين:**

احتوت موقعةُ بدر بمقدِّماتها ولواحقها على براهين عديدةٍ تؤكّد أهميَّة الجوانب المعنويَّة في تثبيتِ الأقدام وتثقيلِ الموازين وفي تحريضِ الطَّاقات وتحفيزِ الفاعليات.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

فعندما يكون تحدّي الأعداء فوق طاقة المؤمنين وفق تصوّراتهم، تنبعثُ في أوساطهم طبائعُ التّراب، مما يؤدِّي إلى تنازعِ المسؤولية وتبادل الاتّهامات، وقد يُفضي ذلك إلى الفشلِ المُريع.

ولهذا يجب أن يقومَ الإعلام الإسلاميّ بدورهِ في إبرازِ قوَّة المسلمين دون تهويل، وفي كشفِ ضعف الأعداء دون تهوين.

❋ ❋ ❋

أَلْبَابُ التّدبّر

✧ **قناديل الآيات:**

لأن الإسلام يحترمُ حريَّة الإنسان، ولا يتقبَّل الله من العبادات إلَّا ما فعله المرء باختيارهِ وعلى قدرِ إيمانِه وقوَّة إخلاصِه، فقد جعل تعالى آيات القرآن قناديل إبصارٍ لمن أرادَ الاستضاءة، وجعل قوة ضيائها على قدرِ قوَّة الإيمانِ بها.

نستنبط هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾ و﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، فمن لم يؤمن بالله أو لم يفتح أقفال القلوب فأنى له أن يَستبصر بآياته؟!

✧ **قوَّة القرآن:**

يمتلك القرآن قوَّةً ذاتيَّة لا تحدّها حدود، وتستطيع أن تسحرَ العقول وتأسر القلوب، ولكن بشرطِ أن يقومَ الخَلْق بدورهم في الاستماع للقرآن بعيداً عن أغلالِ المُسلَّمات المسبقة والعصبيَّات العَمياء، وبعيداً عن الشّواغل والصَّوارف.

لقد استمعَ الجنُّ للقرآن بآذانِ قلوبهم بعيداً عن الشواغل والملاهي، فأدركوا رشده واهتدوا بهُداه، وذهبوا إلى قومِهم مبلغين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾

✧ **كسوف التدبّر:**

إن القرآن بدون تدبّر كالشمسِ في حالةِ الكسوف، وهذا أكثر ما يُحزن الرسول (صلَّى الله عليه وسلَّم) من أمّته، حيث يراها تتخبَّط في دياجيرِ الضَّلال وهي تمتلك

شمس القرآن، لكن هجرها لتدبّره أحالَ نهارها الضَّاحك إلى ليل كئيب، ممَّا دفعه إلى الجأر بالشّكوى إلى خالقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ فمن منَّا يرضى أن يشكوه نبيُّه إلى ربّه؟!

✧ **استمساك التدبّر:**

أمرَ الله تعالى حبيبه محمداً فقال: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣] والمقصود هو التمسّك بالقرآن، غير أن زيادةَ المبنى يدلّ على ضخامةِ المعنى، فإن الاستمساك هنا منهجٌ متكاملٌ للتّعامل مع القرآن الكريم بحيث يؤتي ثمارهُ كاملةً في سعادةِ المعاشِ وفوزِ المعاد.

إنّه استمساكُ الفهم والوعي عبرَ التدبّر والتأمّل، واستمساكُ التنزيل السويّ على الوقائع وِفْقَ الفقهِ بالواقع، واستمساكُ العمل به في شتى شؤون الحياة دون تجزيء أو تبعيض، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

✧ **أَلْبابُ الحكمة:**

من لم يُحسنوا تدبّر القرآن لن يحصلوا على كنوزه، أمَّا الذين هجروا التدبّر بالكليَّة فإن تلاوتهم لا تزيدهم إلَّا نفوراً، فعندما يتشرَّبون المتشابهات تَنْبُتُ في عقولهم البور أشواك الشّبهات، ويَخرجون من المُحكمات بدون حِكمة أو فصل الخطاب، فالحكمةُ لا يجنيها إلا أولو الألباب، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

❋ ❋ ❋

مقاصد الصيام

✧ **غاية الصِّيام:**

إن امتلاك المرء للزّاد الروحيّ الوافر يُمكِّنه من ترويضِ نفسهِ والتَّحكم بخطواته، بحيث لا يجده الله في مواطن النَّهي ولا يَفقده في مواطنِ الأمر.

وللزّاد الروحيّ محطَّات يوميَّة هي الصَّلوات الخمس، وأسبوعيَّة وهي الجمعة، وسنويّة وهي الصِّيام، وعُمْرية وهي الحج.

ولهذا جعلَ الله الغاية العُظمى للصِّيام هي تحصيل زادِ التَّقوى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾.

✧ **نسبية الصيام:**

مثلما جعل الله القرآن مُيسَّراً لكنّه بحاجةٍ إلى ادِّكار المؤمنين، فقد صاغَ الشَّعائر التعبّديّة بطريقة معجزة جعلتها ميَسَّرةً مع كونها مُثقَلةً بالثِّمار، لكن جهد الإنسان معيارٌ مهمٌ في تحديدِ كميةِ ونوعيّة الانتهال من عيونها.

وفي الصِّيام لا بدَّ من مكابدةِ المشاقّ وتنويع العبادات، ولا بدَّ من المجاهدةِ في التنقي من أوضار الطِّين وشوائب التّراب وفيَ التَّرقي نحو سماء الرُّوح، ولذلك علَّل القرآن إيجاب الصِّيام كما في الآيةِ السابقة بالقول: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾، ونلاحظ هنا دقّة الصِّياغة حيث جاء الفعل لعلَّ ليفيد الرَّجاء والذي يحدّده جهدُ الإنسان، ونُسب فعل التّقوى إلى المؤمنين لتأكيدِ دورهم في التنقّي والترقّي وجهدهم في المُكابدة والمُجاهدة.

✧ **ضبط الغرائز والانفعالات:**

الصِّيامُ دورةٌ تدريبيةٌ نموذجيَّة في الانضباطِ الحياتيّ والقُدرة على التّحكّم بالانفعالاتِ والغرائز والشَّهوات، حيث يصومُ المُسلم ساعاتٍ محدودةٍ عمّا هو حلال له كالأكلِ والشُّربِ والجنسِ واللَّهو.

أمَّا الصَّوم عن المحرَّمات فهو واجبٌ دوماً، غير أن دفاعات المرءِ تَضعفُ طيلة العام، فيأتي رمضان ليمنحها التجدّد ويعيد لها القوّة، بحيث يتعوَّد من جديد على الامتناع عن معاقرةِ الشهوات، وبمجرد أن يُؤذّن للمغرب فإنه يحلّ للصَّائم ما حُرِّم علَيه من حلالٍ في النّهار، وبهذا يتدرّب على ضبطِ نفسه وانفعالاته، ويتعَلّم أن التَّحليل والتَّحريم حقُّ الله وحده فيسير مع شرعهِ حيث سار، وكل هذا يدخل ضمن معاني قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ١٨٤].

✧ **التدرّب على الطَّاعة:**

تقوم الحياة على مبدأ النسبيَّة، وتأخذ الأمور حكمها من نفعها أو ضرها، ويتحدّد النَّفع والضرّ ضمن البيئة الموجودة فيها والظُّروف المحيطة بها، ولهذا يصبحُ لكلّ قاعدةٍ استثناء، فالجنس الحلال يصبح حراماً في نهارِ رمضان ويعود للحِلّ بعد أذانِ المغرب، ولكن هذا الأمر له استثناء أيضاً بالنّسبة للمتطوّعين بالاعتكاف في المساجد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ كلّ ذلك حتى يتدرّب الناس على السير مع هدايات الكتاب والتقلّب مع توجيهات الوحي، والالتزام الصَّارم بحدود الشَّرع حتى لو لم تُفهم مقاصد بعضها، ولذلك أتبعَ القرآن النّهي السابق بقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾.

وهذا النهي موجّهٌ لمريدي المنزلة العالية من التّقوى وهي الإحسان، لأن الاعتكاف ليس واجباً في الأصل، ومن ذلك ما رويَ عن بعض محسني السلف أنهم كانوا يتركون بعض الحلال مخافةَ أن يقعوا في الحرام.

سَوَاقي الآيات

✧ **سهامُ الوعيد:**

لو قرأتم القرآن بتدبّرٍ وخشوع؛ لوجدتم سهام الوعيد تتّجه إلى نُحوركم، ولأدركتم أنّه لا نجاة منها إلَّا بارتداءِ دروعِ الخوف من الله والإيواء إلى حصونِ طاعته.

✧ **تِرْياقُ القلوب:**

إن بُرءَ العبد من البلاءِ وشفاءه من الشَّقاء، يكمن في الانكبابِ على القرآن تلاوةً وخشوعاً وتدبراً، فإنّه إكسير الرُّوح وترياقُ القلوب.

وإذا انسكبت معاني القرآن على تلال القلب أنبتت من كل زوج بهيج.

✧ **بركات التَّمعُّن:**

القرآن هو الكتاب الوحيد الذي كلَّما تَمعّنْتَ في آياتهِ تَنعّمْتَ بآلائِه، وكلّما طالت تأمّلاتك فيه عرضت آمالك المأخوذة منه.

وكلّما تصفّحته أكثر اتّسعت صفحة قلبك للنّاس وعظُم صفحكَ عن المخطئين، وزادت صحائف حسناتك.

✧ **أذواقُ التّسْنيم:**

مَن نَهل من معينِ القرآن ووَرَدَ سنّة المصطفى العدنان، صارت أخلاقه أرقّ من النَّسيم، وأذواقه أعذَب من التَّسنيم.

✧ **حرارة التدبّر:**

تظلّ آيات القرآن مصدراً للحياة كالماء، لكنّه بدون تدبّر يصير كالثّلج الذي يحتاج إلى حرارة حتى تذوب جزيئاته ويسيل ماؤه.

إن آيات القرآن أحوج ما تكون إلى حرارةِ التدبّر حتى تسيلَ معانيه العِذاب، ويصبح مصدراً لصفاءِ العقلِ وصحّة القلب، وسبباً لبسوقِ الأفكار واخضرارِ المشاعر.

✧ **أَلْسِنةُ القرآن:**

يمتلك القرآن قوةً ذاتيّة هائلة تُفزع متعصبيّ الغرب، وعندما يقول القرآن كلمته سيسمعها الناس أجمعون، وسيدلف كثيرون من أبوابهِ إلى الإسلام ويعيشون في أكنافه؛ لأنّه يمتلك كلّ ما تُباهي به الحضارة من مزايا، ويمتلك العلاج لما تعانيه من عللٍ وعيوب.

لكن القرآن لن يقول كلمته الفاصلة إلا بعد أن تصبحَ سلوكيَّات الكتلة الحرجة من المسلمين أَلْسِنةً ناطقةً باسمه، مُجسدةً لتعاليمه.

✧ **الانصراف عن الأَقْوَم:**

لقد خلق الله ﴿ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ كما في الآيةِ الرابعة من سورةِ التين، وهذا في القوام المادي، أما القوام الروحيّ فقد تَعرّض الإنسان فيه للابتلاء، ومنحهُ الله منهج القرآن لكي يجعله إمامه في طريق القوامة والهداية وفي مسارِ الكمالِ والجمال، إذ أنّه كما قال تعالى عنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

واليوم لننظر كم يصرف المسلم من أوقاتٍ وطاقاتٍ وأموالٍ على فهم القرآن وعلى الاجتهادِ في السيرِ خلفه، مقابل ما يصرفه لصالح الجسم، حتى نعرفَ لماذا لم تظهر ثماره في واقعنا المعاصر.

قَناديلُ المَالْ

✧ **سُنَّةُ الاسْتِبْدال:**

إنّ التولِّي عن الإنفاق في سبيلِ الله والبخل في بذلِ المال من أهمّ مبرّرات الاستبدال الحضاريّ، لأن معظم مشاريع الاستخلاف وصناعة الحياة تحتاج إلى مالٍ وفير، قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٢٨].

وتفيد جملة ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ أن البُدلاء هم من الأسخياءِ الكُرماء، الذين يبذلون في سبيلِ الله، ولا يسلكون طريق البخل ولا يعرف الشحّ سبيلاً إليهم.

✧ **الإنْفاق الـجَمْعِيُّ:**

يُوجد في أُمَّتنا أعداد منَ المُنفقين الأجواد، لكنّها بالجملة من الأمم البخيلة مقارنةً بالأمم الغربيّة مثلاً، حيث يُنفِقُ الأمريكيون وحدهم مئات المليارات من الدّولارات سَنوياً على العملِ الخيريّ في المجالاتِ العلميّة والاجتماعيّة والصِّحيّة، فجامعة هارفارد وحدها تمتلك أوقافاً تزيد قيمتها عن مائةِ مليار دولار.

وتلفتُ أنظارنا الآية السَّابقة إلى وجوب الإنفاق الجمعيّ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ حيث ينبغي أن يكونَ الإنفاق خُلُقاً عاماً في أغلبِ القوم، ولا يغني عن ذلك وجود أفرادٍ أجوادٍ وقليل من الأسخياء النادرين، وهذه سِمَة الأممِ الصَّاعدة دوماً، ذلك أنَّ المالَ عصبُ الحياة.

✧ شَرفُ الـعَطَاء:

يمكن القول بثقة إنَّ العطاء عِزٌّ وشرفٌ وإن الأخذ مذلَّةٌ وتلفٌ، ولأنَّ مَقامَ الرُّبُوبيَّة جَامعٌ للْمَحاسِنِ والمَحامد كُلّها، فقد أشَار القُرآن إلى بُرهان مِن براهين رُبُوبيَّته تعالى واستحقاقه للعبوديَّة وهو أنَّه يُعطي ولا يأخذ، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[الذاريات: ٥٦ -٥٧].

ولهذا كان دَيدَن جميع الأنْبياء أنَّهم لا يسألون على دعوتهم أيَّ أجْر، واشْتَرط الإسلام لقَبُول الْعبادة الإخلاص، حتَّى لا يستهدف المرء أيّ منافع أخرى، ولتظلَّ كرامة المؤمن عاليةً، لأنّه يعطي ولا يأخذ إلا مضطراً.

ولأنّ العطاء شرفٌ، فقد قضت سُنَّة الله بأن يكون سادة الدُّنْيا هُم الأسْخِياء.

✧ بُخْل الأغْنياء:

مِنْ أغْرب العَجَب أنْ تَجدَ كثيراً من الأغنياء بُخَلاء مُقْترين، تَمْتلِئُ نُفُوسُهم بالشُّح، ويُفسِدُ الطمعُ قلُوبهم، يَعرفون فقط كيف يُدخلونَ المال، كأنَّ أموالهم تَسِيرُ في طريقٍ إجْبَارِيٍّ واحد.

ولقد كان أغْنى أغنياء البَشَر قارون من هذا الصِّنف، فقد آتاه الله من الكنوزِ ما إنَّ مفاتحه لتَنُوء بالعُصبَةِ أولي القُوَّة، ومَع ذلك لم يُعطِ الفقير، ولم يمنح المسْكين، ولم يَرفِدْ المُحْتاج، وسَوَّلت له نَفْسُه الشَّحيحَة ارتكاب جريمةٍ أكبر عندما قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[القصص: ٧٨]

ويبدو أنّه كان بخيلاً حتّى على نفسهِ ومُقتّراً على أهله، نستنتج ذلك من قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص:٨١] فقد كان رغم كلّ تلك الأموال يسكنُ في دارٍ وليس في قصرٍ.

✧ الْعِبَادَةُ المَـالِيَّة:

إن قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر: ٧] قاعدةٌ عامَّة في إيجابِ الالـتِزام بما صدر عن الرَّسول (صلَّى الله عليه وسلَّم) على سبيلِ البَلاغ والبَيان وليسَ بِصِفَتِهِ البَشَرِيَّة، ولذلك قال: (الرسول) ولم يقل (محمد).

وقَد وردَت هذه القاعدة العامَّة في سياقِ توضيحِ الطَّريقة التَّي ينبغي أن يوزَّع الفيء بها، والفيءُ هو المالُ الَّذي حصل عليه المُسلمون من العدوّ دون قتال، فهي تأكيدٌ على وجوبِ الالتزام بهذه الطَّريقة في توزيع أمْوال الفيء، لأنَّ المالَ قوامُ الحياةِ، ولأن من طبيعةِ الأنْفُس البشَريَّة الطَّمع والهَلع، مما يؤدّي إلى الاختلافِ والافتراق، فاحتاج الأمرُ إلى هذا الضَّبطِ والتَّأكيد.

❋ ❋ ❋

كنوزٌ رمضانية

✧ **عطاءُ الصَّبر:**

عَظّم الله قيمة الصَّبر فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ حيث تطرَّق إلى الصبرِ ولم يتطرَّق إلى أركانِ الإسلام أو الإيمان رغم عظمتها؛ لأنّ الصَّبر عبادةٌ جليلة ترتبط مباشرة بالخَلقْ وصناعة الحياة، وتحتاج إلى طاقةٍ هائلةٍ من تَحمّل المَكاره والمَشاق، وذلك عبر القبضِ بكفّيّ الألم على جمراتِ الابتلاء، والعضّ بنواجذ الاستمساك على الفرائض، والتمسّك بثيابِ الفضائلِ في مناخٍ تعصفُ به رياحُ الرذائل.

وتشير عبارة ﴿جَزَيْتُهُمُ﴾ إلى الطَّاقة الهائلة للصَّابرين، كأن العمل كافأ الجزاء، بينما الثواب عطاءٌ يفوق العمل.

فالصَّبر عطاءٌ عميم حتى لو بدا الأمر غير ذلك، ولهذا كان جزاؤه عظيماً.

ثم إن الصَّبر يختزلُ سائر العبادات: الصَّبر على التمسّك بالقيم وإقامةِ الفرائض، والصَّبر عن الشَّهوات والمطالب المحرَّمة والتي يُزينها شياطين الإنس والجنّ وتأمر بها النَّفس الترابيَّة، والصَّبر على العداواتِ والابتلاءاتِ وعلى مكابدةِ الغصص والآلام.

ولا شكّ أن رمضان يلعب دوراً كبيراً في تدريبِ أصحابه على امتلاكِ كنز الصَّبر بكلِّ ما فيه من مزايا وعطايا.

✧ **الاستجمام في عالَم الغَيب:**

عندما يَشتدّ على المرءِ عالم الشَّهادة ويضيق عليه بما رَحب، ينبغي أن يرتادَ عالَمَ الغيبِ ليجبر كسرهُ ويكمل نقصه، ولكن دون تجاوزٍ لثوابت القرآن.

فعندما اشتدّت أذيّة المشركين للنبيّ في السنةِ التي مات فيها سندهُ الماليّ والنّفسيّ خديجة، وعونهُ السياسيّ والاجتماعيّ عمُّه أبو طالب، ونال أذى سفهاء الطَّائف بعد أن صارت رحلته إلى أهلها كمن استجارَ من الرَّمضاء بالنَّار، بعد هذا كلّه وقعت له حادثتان غيبيتان منحتاه الراحة والطمأنينة، وهما:

- رحلة الإسراء والمعراج.
- حادثة التقائِه بالجنّ وإسلامهم على يديه، كما هو معلومٌ في كتبِ أسباب النّزول وكتب السّيرة النبويَّة، مثل سيرةِ ابن هشام.

ومن المؤكّد أن رمضان هو أهمُّ محطة لاستجمام العقلِ ورفاهيةِ الرّوح ولراحةِ القلب والجسم، حيث يجد الكلّ غرضه في أكنافِه ويقضي الجميع وَطَرَهم في أرجائِه.

✧ **مجيء الحقّ:**

من طبائعِ الباطل أنّه ضعيف رغم مكائِده القويّة وأسلحته الوفيرة، ودليلُ ذلك أنّه يَزْهق بسرعة، لكن ذلك لا يتحقّق بأمرٍ غيبيّ وإنّما عبرَ حِراب الحقّ وسيوفه، وعبر تضحيات الصَّالحين ومصابرتهم، وعبر إعداد المجاهدين وبطولاتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ وكم جاء الحقّ في رمضان من حيث لا يحتسب الأعداء، وكم أُزهق فيه من باطل، كيومِ بدر وفتح مكة وفتح الأندلس ومعركتيّ حِطّين وعين جالوت الفاصلتين.

✧ **طاقة الصَّبر والصَّلاة:**

من أجل تَحمُّل مشاق الحياة وأعبائها، يحتاج المسلم إلى جَلَدٍ ودَأَبٍ كبيرين.

وإذا صبرَ المسلم على تَحرّي أوقات الصَّلاة، واصْطبر على التحلّي بطهارتها، وإذا صابرَ على امتلاكِ شروطها ورابط في بناءِ أركانها، وإذا اتّقى الله في استدعاءِ

خشوعها، فاستحضرَ جلاله وكماله، فإن الصَّلاة ستقفُ شامخة بجانب الصَّبر، لكي تُعيناه على تحمّل الصَّدمات والنَّوائب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

ورمضان هو أهمّ موسم في العامِ للاستزادة من طاقتيّ الصَّبر والصَّلاة.

✧ **جسر الإحسان:**

الإحسان هو البابُ الذي يدلفُ منه من يريدون ارتيادِ رحمة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]

ولما كان شهر رمضان موسماً لكثيرٍ من الطَّاعات الجامعة في مقاصدها بين يقظةِ العقل وحساسية القلب، والمازجة فيً شروطها بين قوةِ العلم ورقّة الإخلاص، فإنه - أي رمضان - المحطّة المثاليّة للانطلاقِ نحو الإحسان، حيث الأعمال الكبيرة والأجور الوفيرة.

ويمكن القول بأنّ رمضان هو جسرُ العبور إلى جزيرةِ الإحسان، ولذا صار شهر الرّحمة بلا منازع، فيا شقاوة من خرجَ من هذا الشَّهر ولم يتعرض لرحماتِ الله ونفحاته!

❋ ❋ ❋

ذَخَـائِر التَّـدبُّر

✧ **أَعَاجِمُ الـعَرب:**

لا يُؤتي القرآن ثمارهُ إلا لمن آمن به، ولا يؤمن المرءُ بشيءٍ لا يعرفه ولا يفهمه!

ولذلك كان لا بدَّ من تدبُّر القرآن وفقَ قواعد العربيَّة الفُصحى، والتي يجهلها اليوم أغلب العرب فضلاً عن المسلمين الأعاجم.

وقد أشار الله إلى هذا المعنى فقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ١٩٨-١٩٩]. فهل يا ترى ما زلنا عرباً أم صرنا من الأعجمين؟!

✧ **فُرقان التَّدبّر:**

(الْفُرْقَان) اسمٌ من أسماءِ القرآن العديدة، وصار عنواناً لواحدةٍ من سورِ القرآن الكريم، فهو (فُرقَان) بين الحقّ والباطل، و(فُرقان) بين الأعمالِ المقبولة والأعمال المردودة.

وسجّلت هذه السُّورة شكوى النَّبي ﷺ بقومهِ لربه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]

فكأنَّ التَّدبّر هو الفُرقان في فاعليَّة القرآن، وبدونه يصير كلاماً غير مفهوم ومن ثم غير مفيد، وإذا أُسيء فهمه ورُكِّبت أدويتُه بطريقة خاطئة فقد يَتحوَّل من بلسمٍ شافٍ إلى سُمٍّ زُعَاف، كما يحدث من بعض الحُفَّاظ الذَّين اندفعوا نتيجةَ سوء الفهم إلى اجتراحِ التَّكْفير والتَّفْجير.

✧ عُروبَة الْـقُرآن تَيْسِير:

القرآن كالنَّخلة الباسقة في عَنان السَّماء والمُثْقلة بأطايب الثَّمر، حيث يحتاج إلى هَزّ جُذوع مبانيه حتى تسقط معانيه الطَّرية وتَنْسكب ثمارُه الجَنيّة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر :٢٢] ومن تيسيره إنزاله بأوضح وأدقّ اللُّغات وهي العربية، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[الدخان: ٥٨]، فالتَّيسير مطيَّة الـتَّـذكير، والتَّذكير هو مزاوجةٌ حكيمةٌ بين التَّدبر العقليّ والخُشوع القلبيّ.

ولأن التَّأمل الـعقليّ حجرُ الزَّاوية في هذه العمليَّة، فقد خصَّه الله بالذِّكر فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وإذا لم يتمّ تدبُّر القرآن حتى استيعابه، فسيظهر مُتديِّنون على شاكلة (إخوة يوسف) الَّـذين فعلوا الأفاعيل دون شعور بالذَّنب، نتيجةَ سوء الفَهم على الأرجح.

✧ تَوطِين القُرآن:

إذا حفظ المرء القرآن بدون تدبُّر، فإنَّه سيعلق في ذاكرته التَّي تُمثِّل سُبْعَ مساحة العقل، ولن يُجاوز حنجرته في اتِّجاه القلب.

والتدبّر هو الذي يُوطّن القرآن في عرصاتِ العقْل وأكنَافِ القلب، حيث يُحيل النصَّ القرآنيّ إلى رؤى تنغرسُ في العقل الباطن ومشاعر تسكنُ شَغَاف القلب، فتصدُر القرارات من خلالها ليصبحَ القرآن إماماً لصاحبهِ يقوده إلى كلِّ خيرٍ ويجنبهُ كلّ شر.

وقد أومأ القرآن إلى هذا المعنى فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، حيث الرّبط الواضح بين التَّأنّي في القراءةِ والاستزادةِ من العلم.

ولأنَّ آفة الحفظ النِّسيان فقد أوردت الآية التالية للآية السابقة العهد لآدم بعدم الأكل من الشجرة المحرَّمة، لكنّه وقع في المحظور نتيجة النّسيان وضعف العزيمة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

✧ **صِنَاعَةُ العَزائم:**

يبدو أنَّ مجيء آية العهد إلى آدم بعد آية داعية إلى التَّدبر، يُشير إلى أنَّ التَّدبر يتجاوز آفة النّسيان التي وقع فيها عقلُ آدم ويعالج انعدام العزيمة الَّتي وقع فيها قلبُه ممّا أوقعه في المعصية، فالتدبّر يجعل المعاني جزءاً من تركيبةِ الإنسان، وعندما تلتصقُ تلك المعاني الربانيّة بمَلكات العقل وتستقرّ في شغافِ القلب فإنّها تخلق العزيمة التي تصبح جسراً متيناً ينقلُ الفكرَ إلى ساحاتِ الفعل، وتحيل التَّصوُّرات النَّظرية إلى صورٍ حيَّة تتَحرَّك في ميادين الابتلاء الحياتي.

❋ ❋ ❋

سَجَايَا السُّجود

✧ **عَلَقُ الحضارة:**

سورة (العلق) هي أوّل سورِ القرآن نزولاً، ولأن القرآن وضع الأُسس لخيرِ أمةٍ أُخرجت للناس، فإن هذه السّورة لمن تدبّرها تمثّل مرحلة (العَلق) لهذهِ الأمة.

ومن المؤكد أن (العلق) الحضاري هو الإنسان الذي يقترب من ربّه بجوانحهِ قدرَ مستطاعه، ولا سيما العقل والقلب، فالإنسان بهما كلّ شيء وبدونهما لا شيء، ولهذا احتوت السّورة على أمرين لا ثالث لهما، الأول: القراءة وقد افتتحت به السّورة، والآخر: السّجود وقد اختتمت به السورة.

وما بين القراءة الشاملة لآياتِ الله والسّجود الكامل بين يديّ المعبود، يتبوأ المؤمن مقامَ الذلّ بين يديّ خالقه، وهو ذاته مطيّته لاعتلاءِ مقام التّكريم بين سائرِ الكائنات الكونيّة.

✧ **السُّجود طريق الصُّعود:**

إن السّجود أمام العزيز الكريم هو عين العزّة والكرامة، لأن السّجود يطوي المسافات ويجتاز الموانعَ أمام اقتراب المخلوق من خالقه، حيث يستندُ السَّاجد بضعفهِ إلى القويّ المتين وبفقرهِ إلى الغنيّ الكريم، ويستمدّ منه الهداية والإبانة، ويأخذ منه التوفيق والإعانة، ويفيض عليه مولاه برضاه ورحمته، بعفوه ومغفرته، وبقدرته يُصلح عجزه، وبلطفه يجبر كسره، ويجعله عزيزاً كريماً، لا يذلّ أمام الحاجة، ولا يهون أمام الضّعف، ومهما كان فإنّه لا يطأطئ رأسه للمتكبّرين ولا يستكينُ أمام الطُّغاة.

ولأن السّجود كرامة فقد لفت الله نظر محمد ﷺ إلى ظاهرةِ السّجود الكونيّ التي يسجد فيها لله من في السموات ومن في الأرض، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وختم الآية بقوله: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨].

✧ **تساؤل:**

إذا كان الله قد كرَّم آدم على سائرِ الكائناتِ بما فيها الجنّ والملائكة رغم سبقهم للإنسان، وأمرَ الملائكةَ بالسجودِ التكريمي له مع أنّها مخلوقات نورانيَّة معتادة على الطاعةِ المحضة، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أفلا يستحقّ سبحانه أن نسجدَ له شكراً على هذهِ النّعمة واستبقاءً لهذا التّكريم، واستمداداً لتلك العزة؟

✧ **السجود العملي:**

إن مرابطة المسلم في محرابِ الصَّلاة، وقُنُوتَه بين يديّ الله بصدق، وسجوده بذل أمام عزّته وكبريائه، لهو دورةٌ تدريبيّة على السجودِ العمليّ لله في محرابِ الحياة، بالحرصِ على الطَّاعة الدَّائمة والالتزام الصَّارم، وبالخوفِ من المخالفةِ والخَشية من المعصية.

إن السّجود الدّائم ترويضٌ للنُّفوس المتمرّدة وتهذيبٌ للطبائع الترابيّة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٥]، والمسلم لا يمكن أن يأنفَ عن السُّجود لله بمعناه المادّي المتبادر إلى الذّهن، لكن بعض المنتسبين للإسلام، كما نرى اليوم، قد يستكبرون عن السُّجود لله في محرابِ الحياة، برفضِ تطبيقِ منهج الله في السياسةِ والاقتصادِ والثقافةِ والإعلام والفنّ والأدب أو بعضها، ويؤيّد هذا المعنى الآية التي تلي الآية السابقة،

قال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ هكذا بإطلاق، وليس في محراب الصَّلاة فقط، ثم جاءَت الآية الثالثة تقول: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾[النحل:٥١]، كما نرى اليوم مسلمين يعبدون الله في محرابِ الصَّلاة، لكنّهم يعبدون غيره في محاريب الاقتصادِ والسياسةِ والثَّقافة، ثم جاءَت الآية ٥٣ لتؤكّد أن الدِّين كلّه لله، أي مصدر التَّوجيه في محرابِ الحياة: ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ والواصبُ هو الكامل، أيّ كما أن الله معبودٌ في محرابِ الصَّلاة، ينبغي أن يكون معبوداً في محاريبِ هذه الحياة، بالسُّجود السياسيّ والسُّجود الاقتصاديّ والسُّجود الثقافيّ والسُّجود الاجتماعيّ.

وبهذا يكون السُّجود قنطرة العبور بالمسلم من محرابِ الصّلاة إلى محاريبِ الحياةِ كافَّة.

❋ ❋ ❋

جسور التدبر

✧ **جسر التدبّر:**

من أكبرِ المصائب المدمّرة الفهمُ المغلوط للدّين، لأن عواقبه كبيرةٌ وتداعِياته خطيرة.

وعندما انقطع جسر التدبّر بين المسلمين وقرآنهم؛ أساؤوا فهمَ هذا الدّين فارتكبوا حماقاتٍ كبرى، وأساؤوا لدينهم وهم يظنّون أنّهم يُحسنون صُنعاً.

فلقد نَقَضوا غَزْلَهم ونكثوا عهدهم، ثم دمَّروا أسوارهم وأحرقوا سفائِنهم، ووصل الحال إلى أن خربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي الكافرين وأخرجوا النّاس من دينِ الله أفواجاً.

✧ **القوَّة الشَّاملة:**

كتب الله لكليمه موسى عليه السَّلام في الألواحِ من كلّ شيءٍ موعظة وتفصيلاً لكلّ شيء ثم أمرهُ فقال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾، وأمرَ نبياً آخر بالقول: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾، فما هي القوّة هنا يا ترى؟

يبدو أنّها قوةُ الفهمِ التي تتوسل بكافةِ المَلَكات العقليّة، وقوّة التلقّي التي تدخل من أبوابٍ متفرّقة نحوَ حقيقة الخشوع والخضوع، وقوَّة التّنزيل التي تَعي مرامي الكلام وتراعي خصائص الواقع وحقائق العلم، وقوّة التَّطبيق التي تسعى لتطبيقِ مقاصدِ النّص مع مراعاةِ النسبيّة والفروق الفرديّة.

✧ **جوهر التدبّر:**

تكتمل في بشريّة المرءِ إنسانيته بقدرِ اكتمالِ روحه، وتكتملُ روحهُ بقدرِ اكتمالِ استمدادهِ السّماويّ، ويكتمل عقله بقدرِ اكتمال تفعيله لملَكات عقلهِ وانفعالاتِ

قلبه، ويتحقّق ذلك كلّه عبر التدبّر الواعي، ولذلك جعل الله تعالى التدبّر جوهر عمليّة التَّفاعل الخلاق مع القرآن الكريم.

✧ **وحدة القرآن:**

اقرؤوا كتابكم بأعْيُن التدبّر، وتَملّوا في آياتهِ بأنظار التفكّر، وتأمّلوا في قصصه بأحداقِ التبصّر.

تَنقّلوا بين المباني والمعاني، بين التراكيب والمضامين، بين الإعجاز والهداية، وأطيلوا التدبّر والتفكّر، فهل ستجدون في آياتهِ من تفاوت؟! وهل سترون باطلاً يأتيه من بين يديهِ أو من خلفه؟!

لن تجدوا إلا كتاباً متشابهاً في جمالهِ وكماله، مثانيَ في إمْتاعهِ وإقْناعه، متكاملاً في بَلاغَتهِ وبَلاغِهِ.

✧ **ذُخْرٌ وذخيرة:**

إن تدبر القرآن ذخيرةٌ للإنسان في دنياه وذُخرٌ له في أخراه، فمن يُفرِّط في ذُخره وذخيرته إلا من سَفِهَ نفسَه؟!

✧ **وُرُود القرآن:**

إذا جعلنا القرآن مَنْهلَنا ولا يتمّ (الورود) إلّا إليه، فستزدهي حياتنا بأزاهيرِ الخيرِ وتنبت في ربوعها (الورود).

✧ **تدبر الرشد:**

القرآن منهجٌ متكاملٌ للترقّي في آفاقِ ملائكيّة الإنسان، لكن ذلك لا يتمّ بطريقةٍ آليّة، ولا بدّ فيه من التَّدبر الواعي والتَّطبيق الرشيد.

❋ ❋ ❋

شروط الدعاء

✧ **الاتكاء على القادر:**

الدّعاء تعبيرٌ عن عجزِ الكائنِ الإنسانيّ الضَّعيف، واتكائِه على صاحبِ القوَّة المُطلقة، واتكاله على صاحبِ القُدرة الخارقة، إنّه برهانٌ من براهينِ ألوهيَّة الله المودعة في فطرةِ البشر، وقد لفت الله عزّ وجل الأنظار إلى هذا البرهان عندما أمر رسوله (صلَّى الله عليه وسلَّم) أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠- ٤١]

ويروى بأن الإمام أبا حنيفة استخدمَ هذا البرهان بطريقةٍ عمليةٍ مع أحد الدهريين الذين ينكرون وجود الله، عندما حفر له حفرةً وساقهُ نحوها حتى وقعَ فيها فجأة، فصاحَ الرّجل بدونِ وعيٍ قائلاً: يا الله!

✧ **إبرازُ الضّعف:**

كلَّما استطاع الإنسان أن يُظهر ضعفه ويُبرز انكسارهُ أمام الله أكثر، كان دعاؤه أرجى في القبول، وهذا يحتاج إلى اهتمامٍ بالجوهرِ قبل المَظهر، وإلى عنايةٍ بالأفعالِ أشدّ من الأقوال.

وفي هذا الإطار نستطيع القول بأنَّه ليس ضعيفاً أمام الله من ينتهك شيئاً من محارمه، وليس ضعيفاً من يتكبّر على الخلقِ ومن يملأ الغرورُ قلبَه ويُتْرع الكِبرُ فؤادَه.

إن الدعاء الذي يحتفي به القرآن يأتي في سياقٍ منظومةٍ من العباداتِ التي تجسّد ذُلّ العبدِ بين يدي ربّه وخضوعه لجبروته، كقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ

ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[السجدة: ١٦]، حيث سكن الدّعاء بين الصَّلاة والإنفاق.

✧ **مُخّ العبادة:**

لقد أكَّد القرآن على أن الدّعاء لا ينفكّ عن العبادات، فهو الجزءُ الأكثر حساسية ضمن منظومة العبادةِ الشَّاملة، حتى أن الرسول (صلَّى الله عليه وسلَّم) سمَّاه "مُخَّ العبادة"، وذلك من حيث الشرف والمكانة، ومن حيث تأثّره بسائرِ العباداتِ سلباً أو إيجاباً.

وسنلاحظ هذه المعاني إن تأملنا مليّاً في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[الأعراف: ٥٥-٥٦]

✧ **انْضباطُ الدّعاء:**

إذا كان الدّعاء «مُخَّ العبادة» فمعنى ذلك أن شروط العبادات ينبغي أن تكونَ حاضرة فيه، ومن ذلك احترام السُّنن التي تحكم الحياة لأنّها جزءٌ من مشيئة الله.

ومن ثمّ فإن المسلم الذي يدعو الله أن يمنحه الفَلَاح وهو يعاقرُ عوامل الطلاح إنّما يُمارس نوعاً من العبثِ الذي يمثّل اعتداءً على السننِ ويخالف مشيئة الله.

ولهذا قال تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[الأعراف: ٥٥].

إن الدّعاء ينبغي أن يحتكمَ في الشكلِ والمضمونِ إلى منظومةِ الشَّرع، فلا يجوز طلب ما لم يُجزه الشّرع كقطيعةِ الرّحم أو إهلاكِ الأبرياء أو معاقبة المذنبين بعقابٍ أكبر من ذنوبهم أو تعميم هلاك المحارَبين المسلمين على من ينتمون إلى دولهم من المدنيين.

✧ إلحاح:

يجب الإلحاح في الدُّعاء حتى لو لم تحدث الاستجابة، ألا ترى أنك مأمورٌ بأن تدعو في كلّ ركعةٍ قائلاً: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ ما قُمتَ تصلي لربك؟!

❋ ❋ ❋

مقاليد الدُّعاء

✧ **براعةُ التَّضرع:**

إن جهلَ الإنسان بنفسهِ وظلمهِ لها يجعلانه يتكبَّر ويتجبَّر، ولأنَّ الله يحبُّ أن يرى عبده ضعيفاً أمامه، متذلِّلاً بين يديه، فإنّه قد يُرسل بأسَهُ على العصاةِ ليس عقاباً لهم بل لبعثِ طاقةِ التضرّع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

[الأنعام: ٤٢-٤٣].

ومضت هذه السُّنة حتى على نبيّ الله يونس عليه السَّلام، فعندما ذهب غاضباً من قومهِ طلعت عليه قُرعة ركاب السّفينة فرموهُ في البحر، وابتلعه حوتٌ عظيمٌ ليستقرَّ في بطنه، وكان يمكن أن يستمرَّ فيه إلى يوم البَعث، لولا براعة التضرّع الذي صدرَ منه، فقد جمع فيه بين تنزيهِ الله وإفراده بالوَاحدانية وبين اعترافهِ بظلمه لنفسه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وأكَّد المولى عزَّ وجلّ أن براعةَ التضرّع هي التي أنجتهُ من بطنِ الحوت، فقال: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

✧ **مفاتيح الاستجابة:**

إن صدقَ التّوجه إلى اللهِ وإخلاص القلب له، وتحرّي المصلحةِ العامَّة للنّاس يفتحُ أمامك مغاليق السَّماء، حيث تتحقَّق آمالك حتى لو لم تنطقها باللِّسان.

فإن نبينا محمداً (صلَّى الله عليه وسلَّم) عندما أرادَ أن تتحوّل القبلة من القدس إلى مكَّة، ظلَّ قلبه يدعو الله مع دقَّاته، وظلَّ وجهه يترقَّب التحقّق في كلّ لفتاته، فإذا بالوحيّ ينزل ليقول له: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٤].

✧ **ثباتُ القلوبِ والأقدام:**

إن الثَّبات في مُعترك الهداية أخطر من الثَّبات في معركةِ المواجهةِ مع العدوّ، لأنّ العدوّ في معركةِ الهداية يكون في الدَّاخل بينما يقف العدوّ الحربيّ في الخارج، ولهذا دعا المؤمنون ربهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]، وقالوا في الثانية: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

ففي معركة الهداية طلبوا تثبيت القلوب وفي معركةِ القتال طلبوا تثبيت الأقدام.

✧ **مخزن الأدعية:**

من أجمع الأدعية القرآنيَّة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾[البقرة:٢٠١]، ولكن هناك دعوة دعاها خليل الله إن استجابها الله لكَ فقد استجابَ لكلِّ دعواتك، قال تعالى على لسانِ إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾[إبراهيم: ٤٠]، فإن صرتَ مقبول الدُّعاء دوماً؛ حصلت على سائرِ ما تريد في دارَيّ المَعاش والمعاد، ولذلك يمكن اعتبار هذه الدَّعوة مخزنُ سائرِ الأدعية.

وقد أوضح (صلَّى الله عليه وسلَّم) أن مدماك استجابة الدُّعاء هو الأكلُ الحلال، كما في نصيحته لخالهِ سعد بن أبي وقاص: "أطِبْ مطعمَكَ تكنْ مستجاب الدّعوة" وعندما فعل سعد ما أُمر به حصل على ما طلبه.

❋❋❋

✧ **تكامل لا تآكل:**

لكي تتكامل أدوار النّاس لا بدَّ من التَّفاضل بينهم، ولا يجوز تمنّي ما فضَّل الله بعض الناس على غيرهم، ولكن يستحبّ الاتجاه إلى الله بطلب التفضُّل منه فهو صاحبُ النوال والأفضال، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ ...وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ﴾ [النّساء: ٣٢].

ومع أن الكلّ هو من فضلِ الله، غير أن ما أعطاه الله لبعضِ خلقه صار ملكاً لهم ومحرماً على غيرهم.

واستناداً إلى هذه الآية أيضاً يمكن القول بجوازِ طلب الفضل لا التفضيل؛ لأن طلب الفضل من الله يحقّق التّكامل بين الناس، أما طلبُ التفضيل على الغيرِ فإنه يؤدّي إلى وقوعِ التآكل.

❋ ❋ ❋

مَباهِجُ الصَّلاة

✧ **تدميرُ الفَواحش:**

الإسلام بشقَّيه النظريّ (القرآن) والعمليّ (العبادات) إنما جاء لصالحِ الإنسان جلباً للمنافع ودفعاً للمضار.

وحجرُ الزاوية في التَّفاعل مع القرآن هو التِّلاوة الجامعة بين التدبّر والخشوع والتي تقوده إلى السيرِ خلف القرآن واتخاذه إماماً.

وعمود العبادات هو الصَّلاة التي إن (أقيمت) وفق المنهج النبويّ فإنّها كفيلةٌ بتدمير الفواحش والمُنكرات الناتجة عن أوامر النّفس الترابيَّة، ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

✧ **الوقاية من السقوط:**

قال تعالى عن يوسف وامرأة العزيز: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤]

لقد كانت الظُّروف مثاليَّة لوقوعِ الفاحشةِ بالمقاييس البشرية، فقد كان يوسف شاباً يمتلئ قوةً وحيوية ويتمتَّع بصحّةٍ وتغذيةٍ ممتازة لأنّه تربَّى في بيتِ العزيز، وكانت المرأة شديدة الجمال ومفتونة بجمالِ يوسف، وقامت بتوفيرِ الظُّروف المطلوبة، إذ غلّقت الأبوابَ وقالت له بلغةِ الصَّراحة والإغراء: "هَيْتَ لك"!

لكن يوسف قال: "معاذَ الله"، بعد أن رأى برهان ربّه، وقد قال المفسرون في هذا البرهان كلاماً كثيراً واتكأ بعضهم على إسرائيليات ما أنزل الله بها من سُلطان، فغادروا عالم الأسباب وجعلوا المعجزة هي التي أنقذتهُ من الوقوعِ في حبائلِ الغواية، ظانّين أنَّهم بذلك يعظّمون يوسف.

وما المعجزة في نظري إلَّا الصَّلاة وسائر الشعائر التي أقامها بوعي فأكسبته الإيمان بالله، ولذلك حضرَ الله معه في هذا الموقف فعَصمه، إذ ما تذكر أحدٌ الله في هذا المقام إلَّا خنست شَهوته، ولذلك قال (ﷺ): "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن..."، وبالجملة فقد استعصمَ يوسف بإيمانهِ بالله فعَصمه.

لقد تَغلّب برهانُ الإيمان على هَمِّ الشّهوة، وانتصرت شعيرة الصَّلاة على داعي الغَريزة، ذلك أن من مقاصدِ الصَّلاة الحية منع الإنسان من السقوطِ في أوحالِ الحرام.

✧ **زاد الرّقابة:**

إن المتمعّن في وظيفةِ الصَّلاة يجد أنَّها أهمّ الأزواد التي تنتصر للنفخة الروحيَّة في الإنسان، وترتقي به نحو الحالة الملائِكيَّة بحيث لا يعصي المؤمنون الله ويفعلون ما يؤمرون.

ولشدَّةِ كثافة التّراب وعَتْمة الطِّين فقد جعل الله الصَّلاة زاداً يومياً ذا محطات خمس، ولهذا ورد قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[البقرة: ٢٣٨] وسط مقطع سرد فيه المولى عزّ وجلّ عدداً من المعاملاتِ التي ينبغي أن تتحلَّى بها الأُسرة المسلمة والمجتمع المسلم بشكلٍ عام، ممّا يؤكّد أن الصَّلاة زاد للسُّلطة الرّقابيَّة في الكائنِ الإنسانيّ وهي الرُّوح، حتى يظلّ ملتزماً بالأوامرِ ومجتنباً للنَّواهي، متحلّياً بالفضائلِ ومتخلّياً عن الرذائل.

✧ حُكومة الصَّلاة:

إن الصَّلاة هي حكومةُ الله التي إن أقيمت في ذات الإنسان على مستويي الجوارح والجَوانح، فإنّها ستضمن التزام حدود الله وتمنع انتهاكَ حُرماته، ولهذا كانت الصَّلاة عمودُ الإسلام، ومقياس الإيمان والكُفر، وأوّل فريضةٍ في سائر الديانات السماويَّة بما فيها الحنيفيَّة الإبراهيميَّة واليهوديَّة الموسويَّة، كما ورد في سورة (الأعلى) التي ربطت الفَلَاح بالتّزكّي والتذكّر والصَّلاة، ثم ختمت بالتأكيد على ورود هذه الأمور في الدِّيانات السَّابقة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

أمَّا الديانات التي لم تكن فيها شرائعُ تنظّم حياة النَّاس كالمسيحية، فقد اتكأت على الإيمان والصَّلاة في تهذيبِ غرائزِ الإنسان وتنظيمِ سلوكيَّاته.

❋ ❋ ❋

يَوَاقِيتٌ التقوى

✧ **ضياء التّفْتيق:**

الإنسان في الأصلِ كائنٌ ماديٌّ معتم، لأنّه مخلوقٌ من حمأٍ مسنون، وما لم تَنْبثّ فيه أنوار النفخة الرحمانيّة، وما لم تَسْرِ في أرجائه أشعَّة الضِّياء الإلهيَّة المودعة في محطات الصَّلاة والزَّكاة والذِّكر والفِكر وفي سائرِ محطَّات التعبّد، فإن هذا الإنسان سيظلُّ كائناً صَلْصالياً، فلا تسمع أذناه، ولا تُبصر عيناه، ولا ينطق لسانُه، ولا يَفقه عقلُه وقلبُه.

إن ضياء الرَّحمن يُفتِّق مَلَكات السَّمع والبصر والفؤاد، وبدونهِ سيعيشُ المرءُ أصمَّاً أبكماً أعمى لا يعقل شيئاً ولا يهتدي إلى شيء.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ٣٩].

✧ **جبلُ التَّقوى:**

من اعتصمَ بجبلِ التَّقوى عصمه الله من طوفانِ الكَبائر والخطايا، أمَّا الأخطاء الصَّغيرة فهي من أمرِ الله الذي خلق الإنسان من التُّراب.

ولا عاصمَ منها إلَّا الله الذي منحَ الإنسان وسائلَ الخلاص، كالصَّلوات والصِّيام والاستغفار وسائرِ الحسنات التي تُذهب السّيئات.

✧ **الصَّادقون المتَّقون:**

الصَّادقون في عبادتهم لله هم الذين تنعكس عباداتهم على تعاملهم مع الناس، والمتَّقون هم الذين يدمجون بين حقوق الله وحقوق النَّاس ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ

وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

هؤلاء هم المتَّقون الذين لا يجدهم الله في منافذِ الكبائر ولا يفتقدهم في شُعبِ الإيمان.

✧ **مقاصدُ الشعائر:**

لن يجدَ المسلم أجور الشَّعائر في الآخرةِ عند الله ما لم يجد خيرها في الدُّنيا، حيث تزرع فيه ملَكة التّقوى، وتجعله يراقب الله ويعمر أوقاته بعملِ الصَّالحات ومُقارفة الخيرات.

هذا المعنى هو من أفياء قوله عزّ وجَلّ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[البقرة: ١١٠]، حيث اقتضت مشيئة الله أن يحصدوا ثماره في الدُّنيا قبل الآخرة.

✧ **ضياء البصيرة:**

إذا استضاءَ القلب واستنارَ العقلُ فإن البصيرة لا تخذلُ المؤمن، حيث أن ضياءَها يخترق حوالك اللَّيل، وأنوارها تنفذُ من جدرانِ الموانع، وأشعّتها تتجاوز حُجب الحِصار، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾.

✧ **عِرْقُ التقوى:**

لا يعترف الإسلام بالفروقِ الماديَّة بين الناس لأنّها ليست من كَسبهم، كالعِرْق واللَّون والطَّبقة.

وأشرفُ الناس من كان الإيمان أرومتهم وصارت التّقوى ذؤابتهم، ومن شَرُفَت خلالهم وعظمت أعمالهم، ومن تَنقّوا من آثارِ التُّراب وترقُّوا في سماءِ الرُّوح، ومن ارتقوا ناصية الصَّالحات واعتلوا هامةَ الأمجاد.

هذا كلّه يدخل ضمن معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾.

❋ ❋ ❋

معارج النعيم

✧ **التِّجارة الوافية الأجور:**

تقتضي فلسفة الإسلام العادلة وفضل الله العظيم أن الأجورَ الكبيرة التي ما بعدها جزاء، تكون حصاد أمور ثلاثة:

- أوَّلها: استيفاء العلوم النَّافعة في فهم النُّصوص، وسلامة تنزيلها، وجودة تجسيدها وِفق مقاصد الحقّ ومقتضيات العدل، وحسب مُعطيات الواقع ومُتطلبات الناس.

وهذا يتطلَّب حُسن تدبّر القرآن أو تلاوته القوليَّة والعمليَّة.

- ثانيها: إقامة حقوق الله ولا سيما الصَّلاة، بحيث تزرع الدَّافعيَّة لاجتراح الصَّالحات والمعروفات واجتنابِ الفواحش والمُنكرات في سائرِ ميادينِ الحياة.
- ثالثها: إقامة حقوق الناس بمختلفِ أصنافها، ولا سيما الماليَّة فهي تمثّل عمود الحياة، إذ تستغرق: الزكوات، والصَّدقات، والهِبات، والعَطايا، والهدايا، والوصايا، والأوقاف، ويصلُ ريعُها إلى المحتاجين والضُّعفاء، وإلى المصالح العامَّة، وإلى طلاب العلم وناشريه، وإلى المُصلحين والدُّعاة والوعاظ، وإلى الفرائض الكفائية والثّغور العامّة التي تحتاج إلى أموالٍ كثيرةٍ لتحصينها، وإعداد الحراس لها، ودعم المرابطين فيها.

وهذه المداخل الثلاثة التي تستغرق سائرَ شُعبِ الإيمان ومجالات العمل والعبادة، ذكرها الله مع أجورها العظيمة في آيتين من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

✧ **معراج طاعة الله:**

الرسول ﷺ هو المعراجُ الموصل إلى الله تعالى، ومن ثمّ صارت طاعته من طاعةِ الله، لأنَّها قنطرةُ العبور إلى تحقيق تلك الطَّاعة. ولهذا قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠].

ولما كانت طاعة الله هي الغاية، وطاعة الرسول إنّما هي وسيلة، وبما أن القرآن الكريم قطعيّ الثُّبوت والسنَّة النبويَّة ظنيَّة الثُّبوت، مع تعهّد الله بحفظِ القرآن وتعبّده للمسلمين في حفظِ السُّنَّة التي تسلَّلت إليها بسبب ذلك أصابع التّحريف، رغم جهود العلماء في الغربلةِ والتَّصحيح، فإن كلّ نصٍ يتعارضُ مع القرآن الكريم يعتبرُ لاغياً.

بهذه الطَّريقة يمكن إنهاء الصِّراع بين من يُسمّون بالقرآنيين وبين من يجعلون السُّنَّة نداً للقرآن الكريم.

✧ **التحركان الأفقيّ والرأسيّ:**

لكي يسعد الإنسان في دنياه ويفوز في أخراه، لا بدَّ له من تحرّكين يجمعان بين التزامنِ والتَّوازن:

الأول: تحركٌ أفقيٌّ يتقدَّم من خلالهِ نحو آفاقِ الأرض وصِناعة الحَياة.

الآخر: تحرّكٌ رأسيٌّ يصعد من خلالهِ نحو ذرى السَّعادة السَّرمدية.

وقد جمع الله التحرّكين في آياتٍ عديدة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾ والأمر: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ المقصود به زاد الحركةِ الأفقيَّة لعمارةِ الدنيا، أمَّا جملة ﴿فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾ إشارة إلى زادِ الحركةِ الرأسيّة.

✧ **الصالحون لوراثة الأرض:**

إن الصَّالحين الذين وعدهم الله بوراثةِ الأرض هم الأقدر على عمارتها بالخيراتِ وملئِها بالمسرَّات، وعلى دفعِ المضرّات عنه وتجنيبها ويلات الظُّلم ومآتم الحروب، ومن ثمّ فإن كسبهم لا يتسبَّب بظهورِ الفساد في البرِّ والبحر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ولأن هذا الاستعمار هو جوهرُ العبوديّة الكاملة لله في محرابِ الحياة، فقد أكَّد هذا الأمر المولى عزّ وجلّ على شكلٍ بلاغ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٦]

فالصَّالحون لوراثةِ الأرض هم الأصلح لعمارتها ولو كانوا غير مسلمين، وهذا ما تؤكده الوقائع على الأرضِ منذ بضعة قرون.

✧ **جزاء الضِّعْف:**

جزاء الضِّعف بالتَّعبيرِ القرآنيّ هو المُضاعف، ويُعد عنواناً من عناوين حقوق الإنسان، إذ يَكسب الإنسان فيه أجور الاقتراف والتّسبب ويربح ثواب الثِّمار والآثار.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

❋ ❋ ❋

أكَاسِيرُ السّعادة

✧ **سعادةُ العِبادة:**

يريدُ الله لعبادهِ أن يعيشوا في الدُّنيا حياة طيّبة، تملؤها السَّعادة، ويُزيّنها الحُبور، ولا تخلو من الرَّفاهية والسُّرور.

وكتاب الله مليءٌ بأسبابِ السَّعادة وأسرار البهجة، ولهذا كان الإعراض عنه مجلبةً للشَّقاءِ والتَّعاسة، وصانعاً لمعيشةِ الضَّنك والنَّكد، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

ولأنَّ الشَّقاء الحسيّ الناتج عن التشدّدِ شبيهٌ بالضَّنك النفسيّ النَّاتج عن التَّحلّل، فقد أوصى الله بالتَّوسط في أداءِ الطُّقوس العباديّة، ومن ذلك ما افتتحت به سورة طه، قال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾.

✧ **عبادة السَّعادة:**

ولأن السَّعادة القائمة على التزام منهج الوسطيَّة والاعتدال عبادةٌ حضَّ عليها القرآن، فإن الإعراض عن القرآنَ بالتَّشَدُّد أو التّفلُّت، يحرم الإنسان من ثمارهِ ومنها السَّعادة التي تستحيل إلى شقاءٍ وضَنكٍ كما في الآيتين السابقتين.

ولا شكَّ أن الإعراض عن القرآن يجلبُ الأوزار، كما قال تعالى في سورةِ طه نفسها: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا﴾[طه:١٠٠]. ومن تلك الأوزار وِزر الشَّقاء والتَّعاسة.

فإن السَّعي لتحصيلِ السَّعادة عبادة، مثلما أن الشعائر العبادية تجلبُ السَّعادة، وبذلك يجمع المؤمن بين سعادةِ العِبادة وعبادة السَّعادة.

✧ **بهجة الأنوار:**

الأنوار الرحمانيَّة التي تنسكب على قلبِ المؤمن عبر منظومةِ الشَّعائر، وعلى رأسها: الصَّلاة والصِّيام والحجّ والذِّكر وقراءة القرآن هي البيئةُ الخصبة لاستزراعِ شُعَب الإيمان في القلوب، مما ينقل المسلم إلى درجةِ الإيمان. قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ كأن الأنوار أسبابٌ وثمارٌ في ذاتِ الوقت، حيث أن كلّ هدايةٍ تجلبُ هداية أخرى، بفضلِ كرم الله السَّابغ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾.

✧ **السياحة الترويحيّة:**

السِّياحة الترويحيَّة في الإسلام مطلوبةٌ بضوابطها الشرعيَّة، لأنّها حقٌّ من حقوقِ النَّفس، أمَّا إذا أضيف إليها التفكّر في آلاءِ الله، والنَّظر في حالاتِ الخلقِ والاعتبار بقصصهم ومآلاتهم، فإنها حينئذٍ تصبح عبادة مزدوجة.

ويبدو أن قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[الأنعام:١١] يُؤصِّل لهذا المعنى، فإن استخدام أداة العطف (ثم) يفيد التَّراخي، مما يشيرُ إلى أن السير للسِّياحة مطلوب بذاته، ولكن لا بدَّ أن يستثمرَ المؤمن السِّياحة لتحقيقِ التَّفكر والاعتبار، بجانبِ التَّرويح والابتهاج.

وحينما أراد الله الحثّ على الاعتبارِ قال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[النمل: ٦٩]، هكذا مباشرة، باستخدامِ الفاء دون ثم.

✧ **باب السَّعادة:**

إن الذُّنوب تقصمُ الظُّهور، ظهور الاستقامةِ الفكريَّة والفعليَّة على هذا الدِّين، ولقد وصف الله صنفاً من الذين كذبوا بلقائه فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً

﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام:٣١].

وتأتي عظمة الهداية في أنَّها تضع سائر الأوزار، ولهذا امْتَنّ الله على نبيه محمد (صلَّى الله عليه وسلَّم) بجملةٍ من الأمور، ومنها: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

وتُحقّق التَّوبة ذات المقصد، فإن تكامل شروطها يؤدّي إلى إسقاطِ أثقال الذُّنوب عن كواهلِ الإنسان، ليعيش مرتاحَ الضَّمير مطمئنّ البال، ويظلّ سامق الاستقامة شامخ الالتزام، متطلّعاً إلى الفردوس الأعلى الذي أخرجه منه الذّنب وسيعود إليهِ بالإنابة، كأنَّ التَّوبة بابٌ يدلفُ من خلالهِ المؤمن إلى جناتِ السَّعادة، متنعّماً ببساتين الهناء وحدائق البهجة.

✧ **انشراح الدَّاعية:**

إن انشراح الصَّدر وابتهاج القلب من مقوماتِ نجاح الدَّاعية، وقد يكون أهمّ من الفصاحة، ولهذا عندما كلَّف الله كليمه موسى بتبليغ الدَّعوة دعا ربّه فقال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٥- ٢٨] ونلاحظ ترتيب الدَّعوات، فالأهمّ قبل المُهم، وقد بدأ بطلب انشراح الصَّدر، لأنه يُخلّص صاحبه من الضّيق وسوء الخُلق، ويُمكِّنُه من تغليب اليُسر على العُسر، والتَّبشير على التَّنفير، ويجعله متفائلاً بتحقيق الأهداف، منفتحاً على الجميع، ويرى الأشياء والأوضاع كما هي بدون تهويل أو تهوين، وبذلك يتخلَّص الدَّاعية من عقَدهِ النفسيَّة لتصبح دعوته عسلاً مصفَّى يشفي القلوب، وماءً نميراً يروي العقول.

❋ ❋ ❋

سَبَائكُ الشُّكْر

✧ **الشكر العِلْميّ:**

قال عزّ من قائل: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فالإنسان يَخرج إلى هذه الدُّنيا لا يعلم شيئاً عن أيّ شيء، لكن الله جهّزه بأدواتِ الفَهم وآلاتِ المعرفة، وهي السمعُ والبصرُ والعقل، فلمّا ختمَ الآية بفاصلة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ كأنّه يقول بأن الشّكر الحقيقي لهذهِ الأدوات هو استثمارها في طلبِ العلم، وتفعيلها في السيرِ الآفاقي، بعيداً عن الخرافاتِ والأساطير، وبمعزل عن الظُّنون والأوهام، كما قال في آية أخرى﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾.

✧ **الشُّكر العمليّ:**

أوضحت الآية الأولى أن الله خلق السَّمع والأبصار والأفئدة للشكر، والشُّكر هنا هو تفعيلها بعبادةِ الله في محرابِ الحياة، وذلك بعمارةِ الأرض وفق المنهج الربانيّ للاستخلاف.

وممَّا يؤكّد أن الشُّكر هنا هو تفعيلُ هذه الجوارح في الاستخلاف، أن الله لفت الأنظار في الآية التالية إلى الطَّير، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩] حيث تستثمر تسخير الله في الحركةِ وطلبِ الرِّزق، إذ تغدو خِماصاً وتعود بِطاناً.

✧ سُلَّم الشكر:

الإسلام كما هو اسمٌ للدِّين الخاتم، فإنه مُسمّى لأولِ درجةٍ من درجاتِ التَّقوى، أي أنَّه مجموعة من أعمالِ الجوارح التي إن أُقيمت كما ينبغي فإنَّها تُثمر الإيمان، ولذلك جاءَ في القرآن: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾.

والإيمان يُثمر الهداية، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾.

والهداية تُثمر التَّقوى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾.

والتَّقوى بدائرتها العريضة تعني ألَّا يجدكَ الله حيث نهاكَ ولا يفقدكَ حيث أمَرك، وبذلك فإنّها تَشمل أركان الإسلام ولَبناته، وأركان الإيمان وشُعَبه، وأركان الهداية وجزئياتها، وبمفهومها الدَّقيق فإنَّها تقترب من مفهومِ الإحسان الذي يعني الإجادة والإتقان.

ولذلك فإن التَّقوى تُثمر الشُّكر، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، ذلك أن المؤمن حينئذٍ يكون قد تبوّأ مقام الشُّكر الكامل للهِ على خلقهِ إيَّاه وتسخير ما خلق من أجله، وعلى تَرقِّيه في مقامات: الإسلام، والإيمان، والهداية، والتَّقوى، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

✧ كتمان فضل الله:

من جرائم عُبّاد الأسباب أنّهم بنسبتهم الفاعلية للأسباب تتضخّمُ ذواتهم وتنتفخُ نفوسهم، إذ ينسبون النِّعم إلى ذكائِهم وشطارتهم كقارون الذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾.

ومن ثم فإنّهم يُنكرون نعم الله ويجحدون آلاءَه، ويَكْفُرون عطاياه ويكتمون أفضاله، كما وردَ في الآيتين ٣٦، ٣٧ من سورة النّساء.

ولهذا أمرَ الله نبيه محمداً (صلَّى الله عليه وسلَّم) بأن يُحدث الناس بنعم الله عليه فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، جاء ذلك في ختام سورةِ الضُّحى التي عدّدت عناوين نعم الله عليه، وهي: الإيواء من يُتم، والهداية من ضلال، والإغناء من عالة.

✧ **الشُّكر سبيلُ الاستزادة:**

الشُّكر طاقةٌ ضخمةٌ تَتولّد في الجوانح، من خلال الإيمان بفضلِ المُنعم والشُّعور بمِنَنه، وتنبعث إلى الجوارح فتدفع اللّسان إلى اللَّهج بالثَّناء واليد للامتلاء بالعطاء والرِّجْل للسعيّ في قضاءِ الحوائج.

ولهذا فإن الشُّكر يستنزل المزيد من العطاء الإلهيّ، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، ولم يُعط الله لأيّ عبادة هذه المَزِيّة التي أعطاها للشُّكر.

❋ ❋ ❋

مُرُوجٌ الجنس!

✧ **مُتعة النَّسل:**

في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] تبيين لطبيعةِ هذا الدِّين وتعاليمه الجامعة بين الوظيفيّة والمُتعة، فالجنس من الغرائزِ الطَّبيعية في الإنسان، وهو ليس مُسْتقْبحاً ولا مانعاً من انعتاقِ الرُّوح وإشراقها كما في المسيحيّة والبوذيّة والهندوسيّة، لكنه عمليةٌ منظمةٌ لا تسمح بالفوضى كما في أديانٍ أخرى، فـ﴿نِسَآؤُكُمْ﴾ فقط هنَّ مصدرُ الإشباع الجنسيّ، وفي المكان المخصَّص للتَّناسل حتى يستمرَ البشر في وراثةِ الأرض.

والجنس ليس وظيفة نسليَّة بحتة، ولذلك من حقِّ الزَّوجين أن يستمتعا ببعضهما:﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، وبهذا يفتح القرآن الباب لكافة الأوضاع والطُّرق في الممارسةِ الجنسيَّة بين الزَّوجين بحيث يصلا إلى كمالِ المتعة وذُروة اللذَّة.

✧ **الجِنْس المأْجور:**

وردت في الآية السابقة جملة: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ بعد الأمر بإتيانِ النِّساء حسب المشيئة، وهذه الجملة تحتمل أحد معنيين:

الأول: قدِّموا لأنفسكم بين يدي الممارسة الجنسيّة ما يجعلها أشدّ إمتاعاً وأحلى لذَّةً، وذلك من خلال الكلمة التي تذيبُ المشاعر، واللَّمس الذي يُلهب الأحاسيس، والقُبْلة التي تُوقظ الرَّغبة، ويؤيّد هذا المعنى فعله (ﷺ)، فقد كان يُلاطف زوجاته ويُداعبُهُنَّ ويُقبِّلهن.

الآخر: تقديم فعل الجنس مع مقدِّماته كعبادةٍ مثل سائرِ العبادات التي تتظافر لتُحَقِّق لأصحابها السَّعادة الدنيَويّة والْفَوز الأُخروي، ومن ثمَّ فإنَّ الإكثار من الجنسِ دون الإسرافِ المضرّ يزيد من الأجورِ ويرفع رصيد الحَسنات.

ويؤيّد هذا المعنى قوله (ﷺ): «وفي بُضْع أحَدِكم صدقة» قالوا: أيأتي أحدنا شهوته...» الحديث.

وفي كلا المعنيين فإن القرآن يجعل الجنسَ عبادةٌ يجب الالتزام بضوابطها حتى تتحقَّق السَّعادة ويتوفّر الأجر، مع التحذيرِ من العكس، ولذلك اختتمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]

✧ **تجسيدُ العِشق:**

الآدمي خليطٌ من بشريةِ التُّراب وإنسانيةِ الرُّوح، ولأنّ الإسلام يريدُ من المسلم أن يكون إنساناً دون أن يُنكر بشريّته، فإنه يعترف بغريزته الجنسيَّة ويُشبعها بطريقةٍ مهذَّبةٍ ترتقي فوق غرائز الكائنات التُّرابيَّة المَحْضة، ولذلك كانت إحدى مقاصد رمضان الارتّقاء بالشَّهوةِ الجنسيَّة، فهي ممنوعةٌ في النَّهار هي وسائرُ مقدّماتها، لكن اللَّيل عندما تأتي سُدَفُهُ فإنه يُطلق كلّ الوسائل والأساليب التي تُذكّي الشَّهوة ويجعلها مُباحَةً مُتاحةً: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فكيف بغيرها من الليالي؟!

وهو تصويرٌ بديعٌ للعشقِ الذي يجمعُ الزَّوجين في روضةِ اللَّهفة، ويَصُبُّ الأشواق في بوتقةِ الحُبّ، بحيث يَتَّحِدَا في ذاتٍ واحدة، ويُصبح كلَّ واحدٍ منهما غايةً ووسيلة، فهو لبـــاسٌ لها وهي لباسٌ لَهُ، لباسٌ من العراء الأخلاقيّ، وزادٌ من الجوعِ الجنسيّ، ودرعٌ من سِهام إبليس، ومانعٌ من اتباعِ خطوات الشيطان.

✧ **نِصفُ الدِّين:**

جعل الإسلام الزَّواج نصف الدِّين، لأنّه يحقّق السَّكينة والمودَّة والرَّحمة بين الزَّوجين، ويعيدُ اللُّحمة لشطري النَّفس الواحدة مع تحقيقِ التَّكامل في الأدوارِ والوظائف.

ولو نظرنا للوظيفة الجِنْسيَّة لوجدناها متَّصلة بمقاصدِ الدِّين، سواء بشكلٍ مباشرٍ بالنِّسبة لمقصدِ النَّسل والعرض، أو غير مباشر بالنّسبة لبقيةِ المقاصد.

فالإشْباع الْجِنْسيّ يَجعل المرءَ مُنضَبطاً بكثيرٍ من تعاليم (الدِّين)، وأثبت العلم أن المُتزوِّج أكْثر نُضجاً وعطاءً في مجالِ (العقل)، وأصحّ نفساً وأطول عمراً من العازب، بالنّسبة لمقصدِ حفظ (النَّفس)، وما دامَ أكثر سعادةً وطمأنينة، وأقوى في جِسمه، وأنضج في تفكيره، فلا بدّ أنّه سيكون أوفر (مالاً) وأكثر عطاءً، ثم إنّه يصير أقوى إحساساً بالمسؤولية مع وجودِ التَّكامل في وظائف الحياة بين الزَّوجين، وهذا كلُّه ينعكس إيجاباً على مقصدِ المال.

✧ **رؤية جنسية متكاملة:**

ذاتَ تَدبّر وتفكّر في سورةِ البقرة أدركت أنّها تحتوي على معالم رؤيةٍ متكاملةٍ للجنسِ في القرآن الكريم، ولذا فإنّي أوصي طلَّاب الدِّراسات العليا في تخصُّص علوم القرآن بدراستها، حتى يقدِّموا للمكتبةِ القرآنيَّة دراسةً علميّةً جديدة، ويساهموا في تحريرِ الأمَّة من ربقة التَّقاليد الاجتماعيَّة الرَّاكدة التي قَوْلبت الجنس وأحاطته بكثيرٍ من الممنوعات، ومن التَّعاليم الغربيَّة الوافدة التي ميّعت الجنس وأشاعت الفساد.

❋❋❋

آمَـالُ الظَّـفَرِ

✧ **ضُرُّ الرحمن:**

إن الضرّ الذي تكتبه أقدار الله تعالى على المؤمن قد يَتخفّى فيه نفعٌ كبير، ولذلك وردَ على لسانِ مؤمن آل ياسين قوله تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]، فهذا المعنى مغروسٌ في عقلهِ ووجدانهِ ولم يَضعف لديه حتى وهو في قمّةِ الجَدل مع من يحملون له الموت الزّؤام، حيث اختار اسم الرحمن دون بقيَّة الأسماء مع أنَّ حديثه عن الضّر وليس عن النفع.

✧ **الزّلْزَلَةُ تَستدعي الدَّمْدَمَة:**

وصَف اللهُ طبيعة المعركة بين الأقليَّة المؤمنة والأكثرية الظَّالمة، فقال: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

إن طريق النَّصر طويلٌ ويحتاج إلى تضحياتٍ كبيرة، ومع استمرارِ السيرِ يرتقي الشهداء ويسقط الجرحى، بينما يزدادُ الأعداء جنوناً وإجراماً.

وفي اللَّحظات التي يُظهر المجرمون فيها أقوى ما يَملكون، تَتزلزل نفوسُ المسلمين حتى يَضجُّوا بالدُّعاء المفجوع: متى نصر الله؟!

عندها يكونون على رميةِ حَجَرٍ من النَّصر المُؤزَّر، حيث يأتي اللهُ أعداءَهم من حيث لا يحتسبون، فيُدَمْدم عليهم بقذائفِ الرُّعب التي تُضعف معنويَّاتهم وتجعل صفوفهم تتهاوى وتحصيناتهم تسقط، مما يُؤْذِن بمجيء النَّصر المَنشود.

✧ **نعمة النِّسيان:**

النِّسيان نعمةٌ عظيمة لا يدرك قيمتها كثيرون، إذ مهما كانت الأوجاع مؤلمة والمظالم شديدة فإن النِّسيان يساعدك على تجاوزها وممارسة الحياة الطبيعية.

ولكن مهما نسيتَ ظلم المجرمين وعربدة الطُّغاة، فإن الله لا ينسى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، فاحمد ربَّك أنك تنسى وهو لا يَنسى، فإنَّك بهذه المعادلة لا تتوجع تحت سياطِ التذكّر ولهيبِ الحِقد، وفي ذات الوقت لا ينجو المجرم من العقابِ المستحَقّ لما جنت يداه.

إن الله يُمْهل ولا يُهْمل، وكما جاء في الحديثِ الشريف فـــ"إن الله ليُملي للظَّالم حتى إذا أخذه لم يُفْلتْه".

✧ **التَّدخل الغيبي:**

في غزوةِ بني النّظير كانت موازيين القوَّة مختلة بقوة لصالح اليهود، إذ كانوا في حصونٍ منيعةٍ حتى ظنّوا أنها مانعتُهم من الله، حيث توجد داخل الحصون واحة زاخرة بالمياهِ والسلع الزراعيَّة، لدرجةِ أن الله قال عن الصَّحابة: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾، فكيف بظنّ اليهود؟!

لكن استكمال الطَّائفة المؤمنة لأسباب القوَّة واستيفائها لعناصر الإيمان، اسْتَنْزلَ مَدَدَ الله واسْتمطر غَوثه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾، إذ قذفَ في قلوبهم صواعق الرّعب، مما جعلَ عناصر قوّتهم ضعفاً، حيث انهارت قُواهم وخارت عزائمُهم، ووقعَ عليهم السقفُ من فوقهم، وحاقت بهم الهزيمةُ المنكرةُ ولَحِقهم الخزيُ العظيمُ.

✧ **حضور الله:**

لا ينبغي أن تسمحوا لإيمانكم أن يضعفَ لدرجةِ أنْ تَظنّوا بأن الله غافلٌ عمّا يَعمل الظالمون، أو أنه خلقَ النَّاس عبثاً بدون موازين العدل وقوانين الجزاء، أو أنَّه جعلَ المسلمين كالمجرمين، أو أنّه وضعَ النَّاس في غابةٍ والفائزُ من شحذَ مخالبه وحدَّ أنيابه!

إن كلّ ما يدور من مظالم وجرائم، يعلمها الله فهو: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، و﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، ثم إنّه سـ ﴿يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، لكنَّها الزّلزلة والتَّمحيص للمسلمين والإمهال والاستدراج للمجرمين.

فتَخلّصوا من الذُّنوب حتّى ينجحَ التَّمحيص، وأوَّلها ذنوب التَّقصيرِ في الأخذِ بالأسبابِ والتَّسلح بالذَّرائع، وكونوا عقاب الله الذي يحيقُ بالظَّالمين.

✧ **تأهيل الإيذاء:**

إن إيذاء أهل الباطل لأصحابِ الحقّ صورةٌ من صورِ التأهيل، إن اتّخذوا من نيرانهِ أقْباساً لرؤيةِ عدوّهم كما هو، وجعلوا منه زاداً لتنميةِ ذواتهم بتعظيمِ نقاط القوَّة ومعالجةِ نقاط الضَّعف.

لقد كان إيذاء الفراعنة لبني إسرائيل عاملاً مهماً في تأهيلهم للتّمكين، ولذلك عندما أخبر اليهود نبيّهم موسى بأنَّهم تَعرّضوا للإيذاءِ قبل بعثتهِ إليهم وبعدها، قال لهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

❋ ❋ ❋

قناديل اليقين

✧ **يَقينُ الأنبياء:**

انبعث الأنبياء جميعهم كما تحكي قصص القرآن الكريم في مجتمعاتٍ انْفكَّت عن هداياتِ السَّماء، وتحلّلت من روابط الإيمان، فلَجَّت في غيّها وتمادَت في كُفرها، وانقلبت على الفِطرة السويَّة، وسارت عكس التيَّار الكونيّ العابد لله.

فصَدَع الأنبياء بكلمةِ التّوحيد ودعوا إلى الحقّ بكلِّ قوة، لم يعرفوا التردُّد ولم يعرف الخوف طريقه إليهم، لأنّهم تسلَّحوا باليقين من كون الله معهم، واستضاؤوا بقناديل الآمال التي تكشف لهم عرصات المستقبل، فأدركوا أن العاقبةَ لهم وأن التمكين مثواهم.

✧ **رجاء الظّفر:**

ظلَّ الأنبياء وأتباعهم دوماً أقليَّاتٍ ضعيفة، غير أن الإيمان بالله كثّرهم وقوَّاهم، وصبَّرهم رجاؤهم على لأْوَاءِ الطَّريق ومنحهم زاد المسير، قد كان لسان حالِ المؤمن وهو يُقْدمُ على مجالدةِ الأعداء قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾.

ولم يتنكَّر الرّكْبُ الرسالي للسُّنن والنَّواميس، ولم يطلب الأنبياء من الله الخوارقَ والمعجزات، بل كانوا بشراً يأخذون بالأسباب فيربحون ويخسرون، ويتعرَّضون للمحنِ وتخنقهم الغُصَص، وظلُّوا يتقلَّبون في الابتلاءاتِ ويجاهدون الشَّدائد، لكن عيونهم شاخصةٌ نحو عواقب التّمكين للمتَّقين، مع مراجعتهم الدَّائمة لسلوكياتهم، حتى يتأكَّدوا من انضباطها بشروطِ التّقوى ومن ارتقائِها في آفاقِ المتَّقين.

لقد أدركوا أن سنَّةَ الله ماضية في المداولة بين الشدَّة والرَّخاء، وبين العُسر واليُسر: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، وأيقنوا أن العُسر لا يغلب يُسرين، مالئين أيْديَهم من وعدِ الله القطعيّ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

✧ **الإيمان بمالك الأسباب:**

كان الرَّكبُ النبويّ شديد الأخذِ بالأسباب، لكنّه لا يَلتفت إلَّا إلى مالكِ الأسباب، فهو الذي منحها آثار الإحراق والإغراق وفاعلية الإحياء والإماتة، وهو من مَنحها خصائِصها وأوقفها عندما أرادَ لتنقلبَ وظائفها ١٨٠ درجة.

فعندما أجّج النَّمرودُ النِّيران للخليل إبراهيم، كان الجميع شديد القلق ممَّا سيحصل عندما يُرمى هذا المخلوقُ الضعيفُ في ذلك الجحيم المُتلظّي، إلَّا هو فقد كان شديد الطمأنينة بأنّ الله لن يختار له إلَّا ما هو أفضل، فإن أمْضَى الله فيه النَّار فقد اختار له الشَّهادة والاصطفاء، وإن ألغى فاعليَّة النَّار فهي الكرامة والمضي في سبيلِ البلاغِ والهِداية.

ولما كانت وظيفته لم تنتهِ بعد فقد قال الله تعالى للنار: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، فكانت بلسماً وسلاماً، وانتقلت تلك النَّار إلى دواخلِ المشركين فأكلت قلوبهم من وَقْع الهزيمة، والتهمت أكبادهم من شدَّة الغيظ.

✧ **مياهُ الموت:**

مثلما أحال الله نقمةَ النَّار على إبراهيم إلى بردٍ وسلام، أحال نِعمة الأنهار والأمطار إلى نقمةٍ أغرقت قومَ نوح الذين كانوا يَسخرون منه، بينما كان يصنعُ السَّفينة في البَرّ نتيجة ثِقته المُطلقة بوعدِ الله له، فكان الطُّوفان الأكبر الذي أغرقَ جميع المكذِّبين، ولم يَنْجُ مع نوحٍ إلّا من آمنَ بوعيدِ الله واعتلى سفينة اليقين، وقد غرق ابنهُ مع الكافرين رغم احتمال كونه مسلماً، لكن خُلوّه من اليقين جعله عملاً غير صالح ودفع به نحْو جَبَلٍ يعصمه من الماء.

✧ **درسٌ مُوسَوِيّ:**

ما تزال أمّتنا لم تستكمل عُدّة النَّصر بعد، إذ أن بعضَ تيَّاراتها يثقُ بمددِ الله دون استكمال الأخذِ بالأسباب، ومال آخرون باتجاهِ استكمال أسباب القوَّة لكن إيمانهم ظلَّ دون مرتبةِ اليقين.

وقدّم لنا كليمُ الله موسى درساً في استكمالِ الأسباب، بما فيها التخفّي وشدَّة الحَذر، لكن فرعون انتبه لهروب بني إسرائيل فلحقَ بهم.

وعندما صارَ قابَ قوسين أو أدنى من إدراكِ بني إسرائيل وإفنائهم، برزَ اليقين الموسويّ بمعيّةِ الله، حيث قال بكلِّ طمأنينة: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، وعلى الفور انْشقَّ البحرُ ودخله موسى، حتى إذا وصل إلى الشاطئ الآخر وصل فرعون وجيشه إلى وسط اليَمّ فوقع عليهم الطَّوْدان العظيمان وابتلعهم البحرُ في لُججه ودواماته.

ونلاحظ هنا أن موسى عبَّر عن معيةِ الله له: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ولم يتحدَّث بلسانِ قومه، لأنَّهم كانوا ضَعيفي إيمان حتى أنَّهم صاحوا: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾، فقال لهم موسى بثقةِ المؤمن وطمأنينةِ المُوقِن: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾!

✧ **مِسكٌ مُحمديٌّ:**

لقد استكملَ محمد (صلَّى الله عليه وسلَّم) الأخذ بالأسباب عند اتخاذه قرار الهِجرة، فخرج في وقت الظَّهيرة من البابِ الخلفي في بيت أبي بكر الصِّديق، ومضى في الاتجاهِ المضاد لوجهةِ الهجرة، وسار في طريقٍ غير سالك، وكلّف من يقوم بإخفاءِ آثار الأقدام، واختفا في كهفٍ مهجورٍ لمدَّة ثلاثة أيام، مع تكليفِ من يأتيهما بالأخبارِ والطَّعام.

ورغم ذلك كلّه لحقهما المشركون حتى وصلوا إلى باب الكهف، فهمسَ أبو بكر في أذنه نتيجة خوفه عليه: لو نظر أحدهم تحت قدميه لَرآنا، لكن الرسول بدا متسلِّحاً بالثِّقة المُطلقة وهو يقول: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾.

أَسْرارُ الأَرْزَاء

✧ **تَعانُقُ الأسباب:**

إن العناية بـــ(الأسباب) لا تستدعي بالضَّرورة إهمال(الأسرار) وهذا ما يميّز المسلم الذي يؤمِنُ بعالَم الغَيب كما يؤمن بعالَم الشَّهادة، ومن ثم فإنه يعتلي بجوارحهِ مراكبَ الأسباب، ويتأَهّل بجوانحهِ لاستمْطار (الأسرار).

وهذا ما تُشير إليه آيات عدَّة، مثل: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١]، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ﴾ [البقرة: ٢١٦].

✧ **كهفُ الأسرار:**

بقدر امتلاء سورة الكهف بدروسِ النُّهوض الحضاريّ السببيَّة تنظيراً وتجسيداً، فإنَّها مُترعة ببعضِ أسرار المَعيّة الإلهيَّة والعلم اللّدُني الذي ينبغي أن يَخطبَ المؤمن وُدّه حتى يتفوّق على خصومهِ في مضمارِ الأسباب.

ومن الدُّروس التي قدَّمتها سورة الكهف في هذا الإطار:

١. خرق السَّفينة (خرقاً) بسيطاً يؤدِّي إلى (رَتْق) النَّفس الطَّمّاعة للمَلك الظَّالم الذي كان يُصادر كلَّ سفينةٍ سليمةٍ غصباً.

٢. قتلُ الغلام الذي علِم الله أنّه كان سيتمرَّد على والديهِ ويصبح سبباً لشقائهما.

٣. إصلاح الجِدار في إحدى القرى التي رفضَ أهلها إطعام الخِضر وموسى، وذلك لحفظ ثروةِ اليتيمين من أن تقعَ في أيدي أولئك اللؤماء.

٤. ذهاب ذي القرنين لفتح مشرق الأرضِ ومغربها، وكان عامَّة الناس يظنّونه من الملوكِ الذين إذا دخَلوا قريةً أفسدوها، وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة، لكنه لم يحمل لهم إلا الخير، ولم يجلب لهم إلا النَّفع، حيث علّمهم بعض أسباب صِناعة الحياة، ووفّر لهم الحماية من الظَّالمين المُعتدين وبدون أيّ أجر.

✧ **منحةُ المحنة:**

في عالمِ الأسباب لا تَحمل المرأةُ إلا بزوجٍ يتولَّى تلقيحها، لكن الأمرَ مختلفٌ في عالمِ الأسرَار!

ونحن نعرف أن حمل امرأةٍ من غير زوجٍ أكبر مصيبةٍ يمكن أن تتعرَّض لها امرأة على الإطلاق، ولا بدَّ أن مريم العذراء عندما أُخبرت بحملها تحمَّلت أثقال الجبال، وهي تلك الفتاةُ العفيفةُ التي تبوّأت درجة الصّدِّيقين.

وهذا ما عبّرت عنه بالفعلِ بزفراتِ الألم عندما قالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾[مريم: ٢٣].

فهل كانت تدري أنَّها حملت بكلمةِ الله وروحه؟ وأن في بطنها المسيح الذي نطق في المهدِ ليثبت براءة براءتها وطهارتها، وليسجّل تميّزه كنبيّ ارتقى مدارج النبوَّة حتى صارَ أحد أولي العزم من الرُّسل؟

لقد كانت مريم (مكْلومةً)، فهل بقيَ هذا الكَلْم بعد أن حملت بـــ (كلمة الله) ووضعت رحمته عيسى؟

✧ **تأهيل يوسف للنبوَّة والوزارة:**

لم يتمتَّع يوسف الصِّديق بشبابهِ مثل إخوته، وتعرض لصنوفٍ من الابتلاءات المتعدِّدة، ابتداءً من التآمرِ على قتله، إلى الرمي في غيابةِ الجبّ، إلى الاستعبادِ والبيعِ بثمنٍ بَخس، إلى الضمّ ضمن قطيع أحد الكبراء في دولةِ فرعون، إلى تآمرِ النّسوة ومحاولة الإغواء، إلى دخولِ السّجن بدونِ ذنب.

فهل كان يدرك أن ذلك كلّه إعداد له لتحمّل أعباء النبوَّة والوزارة؟ وعندما خرج رفيقاه من السّجن وبقيَ هو فيه بضع سنين، هل خطر بباله أنّه أوفرهم حظاً وسيخرج وزيراً لليالِيَّة، بينما يخرج أحدُهم للقتلِ ويبقى الآخر في العبوديةِ طيلة حياته؟!

أسئلة لا تبحث عن إجاباتٍ إنَّما تلفت الأنظار إلى أن للأرزاء الظَّاهرة أسراراً وقد تحمل في بطونها أجِنَّة المزايا التي لم تخطر على بالنا.

❋ ❋ ❋

آفاتٌ الاختلاف

✧ **انْزِياحُ الطاقات:**

إن تَولّي طاقات المسلمين عن تطبيق المأمورات يَجلبها إلى ساحاتِ المحظورات؛ لأن الطَّاقة لا تتوقَّف عن الحركة فإن لم تُصرف في الخير انْصرفت إلى الشّر، هذا ما نستنبطه من قوله تعالى: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٢٢]، والآية تشيرُ إلى التّولّي عن القتالِ ضدَّ الكافرين وهو من جملةِ المأمورات، فإن تلك الطَّاقة تنصرفُ حينئذٍ إلى الدَّاخل الإسلاميّ، كما نرى مصداق ذلك في عصرنا الراهن، فإن انصراف أغلب جيوش المسلمين عن الجهادِ ضدَّ العدوّ المعتدي، ساهم في تَحوّلها إلى ما يشبه العصابات التي تعيث في الأرضِ فساداً وتُقطِّع سائر الأواصر الروحيَّة والوطنيَّة والاجتماعيَّة، مما مزّق المسلمين وأوصلهم إلى هذه الحالة من الغثائيَّة الشديدة.

ولهذا السبب - ربّما - ربط القرآن في أكثر من موضع بين تراحم المؤمنين والشدَّة على الكافرين، كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ و﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

✧ **منابعُ الفُرقة:**

يتساءَل كثيرون عن سرِّ تفرُّق المسلمين أكثر من اليهود والنّصارى رغم وجود القرآن بين أظهرهم!

وبالعودةِ إلى نصوص القرآن تدبراً واستهداءً، سنجد أنَّه عند حديثه عن العداوةِ والبغضاءِ التي فرّقت الكتابيين، أعادها عند اليهود إلى الإساءةِ لله وآياته، فقال تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[المائدة: ٦٤]، وأعادها عند النَّصارى إلى نِسيان حظٍ من الكتاب بعد تحريفه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾[المائدة: ١٤]

وللأسفِ فإن من المسلمين من أساؤوا إلى مقام الله وآياته بأساليبٍ عديدة، فألقى الله بينهم العداوة والبغضاء، وهناك من نسواَ حظاً من القرآن جاعلين إيَّاه عِضين، فأغراهم الله بالعداوةِ والبغضاء إغراءً، حتى صارت لصيقةً بهم ومُحبّبةً إليهم، حتى صاروا مضرب المثل في التّفرقِ والتمزّق.

✧ **ألْغامُ الشِّقاق:**

إن أخطر ألغام الشِّقاق هي أفكارُ الغُلُوّ التي تَتشيّع للأشخاصِ تحت لافتاتِ الأفكار، فقد تسبّبت هذه الألغام، مع غيرها من العوامل، في تشظّي اليهود وتشرذمهم إلى إحدى وسبعين فرقة، حيث غَلَت كلّ مجموعة في تقديرِ حَبْرها إلى حدِّ تقديسه، مما أدَّى إلى بغي بعضهم على بعض.

وعندما انفجرت ألغام الغُلوّ أحدثت شقاقاتٍ وانشقاقاتٍ أوْدَت بهم إلى مهابطِ التفرّق، وهو ما يتكرَّر في أوساطِ المسلمين ولا سيما في عصرنا هذا؛ لأنّهم لم يتدبّروا قصص بني إسرائيل ولم يستفيدوا منها.

✧ **الاختلافُ المَذموم:**

إن الاختلاف المَذموم في القرآن مُنحصر في نوعين:

الأول: ما كان حول المسائل المعلومة من الدِّين بالضَّرورة، وهي ما نسمِّيها في زماننا بالثَّوابت؛ لأنَّها وردت بنصوصٍ قطعيَّة الثّبوت والدَّلالة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾، وتمعّنوا كثيراً في كلمةِ ﴿دِينَهُمۡ﴾.

الآخر: ما أدى إلى التَّنازع ولو في المتغيّرات، لأن ذلك يوغرُ الصُّدور ويُفسد ذات الْبَيْن ويؤدّي إلى تمزّق الصُّفوف وذهاب الهَيبة والقوَّة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾.

ومع أن الآية نزلت في الحربِ وهي من مسائل الجهاد المتغيّرة، إلا أنّها تشملُ كل فروع الجهاد والاجتهاد، حيث ينبغي أن يظلَّ الاختلاف داخل العقول ولا يتسلَّل إلَى القلوب.

وقد جمع الله نوعي الاختلاف المذموم في قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾، فالأمرُ بالاعتصام هو بالثَّوابت الواردة في القرآن، والنَّهي عن التَّفرقِ هو في المتغيّرات، بحيث لا يُفسد الاختلافُ هنا للوُدّ قضية.

✧ **نقمة العلم:**

العلم أجزل النّعم وأنْفَسُ المِنَن، لكنّه بدون حضور الإخلاص قد يستحيلُ إلى نقمة، حيث ينتقم من أصحابهِ فيُفرِّق جمعَهم ويُمزّق شمْلَهم، ألم تقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

❋ ❋ ❋

أشْواقٌ الوِفاق

✧ **قاعدة الوفاق:**

إن موالاة المسلمين لبعضهم، بحيث يصيرون كالجسدِ الواحد، ثمرةٌ من ثمارِ الإيمان، وهي غير موجودة عند أعدادٍ كبيرةٍ منهم اليوم، لأنّهم مسلمون كأعرابِ سورة الحجرات، وليسوا مؤمنين كالصَّحابة الكرام، مما يربط قضيَّة الوحدة بالإيمان.

وقد حكم الله بهذا الأمر فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ....﴾.

فالإيمان صفاتٌ وأفعالٌ تتحقَّق في الأرضِ فتحقّق الوحدة والتآلف، من خلال:

- الأمر بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر؛ لأنّهما يجتثَّان أشواك الشِّقاق ويزرعان أشواق الوِفاق.
- إقامة حقوق الله كافَّة وعلى رأسها عمود الإسلام الصَّلاة.
- إعطاء الحقوق لأصحابها، ابتداء من قاعدتها العريضة وهي أداءُ الزَّكاة؛ لأنها تقيم العلائق بين طبقات المجتمع، وتُجسِّر الفجوة بين الأغنياءِ والفقراء، وتزيلُ الوحشة بين الأثرياءِ والمُعدمين.
- إطاعة الله ورسوله في سائر ما أمَرَا ونَهيَا، حيث يعلم الله ما يُوحِّد الناس وما يُفرّقهم؛ لأنَّه خالقهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

ولأن الفُرقة عذاب والاتّحاد رحمة، فقد ختم الله الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فإن الإيمان يُنشئ مجتمعاً متراحماً يَستحقُّ انْهمارَ رحماتِ الله عليه.

✧ **ضرورة التَّعدد:**

كما أن اختلاف التخصّصات والمِهن ضرورة لاستمرار الحياة، حيث يخدم النّاس بعضهم بعضاً كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ {الأنعام: ١٦٥}، فإن اختلاف الأديان والأفكار ضرورة لتطور الحياة، ولتواصل عمليَّة الابتلاء حتى يتميَّز أهل التّمكين عن أهلِ الهزيمة في الدّنيا، ثم أهل النَّعيم عن أصحابِ الجحيم في الآخرة.

وإلى هذا الأمر أشارَ المولى عزّ وجلّ فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ {المائدة: ٤٨}.

✧ **تَنوُّعُ الإعجاز:**

إن الذين يجهلون طبيعة هذا الدِّين يسعون لقمعِ التعدّد وقَوْلبة التنوّع، تحت لافتاتِ الولاء والبراء وباسم الوحدة والاعتصام.

لكن القرآن يحتفي بالتَّنوع ويشيد بالتَّعدد، ويعتبره مظهراً للإعجازِ الإلهي، إذ يُبرز ألوهيَّة الله الذي يُسيِّر جميع الكائنات وفق قوانين دقيقة وسُنن صارمة، لا تتبدَّل ولا تضطرب، بل لا تزال كلّ الكائنات والمكوّنات في فلكها تَسْبَح.

وهذا الأمرُ يزرع خشيةَ الله في القلوب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر: ٢٧-٢٨]. ونلاحظ أن

آية الخَشية إنّما جاءَت في سياقِ التعدّد المنسجم مع عبودية الله والتنوّع المُنساب ضمن سننِ الله الجارية.

✧ **اصْطِراعٌ لا اضْطِغان:**

العُقّال هم من تختلف عقولُهم لا قلوبُهم، ولو اختلفت عقولهم إلى حدِّ الاصطراع، كما قال شاعرهم:

في الرأي تَصْطَرِعُ العقولُ وليس تَضْطغِنُ القلوبُ

ولهذا امْتَنَّ الله على العرب بتأليف القلوب لا العقول، فقال: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

✧ **طبيعة الاختلاف:**

من أبلغ الدُّروس الفكريَّة التي نتعلّمها من نبوةِ الشقيقين موسى وهارون الاعتراف بأن الاختلاف في العقولِ والأفهام وفي الأمزجةِ والطَّبائع النفسيَّة، أمرٌ طبيعيّ يدخل ضمن خِلْقة الإنسان وفطرته، فهارون هو شقيقُ موسى ونُبوّته هي دعوة موسى المستجابة من الله، مما يعني وجود توافق كامل بينهما، ومع ذلك فإن من يتدبَّر قصَّتهما سيلاحظُ فروقاً بينهما، وسنكتفي هنا بموقفهما ممن عبدوا العجل الذي صنعه السامري، قال تعالى على لسان موسى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[طه: ٩٢ – ٩٤].

لقد قدّم موسى مقصد التوحيد، ولذلك غضبَ من أخيهِ هارون ودمّر العجلَ وعاقبَ السامريّ ولامَ من تَبعه، بينما راعى هارون مَقصد الوحدة كما أوضح في ردِّه على موسى، ولذا أقام بين أظهرهم، وقد تفهّم موسى هذا الأمر.

✧ **التَّغافر:**

في الحثِّ على اجتراح أفعال التَّسامح والتَّغافر، قال تعالى لحبيبهِ محمد: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤].

فإذا كان الذين لا يرجون أيام الله يستحقّون المغفرة من المؤمنين، فكيف بالمسلمين الذين يختلفون معهم في الفروعِ والجزئيات والوسائل ويتفقونَ معهم في الأصولِ والكليّات والمقاصد؟!

❋ ❋ ❋

منابِعُ التّفرُّق

✧ **احتكار الوطن والدّين:**

إن ملأَ كلِّ قوم يَدفعهم الاستغناء في المالِ والجاهِ إلى الاستكبار، ويدفعهم الاستكبارُ إلى احتكارِ الوطنيَّة والدِّين، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[الأعراف: ٨٨]، ولاحِظْ هنا كيف تَملّكوا الوطن وحدهم (قريتنا)، وكيف أظهروا الحرصَ على الدِّين واحتكروه لهم (ملتنا)، مثلما فعل فرعون عندما قال عن موسى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

ومن ثمّ فإن هؤلاء بما يملكون من وسائلِ الدعاية والغِواية، ومن منافقي الثَّقافة ومرتزقة الإعلام، بجانبِ خزائن الأموال ومغريات السُّلطة، سينجحون لا شكَّ في الاستخفافِ بعامَّة النَاس، لكن ستبقى طائفةٌ تفضح زيفهم وتتصدَّى لطِغيانهم، مما يؤدّي إلى انقسام المجتمع إلى فسطاطين، وفي حالةِ الفوضى هذه قد تبرزُ فرقٌ عدَّة في إطارِ كلّ فسَطاط، مما يؤدّي إلى تقطيعِ أواصر المجتمع وتمزيق الوطن كل مُمَزَّق.

✧ **تفريق الاحتكار:**

إن أساس تَفرُّق المسلمين هو احتكارُ الحقيقة، وأساسُ احتكار الحقيقة هو القراءةُ الجزئيَّة للإسلام، بحيث تختزله كلّ طائفة في بُعدٍ واحد، ولا شكَّ أن حضور الأهواء بجانبِ ذلك سيؤدّي بكلِّ طائفةٍ إلى الدمجِ بينها وبين الإسلام، بحيث يصير من عارَضَ آراءها أو سياساتها معارضاً للإسلَام.

وعندما تفترق هذه الطَّوائف سيبدو للنّاظرين كأن الإسلام نفسه قد تَفرّق أبعاضاً بين شركاء متشاكسين لا يَكفُّ بعضهم عن تسفيهِ بعض، ولهذا قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الروم: ٣١-٣٢]

وقد نهاهم عن أن يكونوا مشركين مع كَونهم مسلمين؛ لأن اختزال الإسلام كلّه فيما تشيعوا له، يدفعهم للكفرِ بالأبعادِ التي تشيعت لها الطَّوائف الأخرى مع بَغيهم عليها، وبذلك صاروا من المشركين في أخذهم بما يروقُ لهم من الدِّين وكفرهم بغيره.

✧ **تَوحدٌ لا تنازعَ فيه:**

إن طاعة الله ورسوله لا تكفي للإبقاءِ على جماعة المسلمين موحدة، مع أن توحد الجميع في الثَّوابت التي جاءَ بها الله ورسوله هي أساسُ الوحدة المطلوبة، ذلك أن المتغيّرات، وهي الجزئيات والوسائل والأساليب، إن لم تُضبط عبر نظام صارم ومشاورةٍ منظّمة، فإنها حينئذٍ تصير سبباً للتَّنازع الذي يجلبُ الفشل ويتسبّبُ بذهاب الرّيح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال: ٤٦].

ولأن بعض متديني عصرنا يُطبِّقون الأمر الوارد في الآيةِ السابقة ولا يلتزمون بالنَهي؛ فإنهم يصيرون سبباً لتفرِّق جماعاتهم ومجتمعاتهم، عَبْرَ احتكارهم للحقيقة وتَملّكهم للحقّ، وعَبْرَ رفضهم للمشاورةِ وإصرارهم على تمضيةِ آرائهم بحسبانها الحقّ الذي ليس بعده إلا الضَّلال.

✧ **سؤال الأمر والنَّهي:**

في مسألةٍ متصلةٍ بالآيةِ السَّابقة قد يتساءَل المرء فيقول: لماذا استخدم الوحي فعل الأمر في الحديث عن وحدةِ الثَّوابت، وصيغة النَّهي في حديثهِ عن التَّنازع على المتغيّرات؟

والجواب كما يبدو لي هو أن الثوابتَ محلّ قبولِ وتقديرِ كل مؤمن؛ لأنها ثابتة بنصوصٍ قطعيَّة، والاختلاف حولها ضعيف الورود، ومن يصرُّ على شذوذهِ سيقف الجميع ضدَّه نتيجة تقديرِ عامَّة المؤمنين للوحي.

أمَّا في المتغيّرات فإن التَّعدد مؤكّد والاختلاف ضروري، وهنا قد تختلط الدّوافع العباديّة بالدَّوافع الذاتيَّة الخفيَّة، ومن ثمَّ فإن حضور الشخصانية وعدم الفقه بالمقاصد، مع غياب فقه الخلاف وآداب الحوار، قد يتظافران في نقلِ الاختلاف إلى دائرةِ التَّنازع المُفسد للقلوبِ والمُذْهب للرّيح.

✧ **منافذ القلوب:**

مهما أوْقدتْ شياطين التحريش من جَذَوات الشِّقاق ونيران الخلاف بين المسلمين، فإنَّها تظلّ بدون فاعليَّة أو تأثير، ما لم تتوافر لها قابليَّة الاشتعال، وذلك عند إصابة القلوب بالمرضِ أو القسوة.

وتأمَّلوا معي قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[الحج: ٥٣]، وتؤكّد الجملة الأخيرة من الآيةِ أن الظُّلم يتسبَّب في شقاقٍ بعيد الغور كتشققاتِ الأرض، ثم إن الظَّالمين يَسْبحون في لُجَجِه.

فما أسوأكم يا قساة القلوب! وهل يظلمُ غيره إلَّا قاسي القلب؟!

❋ ❋ ❋

أغْوالُ التّقْديس

✧ **عصمةُ الأنبياء:**

من العجيبِ أن يتمَّ التَّعامل مع بعض المنتسبين إلى الدَّعوةِ أو العلم الشرعيّ كأنهم رُسلٌ منحتهم السَّماء سلاح العِصمة، فلا صوت يعلو فوق أصواتهم، ولا اقتراح يقدّم بين أيديهم، فضلاً عن نَقدهم والاعتراض عليهم!

وهذا يجافي منطق القرآن ومنطلقاته، إذ أن كلّ البشر يَعْتَورُهم القصور ويَعْتريهم النّقصان، باستثناء الأنبياء الذين يَنهلون من عيونِ الوحي، ومن تَدبَّر مطلع سورة الحجرات سيجد أن الله ينهى المؤمنين عن التّقديم بين يدي الله ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١]، ولم يقل بين يدي الله ومحمد، لأن الأمر مختلف إذا لم يكن هناك وحي، وقد قدَّم الصَّحابة بين يديه(ﷺ) عندما رأوا أنه يفكر ببشريَّته المَحضة، كما فعل الحُباب بن المنذر وسعد بن معاذ قبل اندلاعِ معركة بدر.

وفي الآية الثانية من ذات السورة يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، وواضحٌ أن النَّهي متصلٌ بشخصية النَّبي، لأن الرّفع هنا سيكون أمام الوحي، وأقل ما يقال فيه إنه قلَّة عقلٍ وقلَّة أدب، وهذا ما تؤكده الآيات ٣-٥ من ذاتِ السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣-٥]

✧ **تطاول البشر:**

يتفقُ المسلمون على أنّهم بشر مهما بلغ علمهم وصلاحهم، إذ يظلّون عرضةً للخطأ والنِّسيان، وحاملين لإمكانات الظّلم والجهل، الضَّعف والطُّغيان، الطَّمع والفزع، لأن هذا كلّه من جِبلَّتهم نتيجة المكوّن الترابيّ في شخصياتهم، لكن الذين يَدّعون بلسانِ الحال امتلاكهم للحقيقةِ المُطلقة، ويُضْفون على تحرّكاتهم ورؤاهم شيئاً من العِصمة، رافضين النَّقد والمراجعة، وغير متقبّلين للنَّصيحة والموعظة، إنَّما يستطيلون فوق بشريَّتهم، ولا يفقهون أن رسولَ الله نفسه كان يُقاوم كلّ محاولةٍ لتقديسه، ويأبى كلّ اقتراح لرفعهِ فوق منزلته البشريَّة، ولسان حاله في ذلك كلّه: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[الكهف: ١١٠]

✧ **بين الرسالة والشخصانيَّة:**

خاطب الله تعالى محمداً مرةً فقال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، وفي أخرى قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فالأولى تنفي عنه الهداية والثانية تُثبت له ذلك، وقد جمع بعض العلماء بين الآيتين فقالوا بأن الأولى هداية التَّوفيق والإعانة ولا تكون إلَّا من الله، والثانية هداية الدَّلالة والإرشاد وهي من واجباتِ الرُّسل.

وبدا لي بأن هناك تأويلٌ محتمل، وهو أن الأولى تخاطب كيانه البشريّ فهو هنا لا يملك من أمرهِ شيئاً، والثانية تخاطبه كرسولٍ والهداية هي وظيفتهُ الأساسيَّة، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[النور: ٥٤]، والطَّاعةُ واجبةٌ للرَّسولِ في شؤونِ الهدايةِ والبلاغ لا في شؤون الدُّنيا البَحتة والاجتهاد النسبيّ.

أمَّا محمَّد الشَّخص فهو من النَّاس، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ولم يَقل وما آتاكم محمد!

✧ **نعمةُ التّعلُّق بالفكرة:**

إن الذين يتعلَّقون بالأفكار لا بالأشخاص يعيشون في نعمة جزيلة، حيث لا يتعرَّضون للصَّدمات والأوجاع التي يتعرَّض لها المُتعلّقون بالأشخاص، ولا يمكن أن ينقلبوا على أعقابهم مثلهم.

ولقد لفت القرآن النَّظر إلى هذا الدَّرس في معرض التعليق على أحداث غزوة أُحد التي أُشيع فيها بأن محمداً (ﷺ) قد قُتل، حتى أن بعض الصَّحابة رمى سلاحهُ وكفَّ عن القِتال، لولا ما فعله المتشبِّثون بالمَنهج والذين قال قائلهم: إن كان محمداً قد مات، فموتوا على ما مات عليه.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

وكان المتوقّع أن يقول: وسيجزي الله الصَّابرين، لأن المقام مقام قتال وفتنة، لكنّه يُشير هنا إلى الذين تَعلّقوا بالفكرةِ التي جاءَت من الله مباشرة، هذا الأمرُ نعمةٌ جزيلة قام أصحابها بشكرِ الله عليها بطريقةٍ عمليَّة، عندما اتَّصلت قلوبهم بالله مباشرة، وهذا الشُّكر يستوجب الجزاء الإلهيّ وهو ما وعد الله به هؤلاء في نهايةِ الآيةِ الكريمة.

✧ **شركُ التَّقليد:**

إن اتباع العلماء والعُبَّاد لذواتهم لا لما يحملون من قيم الدِّين وأحكامه، يجعلهم في مكان التَّحليل والتَّحريم، ويضعهم في مقام التَّقديسَ والتَّعصيم، فمن أطاعهم بهذهِ الطَّريقة فكأنّه جعلهم أرباباً من دون الله، وهي علّة قديمة ظهرت عند أصحاب الديانات السابقة، فقد قال الله عن أهل الكتاب: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١].

ومن هنا ندركُ بأن التَّقليد الأعمى (شَرَكٌ) خطير قد يقود صاحبه إلى (الشِّرك)!

مُلاّكُ الحقائق

✧ **إلى الأُحاديّين:**

كيف تريدون هداية النَّاس رغماً عن أنوفهم؟ ألم تقرؤوا قول الله تعالى للرَّحمة المُزجاة: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ و﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾؟!

وكيف تسعون للسَّيطرة على الخلقِ وقد قال له الله: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾؟

وهل تريدون فرض أنفسكم وكلاء على ذُرّية آدم، وقد قال الله لمحمد: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؟

وكيف تحاولون إخضاع من خالفكم الرأي وقد قال الله لحبيبه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾؟

ولماذا تحاولون تجاوز مهمَّات البلاغ وقد قال الله لرسوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾؟

ولماذا تتجاوزون مقصد التَّذكير وقد قال الله للمعصوم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾؟

ولماذا تحاولون امتلاك مقاليد القَسْر والإكراه، وقد قال تعالى لرسولهِ محمد: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾؟!

هذا خطاب الله للرحمةِ المُهداة للنَّاس، وقد كادت نفسه أن تذهبَ عليهم حسرات، فكيف بغيره أيها الأُحاديّون؟!

✧ **بين الطَّريق والصِّراط:**

يخلط بعض المسلمين بين الطَّريق التي يَختطّها لنفسهِ وبين الصِّراط المستقيم الذي شرَّعه الله، فما اقتنعَ به هؤلاء وساروا عليه يعتقدون أنّه هو الصِّراط الذي مَنْ لم يَسرْ عليه زاغَ وانحرفَ عن الجادَّة، ولهذا يكثر في أجيالنا التَّقليد والاجترار ويَندر التَّجديد والابتكار.

والصِّراط المستقيم ليس إلا كليات هذا الدِّين ومقاصده العامَّة التي عُلمت من الإسلام بالضَّرورة، أمّا ما دون ذلك من اهتماماتٍ ورؤى واتّجاهات، فإن التعدّد فيها سائغٌ بل وضروري، حتى تستقيم الخطى وتزدهر الحياة، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

إذ ينبغي أن يكونَ هذا التنوّع أداةً للتكامل، وداعيةً للتَّسابق إلى الخيراتِ وللتَّنافس على الإبداع.

أمَّا الصِّراط فينبغي أن يسعى إليه الكلّ ويسير فيه الجميع، طالبين من الله الهداية والعون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

✧ **التطرّف أُمُّ العُنف:**

التَّطرف هو أصلُ العنفِ ومن تحت عَباءَته يَخرج، فالذين يُفخّخون العقول بالأفكارِ الهدامة لا يَقِلّون إجراماً عمن يزرعون الألغام في الأرض، لأنّها جميعاً تنفجر في وجوهِ النّاس، فتقتل وتُشوِّه، وتُشيع الفساد في الأرضِ مُهلكةً الحرث والنسل.

✧ **إغلاق دائرة المُحرَّمات:**

دائرة الحرام في هذا الدِّين ضيقةٌ جداً وحدودها واضحةُ المعالم، منذ أن قصَّ الله علينا تجربة آدم الأولى في الجنة، عندما حرّم عليه الأكل من الشَّجرة وأباح له كلّ

ما في الجنة من طيّبات، إلى أن سيّجَ المحرّمات في الأرض بأداةِ الحصر (إنما) في أكثرِ من آية، وصولاً إلى خاتمة البلاغ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

وقد وردت هذه الخاتمة وسط مقطعٍ من سورة المائدة، جمع الله فيه سائر المُحرّمات، وكأنه يقول بأن المُحرّمات اكتملت باكتمالِ الدِّين ولا يحقُّ إضافة شيء إليها، وإذا وُجدت علّة مشتركة بين محرّم وأمر آخر، فهذا يتولّاه من كان أهلاً للفكرِ والاجتهاد.

✧ **تحريمُ الحرمان:**

من المعلوم أن التَّحليل والتَّحريم من خصائصِ الألوهيَّة، ومن نازعَ الله في إحداهما وقعَ في الشِّرك، ولا يقع في هذا الجرم مؤمن ولا سيما أن: "الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ" كما قال (صلَّى الله عليه وسلَّم).

وهناك صنفٌ من المسلمين يعمدون إلى تحريم بعض الحلال من زاويةِ التَّضييق على النفس، وهو ذنبٌ لا تصحّ معاقرته من مسلَمٍ يفقه هذا الدِّين.

وقد علَّمنا القرآن درساً لا يُنسى عندما حرّم رسول الله (صلَّى الله عليه وسلَّم) على نفسهِ جاريته مارية القبطيَّة إرضاءً لزوجته حفصة، أو العسل - كما في رواية - إرضاءً لعائشة وحفصة، فنزلت سورة "التَّحريم" التي افتتحت بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وتدلّنا الفاصلة: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على أن هذا الأمر ذنب لا بدَّ من التوبةِ منه حتى تتنزلَ مغفرة الله ورحمته.

وإذا كان هذا العِتاب للحبيب المصطفى في تحريمِ شيءٍ ذاتي، فكيف بالتَّحريم المُتعدّي إلى الخَلْق؟!

غَوائلُ الطُّغاة!

✧ **طَمْسُ الأبصار للبصائر:**

يمتلك الطُّغاة مَقدرةً هائلةً على تحويل (أبْصار) الجماهير المغفَّلة إلى أداةٍ لطمس (بصائرها) مثلما فعل فرعون عندما ردّ على خطاب موسى الذي يخاطب العقل ويناجي القلب، بخطابٍ تَعْبوي تحريضي، ملأهُ بالمُخاتلة والزّيْف المُزيَّن بوقائع مُنتقاةٍ وموظفة بطريقة شيطانية، لاستخفافِ العقول التي لم تَتجذَّر في تُربةِ الوعي العميق، وإنما نَبَتت على جُرُف هارٍ من المعارفِ المُضلِّلة والأماني الجوفاء، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ {الزخرف: ٥١- ٥٤}.

✧ **مِنَّةُ العبودية:**

وصلت شدّةُ غرور الطُّغاة إلى حدِّ امْتنانهم على من استعبدوهم باسترقاقهم، مُعتبرين استعباد الناس شرفاً كبيراً لهم، وهي طبيعةٌ ماضيةٌ في كافةِ الطُّغاة من قديم الزمان، كما فعل فرعون عندما منَّ على موسى وقومه، فقال له موسى متعجباً: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. {الشعراء:٢١}

✧ **أدعياء الوطنيَّة يَذُمّون الطَّهارة:**

عندما تَشْرُد العقول وتَشذُّ الأفكار تنقلبُ الأوضاع رأساً على عقب، فيصبح الخير شراً والشر خيراً، وتنقلب الفَضيلة إلى رذيلة، وتحتلُّ الرذيلة مكان الفضيلة عند الرُّوَيبضات الذين يَتسيّدون البلدان ويَستعبدون الإنسان.

ورغم تطوّر الحريَّة في عصرنا فإن هذا الأمر حاضرٌ بل ويقوم به بعض من ينتسبون إلى الإسلام، مع أن القرآن أورده في سياق الحديث عن قوم لوط، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ {النمل: ٥٦}.

ونلاحظ احتكارهم للوطنيَّة من قولهم: (قريتكم) فهي قريتهم وحدهم!

وليس للطَّهارة فيها مكان، وهذا يُبرز قيمةً إيجابيّة عند الجاهلية السَّابقة فقد كان الكذب مُستقْبَحاً، ولهذا سجّلوا بأن جريمة آل لوط هي التّطهُّر، بينما يذهب بعض مسلمي عصرنا الفاسدين إلى وَصْم المُتطهِّرين بكلِّ قبيح، وإمعاناً منهم في مخاتلةِ الجماهير فإنّهم يَحرصون على الظهورِ في أثواب القِدّيسين وبأجنحةِ الملائكة، وقد نجح بعضهم بسببِ ذلك في ذرّ الرَّماد على العيون والضَّحك على الذّقون، وفي التَّلاعب بعواطفِ الجماهير.

✧ **إمهالُ الفراعنة:**

يبدو أن أكثرَ قوم أمْلى الله لهم وأمهلهم، لعلَّهم يرجعون عن غيّهم هم قوم فرعون، فقد أرسل الله موسى بتسع آياتٍ إليهم، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَاۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨]، والسبب في ذلك والله أعلم، أن رسالته إليهم لم تكن عَقَدِيةً بل سياسيَّة؛ فموسى مرسلٌ إلى بني إسرائيل، لكن قومه كانوا يَرْزحون تحت نيرانِ العبودية لفرعون وقومه، فاتّجه موسى إلى الفراعنةِ بقصدِ إطلاق قومه من قيود العبودية.

✧ **نَقمة الذُّنوب:**

أورد القرآن قصصَ أقوامٍ كفروا بالله فتَعرضوا لنقمتهِ وعذابه، إذ أهلكهم بواسطةِ جنوده المنتظمين في لوِاءِ الظَّواهر الطبيعيَّة.

والحقيقة أن المياه لم تُهلك قومَ نوح أو جيش فرعون، والرِّياح لم تُهلك قوم عاد، والخَسف لم يُهلك قوم لوط، والرّجْفة الزلزالية لم تُهلك قوم شعيب، وإنَّما الذُّنوب هي من أهلكتهم جميعاً، كما قال تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ [الأنفال: ٥٤].

وكأنّ الذنوب عندما يسيل فسادُها في الأنحاءِ تستحيلُ إلى مياهٍ تُغرق البشرَ وتُطهّر الأرض، وعندما تتراكم أثقال الخطايا تصنع خسفاً زلزالياً، وعندما تتطاير الآثام تصيرُ رياح صَرْصَرٍ عاتية!

❋ ❋ ❋

صُنَّاعُ الطُّغاة

✧ **قَدِيدُ الظَّلَمَة:**

من ساغَ أن يَشرب من (قديد الظّلَمة) وهو يعلم بظلمهم؛ فقد شرب من (صديد المظلومين) وهو لا يعلم.

وليعلم هذا الصنف البائس من الناس أن ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧].

✧ **عُجولُ الاستبداد:**

عندما اتَّخذ بنو إسرائيل العجل نالَهم غضبٌ من الله، فأمَرهم موسى بالتَّوبة، وبرهان توبتهم أن يقتلوا أنفسهم.

وفي عصرنا اتَّخَذتْ مجاميع من أمّتنا عجولَ المستبدّين آلهةً، وهي عجولٌ لها خُوارٌ من الشّجْب والتَّنديد والهتافات التي تلعن الاستعمار وهي تَتمرَّغ بين قدميه! والعقوبة التي باء بها المسلمون هي قتلهم لأنفسهم، حيث اتَّجهت قوَّتهم كلّها للتَّقاتل الداخلي، تاركين الثُّغور خاويةً على عروشها تشكو الفراغ والهجران.

✧ **جَسْرُ الظلم:**

إن الجسر الذي يَعبُر عليه الآدميون إلى جُزر الظُلم، إنما تصنعه الأهواءُ الخالية من العلم، والظُّنونُ الفارغة من القَطْع، والأوهامُ الخاوية من اليقين.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩].

✧ **تَضخُّمُ الطُّغاة:**

ما يزال الطَّاغية يتضخَّم بفعلِ عوامل عديدة، وذلك بما يحصل عليه من خَصائص، وما يخلص إليه من مزايا، وما يتحكَّم بها من مسؤوليات، ولا شكّ أن الشّعب يتحمَّل وِزْرَ عديدٍ منها.

ولا يزال الطَّاغية يتضخَّم حتى يسلبَ من الناس أغلب حقوقهم، ويتحكّم بحركاتهم وسكناتهم، بما في ذلك العلاقة الخاصَّة بين الواحدِ منهم وربِّه، فبعد أن رأى السّحَرة معجزة موسى آمنوا لكن فرعون جُنّ جنونُه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟!

وتأمَّلوا سؤاله الاستنكاريّ الذي تتصاعد منه نتانةُ الغَطرسة والاستكبار، فقد تَعوّد على أن يتدخَّل في كلِّ شاردةٍ وواردة، فكيف يَتجرؤون على الإيمانِ بموسى وإلهِه دون استئذانه؟!

✧ **تواضع فرعون:**

لقد تفوَّق بعض طُغاة العصر الحديثِ على فرعون في تَألُّههم وتألّيهم على الخَالق، وفي تَكبُّرِهم وتَجبُّرهم على الخلْق.

وإن طبيعة هذا العصر وارتفاع نسبة التَّعليم وقوَّة أمواج الحرية، منعت فراعنة عصرنا من ادِّعاء الألوهيَّة بشكلٍ صَريح كما قال فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، ولهذا مالوا إلى قولها بلسانِ الحال.

لكنَّهم أسوأ من فرعون، من حيث إصرارهم العمليّ على أنَّهم آلهة وحدهم، فلا رادّ لقضائهم ولا معارض لأمرهم، وكأنَّهم يملكون على هذا بيِّنات وبراهين، بينما تجد في النَّص السَّابق أن فرعون أكثر تواضعاً عندما قال: ﴿مَا عَلِمْتُ ...﴾ ولم يقل: لا إله لكم غيري، إذ ربطَ الأمر بعلمه، بما يترك مجالاً للاحتمالِ أن يكون هناك إله لا يعلمه فرعون، وهو الذي اعترف به في اللَّحظة الأخيرة من حياتهِ عندما أدركهُ الغرق.

جَواهر مُوسَوِيةٌ

✧ **العنايةُ بنتُ المُعاناة:**

إنّ العنايةَ الإلهيَّة بالمؤمنين تكون على قدرِ المِحن التي يتعرَّضون لها، فإن موسى أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن؛ لأنَّه واجه أعتى طغاةِ البشر، وحمل (رسالة السَّماء) إلى أَرْدَأ (أُمَم الأرض).

ولأنَّ محنة موسى بدأت بمولدهِ نتيجة قرار فرعون بإعدام كلّ ذَكَرٍ إسرائيليٍّ يولد، فقد حفَّتهُ عناية الله باكراً، إذ ألهم أمّه وأخته وضعه فِي تابوتٍ ورميه في البحر، وسخّر له تعالى اليَمَّ الذي احتضنهُ بمودّةٍ وألقاه في السَّاحل برفق، وأَلْهَم أمَّه وأخته اتّخاذ إجراءاتٍ صائبةٍ كوضعهِ في التابوت، وأوْصله إلى بيتِ فرعون مُهيْئاً له امرأة الطَّاغية التي ألقى الله حُبَّه في قلبها حتى صارت أُمّه الثانية، وصَنعَه على عينه، وربّاه بالأحداث الكبيرة، ومنَحَه أخاه هارون نبياً شدَّ به أزْرَه وأشْرَكَه في أمْره، ومنحه عدداً وفيراً من المعجزاتِ الكبرى التي لم يُعطها لنبيٍّ قبله أو بعده.

✧ **النَّشأة في أكنافِ الحريَّة:**

لا بدَّ أن لنشأة موسى في بيت فرعون حِكَماً عديدة، ومنها أن رسالته ستكون ذات شقَّين:

- الأول: مواجهة الاستبداد الفرعونيّ الذي كان سِمةً بارزةً في تعاملِ المصريين مع الإسرائيليين.
- الآخر: معالجة عِلَل التديّن عند بني إسرائيل وإعادتهم إلى جادةِ التَّوحيد وناصية الوسطيَّة.

وتحتاج مواجهة الطُّغيان إلى شجاعةٍ نادرةٍ واعتزازٍ شديدٍ بالذَّات، وهذا لم يكن متاحاً في ظلِّ الاستعبادِ الفرعونيّ الطَّويل لبني إسرائيل، بينما حصل موسى على ذلك بسبب نشأته في بيتِ فرعون، إذ صار عضواً في الأسرةِ الحاكمة بعد اتّخاذ امرأة فرعون له ابناً، نتيجة إلقاء الله محبَّته في قلبها.

ولأن عامّةَ الجيل الإسرائيلي كان يعاني من إذلالٍ شامل، فلم يتأهّل ذلك الجيل لإقامةِ الدَّولة، حيث ظلَّت آفات التكيّف مع العبوديَّة والتَّعايش مع المهانة تُؤثِّر عليهم بوضوح، ممَّا جعلهم يتمرَّدون على أوامرِ موسى، فكتب الله عليهم التِّيه لمدةِ ٤٠ سنة في سيناء، وعندما فَنِيَ ذلك الجيلُ المستعبَد فإن الجيل الذي خرج من أصلابهم وتربّى في أكنافِ الحريَّة، صار جاهزاً لدخولِ الأرض المقدَّسة وتحمّل أعباء الجهاد، وقادراً على دفعِ تكاليف الحريَّة وأثمانِ الكرامة.

✧ **الظُّلم أسوأ من الكُفر:**

عندما اجتمعَ الملأ المعادي لموسى، كان ما زال محسوباً على البيتِ الفرعوني، فأخبره أحدُهم أن الملأ يأتَمِرُ به، ناصحاً إيَّاه بالخروج من مصر، وقد أخبرَ القرآن عن هذه اللَّحظة فقال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، ونلاحظ أنَّه في دعوتهِ لطلبِ النَّجاة ذكَر الظُّلم دون الكُفر، بما يعني أن الظُّلم أبشع من الكُفر، إذ يؤدّي إلى خسارةِ الدُّنيا والآخرة، بينما قد يؤدِّي الكفر إلى خسارةِ الآخرة فقط، ولذا وردت في الأدبيّات الإسلاميَّة مقولة: "إن الله ينصر الدَّولة العادلة ولو كانت كافرة على الدَّولة الظَّالمة ولو كانت مُسلمة"، كما أوردَ ابن تيمية في عددٍ من كُتبه.

✧ **ازدياد المسؤولية:**

كلما زادت آلاء الله على المسلم زادت مسؤوليته نحو مجتمعهِ ولا سيما فيما يخصُّ الحرِّيات والحقوق، ويُشير القرآنَ إلى أن موسى عليه السَّلام كان عاشقاً للحريةِ من

قبل النبوَّة، فعندما رأى في الطَّريق شابين يتعاركان: أحدهما من السادةِ المصريين والآخر من العبيدِ الإسرائيليين وقف مع العبد المستضعَف، ونتيجة شدَّة كرههِ للظُّلم وكَزَ المصريَّ وكْزةً قويةً أدّت إلى هلاكه، فشعر موسى بالذنب واستغفر الله فغفرَ له، عندها قال موسى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧].

وهكذا فإن موسى عندما أنعمَ الله عليه بالتَّوبة وغفران الذَّنب زاد من قوَّة انتمائه للحقّ والعدل، حتى اتَّخذ على نفسهِ عهداً وثيقاً بأنّه لن يكون نصيراً للمجرمين بأيّ صورةٍ من الصُور.

❋ ❋ ❋

دروسٌ هارون وموسى

✧ **بركةُ التَّكاتُف:**

عندما أمرَ الله موسى أن يتصدَّى للطَّاغية فرعون، طلبَ من الله أن يشرحَ صدره ويُيسر أمرَه وأن يَحلل عقدةً من لسانه حتى يفقهوا قوله، وأن يجعلَ له أخاه هارون وزيراً، وعلّل ذلك بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾.

وهنا نلاحظ الإشارة إلى بركةِ التَّكاتف حتى في التَّسبيح والذِّكر، مع أنهما عبادتان فرديّتان في الأصل، لكن أداءهما بشكلٍ جماعيّ يستجلبُ البركة المادّيّة المتمثّلة بالتناشُط والتَّعاون، والبركة المعنويَّة التي هي هِبةٌ غير منظورة من الله، بحيث تصبح حصيلة ١+١ لا تساوي ٢ فقط بل تساوي ١١ لأننا وضعنا الواحد بجانبِ الواحد ولم نجمعهما في ذاتٍ واحدة، ومن ثمّ تصير طاقتهما بطاقةِ أحد عشر رجلاً.

✧ **اتِّحاد التَّنوّع:**

عندما أمرَ الله موسى وهارون بالذَّهاب إلى فرعون، أعلنا خوفهما من جبروته ولا سيما موسى الذي قال: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]، وذلك عندما قتلَ بالخطأ القبطيّ الذي كان يعتدي على إسرائيلي، فنهاهما الله عن الخوف وقال: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ..﴾ [طه: ٤٧] وفي سورة أخرى قال: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، فلماذا عبّر هنا بصيغةِ الواحد (رسول) بينما في طه قال:(رسولا)؟

هذا ما سمّيته بالتعدّد المتَّحد، فموسى وهارون شخصان في تركيبتهما الماديَّة والعقليَّة والمزاجيَّة وفي ظروفِ نشأتهما وطريقة تفاعلهما مع الأحداث والنّاس، لكنّهما في التزامِ أمرِ ربّهما وفي اتحادهما ضدّ عدوّهما كأنّهما ذات واحدة.

وعلى سبيلِ المثال فقد اختلفَ تعاطيهما مع مشكلة قومهما الذين أضلَّهم السامري فعبدوا العجل، إذ غلّب هارون مقصد الوحدة وبقي بين أظْهرهم رغم إشراكهم: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ...﴾، بينما آثر موسى تقديم مقصد التَّوحيد، ولهذا لامَ هارونَ بقوةٍ حتى أمسكهُ من لِحيته، لكن ذلك لم يؤدِّ إلى تفرّقهما أو تباغضهما، فقد عادَ موسى وتَفَهّمَ منطق هارون واسترضاه ودعا له.

وبهذا يعلمنا القرآن درساً في وجوبِ الاتّحاد حول الثَّوابت المعلومة من الدِّين بالضَّرورة، مع إبقاء الاجتهاد قائماً في منطقةِ المتغيّرات دون أن يؤثّر التَّعدد النَّاتج عنه على ألفةِ القلوب ووحدة الصُّفوف.

✧ **تَقديم الأقوى:**

كان موسى عليه السلام أقوى من هارون، ولا غرْوَ أن يُقدّمه القرآن بالذكر في سائر المواضع، غير أنه أخّره في موضعٍ واحدٍ وهو قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، فلماذا قدّم السَّحرة هارونَ على موسى في هذا الموضع؟

لأوَّل وهلةٍ سيبدو أن النّظْم القرآنيّ هو السَّبب، لأنَّ اسم موسى متوافقٌ مع فواصلِ الآيات بعكسِ هارون، ورغم ذهاب بعض المفسّرين إلى هذا التَّعليل فإن دقَّة معاني القرآن تجعلنا نستبعده، وعند تدبّر المقطع كلّه بدا لنا أن السَّحرة كانوا متأثّرين بشجاعةِ هارون الذي لم يخفْ عندما رأى حبال وعصيّ السَّحرة تتحرَّك، فقد ذكر القرآن أن موسى خُيّل إليه أنَّها تسعى وقال: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[طه: ٦٧]، وهذا يعني أن هارون لم يَخف فكَبر في أعينِ السَّحرة.

✧ **الذنوب تزرع الخوف:**

وإذا تساءَلنا: لِمَ خاف موسى دون هارون؟

يبدو أن الله بتثبيتِ هارون أمام سحر السَّحرة، أرادَ أن يبرهنَ لنا بطريقةٍ عمليةٍ وعلى أعلى مستوى، أن الذُّنوب تُضعف الشكيمة وتهزّ الشَّجاعة أي أنَّها تزرع الخوف في قلوبِ أصحابها! ولكن ما علاقة موسى بالذّنوب وهو نبيٌّ معصوم؟!

للذّنوب آثارٌ بعيدة المدى عميقة الغور، ولقد قتل موسى قبطياً بالخطأ - كما أسلفنا - في شبابه، وظلَّ الأثر يتابعه ليُبيّن لنا القرآن خطورة الذّنوب على طبائعِ النَّاس وأخلاقهم.

وقد أشار القرآن إلى ذلك عندما أخبر موسى بأنه نبيّ فقال له الله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النمل: ١٠ - ١١].

وبهذا نستطيع إدراك حجم الذّنوب والخطايا التي اقترفها مسلمو عصرنا، من حجم الخوف الذي يعتري الأمَّة من أعدائها، حتى أن أذلّ أمّة استباحت بيضتهم ومرّغَت أنوفَهم في التُّراب رغم كثرةِ أعدادهم وكثافة أسلحتهم، بل لقد صنع خَوَرُ العربِ من جيش إسرائيل الذَّليل أسطورةً في أعينِ الناس، حتى قيل عنه بأنَّه الجيش الذي لا يُقْهر!

وفي هذا الصَّدد نستطيع التأكيد على أن الخطايا التي تتصل بحرماتِ الآدميين هي الأخطرُ في زرع نبات الرُّعب في القلوبِ من الأعداء، ولذلك فإن أهمّ خطوة في طريقِ تحقيقِ النَّصر هي التخلّص من المظالم الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة وإعادة الحقوقَ العامَّة إلى أصحابها، وبدون ذلك سيظلّ النَّصر حلماً بعيد المنال.

❋ ❋ ❋

أسْرَارُ البَلايَا

(١-٢)

✧ **عطاءُ البَلايَا:**

المؤمن الحق فقيهٌ في دينِ الله وفي سُنَنه الكونيَّة والاجتماعيَّة، وفقيهٌ بالنَّاس والأوضاعِ والأحوال، إذ يَمنحهُ إيمانهُ كياسةً وفطنةً بجانبِ المعرفة والثَّقافة، لكن أموراً كثيرة ستظلّ غامضة وتحتاج إلى معرفةٍ عملية، ولهذا جاءَت المِحن والبلايا الفرديَّة والاجتماعيَّة كمصدرٍ جديدٍ للمعرفةِ ومنجمٍ للكثيرِ من الأسرار، وستحاول هذه المقالة ومقالة الغدِ التَّعريج على أهمّها.

✧ **اختبارُ الإيمان:**

يظلُّ الإيمانُ دعوى تحتاج إلى إثباتٍ وتحقيقٍ أو شعارٌ يحتاج إلى بَرْهنةٍ عمليةٍ وتَجسيدٍ واقعيّ، والبلايا هي أكبرُ امتحانٍ لهذا الإيمان، حيث تتزلزل أفئدة النَّاس وتبلغ القلوب الحناجر، وعندما يكون الإيمان حياً فإنه يَحضُر بقوةٍ في أوقاتِ الشدائد، فيمنح أصحابه صلابةً وقوَّة، ويُحلّيهم بالصَّبر والشَّجاعة، ويَمدّهم قبل ذلك بالثِّقة بنصرِ الله واليقين بتأييده، كموسى عليه السَّلام أثناء مطاردة فرعون له مع أتباعه، ممّا يدفعه لعملِ كلّ مستطاع حتّى يتأهل لنصرِ الله، ويُفكّر بوسائل وخُطط غير تقليديّة لإدراكهِ بأن الله يمكن أن ينصره من حيث لا يحتسب.

✧ **عدم الوقوف عند المَظهر:**

يدرك المؤمن أن الأمور ليست دائماً على ظاهرها، فقد تَكْمُن المزايا في الرّزايا، وقد تأتي المناقبُ على ظهورِ النوائب، وتتخفَّى النّعم في بطونِ النّقم، وقد تأتي المِنَح في صورةِ محن.

ولهذا فإن المؤمن لا يتشاءم ولا يفقد تفاؤله في أصعب الظّروف، ويحاول أن يَجدَ وسط الأعاصير رياحاً لَواقحَ، ويستخرج من وسط الدوّامات دُرَرَ الجمال، مؤمناً بأن مناجم الفتن مليئة بالجواهر التي قد تَفْتن العقول وتَسْبي الأفئدة.

ومن الآيات التي تلفت الأنظار إلى ما وراء الظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥-٧٦].

✧ **تنبيهُ الغافلين:**

إن الإيمان لا يعطي أصحابه حصانةً كاملةً من بَشريَّتهم، ولهذا يمكن للغفلةِ أن تُصيب بعضهم، فينحرفون عن الصِّراط أو يتنكبون الطَّريق، وربَّما تاهوا في قفارِ الحياة وسقطوا في مهاوي الطَّريق.

ومن نعم الله غير المنظورة أن المحن والشَّدائد تأتي كجَرَس إنذار ومَطْرقة تذكير، وقد تصير وسيلةً للمراجعةِ والنَّقد والتَّقويم، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ {الأنعام: ٤٢} وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ معللاً ذلك بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فهي ليست جزاءً على ما كسبت أيديهم، إذ أن الجزاء الوافي يكون في الآخرة، وإنما نوعٌ من الطَّرْق على النّواصي الكاذبة الخاطئة حتى تَفيقَ من السَّدْرة وتَستيقظَ من السَّكْرة، فتعود إلى الجادةِ وترجع إلى الحقّ.

✧ **نعمة التَّدافع:**

إن الزَّوَاجرَ والقَوَارعَ قد تأتي على شكلِ حوادث طبيعيَّة كالفيضانات والزَّلازل والبراكين أو القحط والجدْب والفقر، لكنّها تتَّصل في الغالب بخارطة الصِّراع بين البشر، من خلال قانون التّدافع الذي يجعل الوراثة للصَّالحين والعاقبة للمتَّقين،

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة:٢٥١].

إن التدافع مع الأعداء يُصلح الأوضاع المقلوبة ويعيدُ الشَّاردين إلى تقواهم التي تستوعب الحياة كلّها، حيث يَلتزمون ثُغورَ الأوامر ويَجْتنبون مَهَاوي النّواهي، ويَندفعون لامتلاكِ مقاليد القوَّة واجْتناب مُنْزلَقات الضَّعْف، مما يُؤهِّلُهم للنَّصر والتَّمكين.

❋ ❋ ❋

أسْرارُ البَلايَا

(٢-٢)

✧ **نضوجُ الثَّمر:**

في عالم النباتات يوجد للرِّياح دورٌ في تلقيح الشجرِ وتأبيرها، وفي تقويةِ جذورها وتعميقها، وتساهم في إنضاج الثِّمار وإعلاء منسوب الجودة فيها، وينطبق ذلك على الشَّمس والحرارة الشديدة فهي تساهم في الإنضاجِ والتَّحسين.

وقضت مشيئة الله بأن الإنسان، وهو الثَّمرة العظمى لهذا الكون، لا ينضج تماماً إلا بزوابع المِحن ورياح الابتلاءات؛ إذ يكتسب منها أموراً كثيرةً بطريقةٍ عمليَّة، ومن ذلكَ إدراكه بأن لكلّ أمر زمنه الذي يحتاج إليه، حتى يصلَ إلى كمالِه ويُؤتي أُكُله، قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

وقد علّمتْنا دروسُ الأيام أن الذين أحْرقوا المراحلَ واسْتَعْجلوا قطْفَ الثِّمار قبل نضوجها، أنَّهم عوقبوا بحرمانها، وأصابتها الآلام التي أعادت تأهيلهم من جديد.

✧ **التعلّم في مدرسة العَثَرات:**

الحكيم هو من يتعلَّم من عثراتِ الآخرين، إذ يتجنَّب مُقارفة الأسباب التي جعلتهم يحصدون الهَشيم، حتى لا يقعَ عليه ما نزلَ بهم.

غير أن آخرين لا يعتبرون إلَّا بأنفسهم، ولا يستفيدون إلَّا من تجاربهم، إنّهم يتعلّمون بالألم، ويَفهمون بالقوارع، ويستوعبون لغة المصائب، وقد يصيرون خبراء بعد تخرّجهم من مدرسةِ العَثرات ومعهد الإخفاقات.

وهناك صنفٌ ثالث لا يتعلّم من أخطائه، ويظلّ لغفلته أو لحماقاته يُكرر نفس المقدِّمات قاصداً تحقيق نتائج مختلفة.

ولمثلِ هؤلاء قال أحد الكُتّاب: «عندما تَخسر أو تُخْفِق لا تخسر الدَّرس الذي تَعلّمتَه من هذا الإخفاق».

✧ **سبيلاً المؤمنين والمجرمين:**

لا يمكن أن يكون من جيلِ النَّصر والتَّمكين من لا يعرف سبيل المجرمين كما يعرف سبيل المؤمنين، معرفةً تُبعده عن الوقوعِ في التَّهويل أو التَّهوين، فضلاً عن التَّهويم مع الظُّنون والأوهام!

وفي هذا العصر زادت الشُّقّةُ بين العلوم النَّظرية والوقائع الحياتيَّة، نتيجة قلَّة التَّمحيص في الكثيرِ من الكتبِ والأبحاث، ونتيجة تعقيدات الحياة وكثرة متغيّراتها.

وإن المحن تُكسب أصحابها الكثير من الخبرات الدقيقة، وتؤدِّي إلى فهم الناس بدقةٍ أكبر، وإلى رؤية التفاعلات التي تُشكِّل الكثير من الظواهر المُعقّدة، ممّا يجعل سبيلَ المجرمين واضحةً كوضوحِ سبيل المؤمنين، عند من تدبّر نصوص القرآن وأتْقَن فقهَ الواقع.

ولا شكَّ أن هذا يرفع رصيد الحِكمة، ويزيد من فاعليةِ الأفرادِ والجماعاتِ في التَّقدم نحو ناصية الشَّهادة على الناسِ والقوامة على الأمم.

✧ **بين ضِفاف الشُّكر والصَّبر:**

تؤدِّي المحن والابتلاءات إلى انطلاق الطَّاقات المخبوءة وتَفتُّح المواهب المكبوتة، ولهذا فإن كثيرين يتعلّمون منها كيف يَمخُرون عُبابَ الحياة، حيث يَسْبحون بمهارةٍ تُمكِّنهم من التَّنقل بين ضفافِ الصَّبر والشُّكر، دون أن تُغرقهم لُجَجُ اليأسِ والقنوط، أو دوّامات الكُفر والغرور.

ويتعلَّم هؤلاء كيف يشكرون عند النَّجاح وكيف يصبرون من أجلِ النّجاة، حيث يُتقنون ثقافة الشُّكر ومهارات الصَّبر، ويدركون قيمة النِّعم والمنن الجليلة التي حباهم الله بها، ولا شكَّ أنه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

ولا تخلو الحياة من التنقُّل بين الحظوظ المحبوبة والابتلاءاتِ المكروهة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

❋ ❋ ❋

مَعالِمُ الابتلاء

(١-٢)

✧ **الدُّنيا دارُ ابتلاء:**

إن أوّل مَعْلَم ينبغي أن يَعرفه أهل الإيمان أن الدُّنيا دار ابتلاء، فقد قضتْ مشيئة الذي بيدهِ الملك أن يخلقَ الموت والحياة: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، حيث يَبتلي النَّاس بالمِنن والمسرّات ليرى هل سيشكرون، وبالنّقم والمَضرّات ليرى هل سيصبرون، وفي الطَّريق يبتلي بعضهم ببعض: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾.

والمؤمنُ الحقّ هو من يَكسب الرّهانَ ويَنجح في الامتحان، فإن سحائب السّرّاء إذا سَكَبتْ غيثَها الهامعَ أنْبتَتْ أشجارَ الشّكر، وإن أمطرت سحائبُ الضرَّاء أنبتتْ أشجار الصّبْر.

وفي كلتا الحالتين ما يزال متصلاً مع الله، إذ لا يَغيب عن الواجباتِ ولا يَحضر المحرمات، ومن ثم فإنه يطير في سماء الإحسان بجَناحَيْ الشكر والصبر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

✧ **عدم الفصل بين دَارَيْ الابتلاء والجزاء:**

من المعالم التي تضيء للمؤمن طريق الاستقامة، رغم نَقْع المَعارك ودخانِ المَحارق، ورغم عواصف الإغواء والإغراء، إدراكُه للارتباط الوثيق بين دارَيْ المعاش والمعاد، فإن كثافة التحدّيات تَسْتجلب طاقات الصَّبر والامتثال وتَستولدُ مشاعر الشكر والامتنان، مما يرفع درجات المؤمن في جنان الخُلد.

ويبدو إمهالُ الله للظالمين كأنه مُضرٌّ بالمظلومين، لكنّه يَتسبّب في تدفّق شلّال الإيمان وتَوَسُّع دائرة اجتراح الصَّالحات، مما يؤدِّي إلى رفعِ أقدار المظلومين في الدُّنيا وإعلاء درجاتهم في الآخرة.

✧ **صبرٌ بلا يأس:**

لقد أوجد الله الدُّنيا للابتلاء وخلق الإنسان في كَبَد، وفْقاً للقانون القرآني: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، حيث يَتقلّب المؤمن بين الشِّدة والرخاء، ويتنقل بين الضّرّاء والسّرّاء، ويَتَرحّل بين المكروهات والمحبوبات، ومن ثم لابدَّ أن يُوطّن نفسهُ على تحمّل الشدائد، مع فتح عين الأمل على مناطق الانفراج، الأمل الذي يَتسلّح بمِعْوَل العمل، حيث يَهدم جدران العوائق ويُزيل ركامَ اليأس؛ ليرى الفرج القريب ببصيرته قبل بصره.

إن الشَّدائد مراحل ضروريَّة للإعداد والتّأهيل، وبالصَّبر تمضي الأيام سريعةً سهلةً، فلقد سمَّى القرآن غزوة تبوك التي استمرَّ ألَمُها بضعة أسابيع بـ﴿سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، ورتَّب عاقبة الدَّار على الصَّبر، دون أيّ قيمةٍ أخرى من قيم الإسلام، حيث تقول ملائكة التنعيم لأهلِ الجنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

✧ **الحذر من طبائعِ الإنسان:**

لما كان الإنسان مخلوقاً من التَّراب، فقد حمل بعض الطَّبائع الكريهة، كالعَجَلة والظُلم والجهل والكنود، ولهذا لا بدَّ من الانتباه لهذهِ الطَّبائع، حتى لا تُصبح أسلحة تنغرس في صدره، وتجعله كَفوراً في الابتلاء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، والكَنُودُ هو الذي يَتوجّع من الابتلاء، فتَتَضخّم الشدائد في عينيه، وتُنسيه الآلاء الموجودة والأرْفاد الموهوبة، وتُعميه عن رؤيةِ منافذ الخروج وعن استقبال أشعّة الفرج.

واليأس في الرؤية القرآنيّة يوازي الانتحار، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، قال ابن الجوزي: "من كان يظنّ أن لن ينصره الله فليَمدُد بحَبل إلى السَّماء ثم ليختنقَ نفسه فلن يكون إلَّا ما أراده الله"!

ولما كان اليائس كمن قتل نفسه، فقد عَدَّه الله كافراً، وجعله رفيقاً للمنتحر في نار جهنم.

✧ **الجهلُ يُضعِفُ اليقين:**

إن الانتصار على الباطل يحتاجُ إلى يقين أهل الحقّ بعدالةِ قضيتهم، وبربانيَّة الحقّ الذي يُمثّلونه ويجاهدون في سبيله، وإلى الثِّقة بأن التَّوفيق حليفهم والنَّصر مثواهم، حتى إنهم ليرونه رأي العين، مهما اشتدت المحنُ وعَسَفَ الطغاةُ، ومهما احْلَوْلَكَ الظَّلام وتحالفت الغَوَاشي.

وإن الجهل ليَضَعُ غشاوتَه على أعين أصحابه فيمنعهم من رؤيةِ هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ويَدخل في ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ جَهَلةُ المسلمين، ما داموا ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وإن أغلبهم لكذلك ويا للأسفِ الشّديد كما تَنطق ألْسنةُ الحقائق وتؤكد الوقائع!

❋ ❋ ❋

معالِمُ الابتلاء

(٢-٢)

✧ **المُداولة سُنَّة ماضية:**

إن ما يَحمله البشر من طبائع نسبيَّة، كنتيجةٍ طبيعيةٍ للتَّزاوج بين خلائق التُّراب وخِلال الروح، تجعل الإنسان شديد القلق، سريع التّغير.

ولهذا أوجد اللهُ سُنناً حياتيَّةً ثابتةً كالسُّنن الكونيَّة، مهمّتها ضمان تطوّر الحياة وعدم تأسُّنها وفسادها. ومنها سُنّة المداولة التي عبّر عنها القرآن فقال: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾.

وتَسْري هذه السُّنة على الصَّالحين والطَّالحين، حيث تنتصر للأصلح في عمارةِ الحياة، فتضمن ذهاب الزَّبَد وتوطين ما ينفع الناس في الأرض.

وعن مُلك النبي سليمان قال شاعرٌ قديم:

قد زالَ مُلْكُ سليمانَ فعاوَدَهُ والشّمسُ تَنْحطُّ في المَجْرى وترتفعُ

وقال شاعر آخر:

ويومٌ علينا ويومٌ لنا ويومٌ نُساءُ ويومٌ نُسرّ!

وقال آخر:

الأمن والخوف أياماً مداولة بين الأنام وبعد الضِّيق تَتّسعُ

✧ **الشِّدَّةُ مَطيّةُ الرّخاء:**

إن الذين يُحسنون التَّعامل مع الشَّدائد إنّما يمتطون صهوة الخلاص من الهزائم ويَعْبُرُون بكفاءةٍ كُوّاتِ المخارج، حيث الانفراجات الجميلة والانبلاجات المُشرقة.

قال أحد الشعراء:

فلا تَجْزَعنَّ إن أظلم الدّهرُ مرّةً فإن اعْتكارَ الليل يُؤذنُ بالفجرِ

وقال أبو العتاهية:

هـي الأيـامُ والغـيرَ وأمـرُ اللهِ يُنتظر
أتَيأسُ أن تَرى فرَجاً فأين الله والقدَر؟!

وكان الحَجّاج الثقفيّ قد أمر بإعدام أحدهم فطلبَ إمهاله إلى الغد، واستغرب من طلبه لكنه أمهله، وسمعه وهو ذاهب إلى السّجن يقول:

عسى فرجٌ يأتي به الله إنّ له في كل يوم في خليقته أمْرُ

فقال الحجّاج: والله ما أخذه إلَّا من كتابِ الله وهو قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، وأمر بإطلاقه.

✧ **اسْتِجْلابُ رخاءِ الشدائد:**

ما نزل عذابٌ إلَّا بذنب، وما ارتفَع إلَّا بتوبة، فالذُّنوب تُفسد الطَّبيعة وتُعكّر الحياة، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

ونلاحظ الفاصلة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فإن أصحاب العقول يتصدّون للذُّنوب، ويشجعون النَّاس على إعمالِ النَّقد الذَّاتيّ الذي يقوم بتشريح أسباب الفساد وشرح أدوية الإصلاح، حاثّين لهم على المراجعة، دافعين إيَّاهم نحو الرجوع.

✧ **إزهاق الباطل:**

إن الله لا يُصلح عمل المفسدين، فقد أودعَ في سُنن الصَّلاح القُدرة على الانتقام من الذين يقفون في طريقِ سيرها، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، وقد تعهّد تعالى في هذه الآية بعدم إصلاح عمل المفسدين، لكنّه ترك إفساد عمل المفسدين للجهد البشريّ الناتج عَن حقيقة الابتلاء، والذي يُمثل جوهر العبوديَّة لله في محرابِ الحياة.

❋ ❋ ❋

المُواطنةُ المتساوية

✧ **عقْدُ المواطنة:**

المؤمنون إخوةٌ أينما كانوا، وتنبني على رابطةِ الإيمان حقوقٌ وواجباتٌ تجعل الجميع كالجَسد الواحد، لكن القرآن الذي جاءَ من أجلِ معالجة فتوق الواقع يعترفُ بالمواطنة وما يترتَّب عليها من حقوق، وقد لا يصل بعضها إلى المؤمنين خارج إطار الدَّولة الإسلاميَّة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

وتُبيِّن هذه الآية مكانة العقد الاجتماعيّ الذي يَمنح غير المسلم حقوق الولاية التي نُسمّيها اليوم حقوق المواطنة، ولا يعطي هذه الحقوق للمسلمين خارج إطار هذا العقد الاجتماعيّ ولو استنصروا بالدَّولة المُسلمة إلَّا إذا لم تكن على حساب ميثاق مع دولةٍ أخرى.

✧ **الحقوق الكاملة:**

من تَدبَّر آيات القرآن الكريم وما يحتاجه هذا التدبّر من فهم للسُّنة النبويَّة وتأمّل للسِّيرة الشريفة، سيتَّضح له بأن جملة الحقوق نسبيَّة، وتستوي في ذلك حقوق المواطنة وحقوق العقيدة، ومن يستحقّون كامل الحقوق هم فقط من ذكرتهم هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾.

فالذين يقومون بواجباتهم العقدية ﴿ءَامَنُواْ﴾ وبمسؤولياتهم الوطنية ﴿وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾، هم من يستحقّون الحقوق المتفرّعة عنهما، بمعنى أن المؤمن البعيد

عن الوطنِ لا يستحقّ حقوق المواطنة، وغير المسلم المقيم في الوطنِ لا يستحقّ حقوق العقيدة الإسلاميّة، والذين تبوَّؤوا الدَّار والإيمان مؤدّين حقوقهما هم من يستحقّون سائر الحقوق.

✧ **صرامة العدل:**

العَدل في الإسلام قيمةٌ أساسيَّة لا يقبل التَّراخي أو المهادنة فيها بل يحافظ عليها بمنتهى الصَّرامة.

وعلى سبيل المثال وصف الله اليهود بأنهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ بصيغةِ المبالغة، لكن إجرامهم هذا لا يُبرّر ظُلمهم، ولهذا وصّى الله نبيهُ محمداً (صلَّى الله عليه وسلَّم) في ذات الآية بقوله: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾ [المائدة: ٤٢].

فإذا كان هذا الحثّ لصاحبِ الرِّسالة المعصوم وفي حقّ السيئين من اليهود الذين هم أسوأ الأمم، فكيف بالعدلِ مع خيرِ أمة أخرجت للناس؟!

✧ **ظُلم الذَّات:**

ما فتئت مصادر الإسلام تؤكد أن المسلمين أمّة واحدة، حتى شبّههم الرَّسول (صلَّى الله عليه وسلَّم) بالجسدِ الواحد، ولما كان من غير الممكن أن يعتديَ عضوٌ في الجسم على عضو آخر فيه، فقد انطلق القرآن من هذا الأصل عندما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات:١١]، وهو أقوى تجسيدٌ لوحدةِ المسلمين وأبلغ نهي عن سبِّ بعضهم بعضاً.

وإذا كان لَمْزُ فردٍ لآخر كبيرة تستحقّ النَّهي عنها في القرآن؛ لأنّها توحي بالانتقاصِ النفسيّ لعضوٍ في المجتمعِ المسلم، فكيف بالانتقاصِ الحسيّ؟!

إن الآية تصلح كدليلٍ قوي بجانب الآيات التي تُؤصّل لمبدأ المواطنة المتساوية وتكافؤ الحقوق والواجبات، حيث أنَ الضَّررَ الذي ينالُ مجموعةً من أبناءِ المجتمعِ قد يُدمّر الكيان الاجتماعي كلّه.

✧ **اندماج المقدِّمات والنَّتائج:**

مع أن المقدّمات والنَّتائج متباينتان في قانونِ السببيَّة، إلَّا أن بعض الأمور في الشَّرع الإسلاميّ تندمجُ فيها هذه الثّنائية كامتزاجِ البذورِ بالثِّمار.

ونضرب المثل بالحكم الإسلاميّ فإن وصول الجماعة الإسلاميَّة إليه يتمُّ عبرَ إقامة حقوق الله وحقوقَ النّاس، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ...﴾، ومعلومٌ أن الإيمانَ هو عنوانُ حقوق الله، وعمل الصَّالحات هو عنوان حقوق الإنسان، كأن الله تعالى يشترطُ لقيام الاستخلاف إقامة منظومتيّ الحقوق في حياة المسلمين، وذلك بالطَّبع فيما لا علاقَة للحكومةِ به.

وبعد أن يتحقَّق التمكين للمؤمنين الصَّالحين، فإن من واجبهم جعل إقامةِ حقوق الخالق والمخلوقين الثَّمرة الكبرى والغاية الأساسيَّة للدَّولة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ...﴾، وإقامة الصَّلاة هي أساسُ حقوق الله، بينما إيتاء الزَّكاة هو أساسُ حقوق الإنسان.

❋ ❋ ❋

أزاهيرُ الدُّنيا

✧ **زينةُ الأزواج والأولاد:**

جعل القرآن الأزواج أهمّ من الأولاد، كما في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ...﴾، ومن ثم فإن حبّ الرَّجل للمرأة والعكس أمرٌ فطريّ بل وأشدُّ من حبّ البنين.

ولأن الإسلام يَتّسق مع الفطرةِ دوماً فإن عِبَاد الرَّحمن يُقدِّمون الأزواج على الذُّرّية، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

✧**زهرة الحياة:**

يطْلق القرآنُ على المرأة: ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه:١٣١]، أي مصدر الزِّينة والبهجة في الحياة، بينما التدين السَّقيم يجعل المرأة حقْلاً مُتْرعاً بالأشواكِ وكائناً مجبولاً على الخطأ المحض، ويعتبرها كتلةً تنفث الغَدْر الخالص وكَنِيفاً ممتلئاً بالشَّهوات التي لا تنتهي.

✧**وحدة الزَّوجين:**

يمتلك الإسلام المنهج الأمثل لإسعادِ الرَّجل والمرأة، سواء في الجانبِ النظريّ أو الجانب العمليّ، حيث ينظر للزَّوج والزَّوجة على أنَّهما نفسٌ واحدة انْشطرت في الخَلْق ثم تَوَحَّدت في الأمْر، عبْرَ الزَّواج الذي يحقّق السَّكينة ويذيبُ الشخصيّتين في مُكوِّنٍ جديدٍ اسمه الأسرة.

ولأهميَّة الانسجام بين الزَّوجين، ولخطورةِ ما يفعله السّحَرة، فقد أبرزَ القرآن أشنع عملٍ يقوم به هؤلاء وهو التَّفريق بين شطري النَّفس الواحدة، حيث قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ومع أن السحرَ يفرِّق بين الأحبَّة ويفصمُ العرى بين الأخلَّاء جميعاً، لكن اختيار القرآن هنا للزَّوجين، دليلٌ على أن الأواصرَ الممتدة بينهما أقوى من أواصرِ الأبوَّة والبنوَّة والأخوَّة، حيث تجتمع فيها الحِسّيات والنّفْسيات، الشَّرعيات والواقعيَّات، الخَلْقيات والأمْريات، الغريزيات والخُلُقيات.

✧ **شقائق الحقوق:**

خلق الله حواء من ضلعِ آدم فَهُما شطْرا نفسٍ واحدة، ومع ذلك جاء أناسٌ ينتسبون للإسلام فانتقصوا حقوقها، وحرمها بعضهم من كافَّة حقوقها بما في ذلك الخروج من البيتِ ولو للصَّلاة في المسجد، فكيف لو خلقها الله خلقة مستقلَّة؟ بل كيف لو خلقها من عنصرٍ مختلف؟!

وعندما قال (صلَّى الله عليه وسلَّم): «النساء شقائق الرجال» فإنه بذلك يساويها بالرِّجال في كافةِ الحقوقِ والواجبات، باستثناءِ ما وردَ الدليل الصَّحيح الصَّريح على خلافه، وينحصر ذلك فيما فيه فروق وظيفيَّة بحتة وهو قليل.

والعجيب أن البعض ما زالوا يجادلون حول الحقوق السياسيَّة للمرأةِ في هذا الزَّمان الذي طرأت فيه متغيّرات كثيرة، رغم أن القرآن يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾، ويقول: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

✧ **مساكن لا منازل:**

يفرق علماء الاجتماع بين المنازل والمساكن، من حيث أن المنازلَ تجمع أناساً في بيوتٍ تأويهم، بينما تتسمُ المساكن بوفرةِ العواطف ودفءِ المشاعر، وتنبني على قوَّةِ الأواصر وشدَّة الرَّوابط، ومن ثم فإن السَّعادة تنسكب على المساكن لا على المنازل،

وهذا ما أشارَ إليه القرآن بالنسبةِ لبيوتِ المؤمنين عندما امْتَنَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا...﴾، فهي قواعد لتنزّل السَّكينة وحلول الطمأنينة، وهي واحاتٌ لاخضرارِ الحُبّ والرَّحمة، وليست مجرَّد منازل يحكمها نظامٌ آليٌّ لا عواطف فيه كالفنادقِ التي كانت تسمى نُزُلاً.

✧ **أشواكُ الأزاهير:**

من المعلوم أن بعض أنواع الورود والأزاهير تحتوي على أشواكٍ تحمي بها نفسها من أيدي العُدَاة.

وفي إطار الأزاهير الآدميَّة نجد قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾، وهنا ينبغي أن يسودَ الحَذر ويحضر الانتباه، وأن يتَّسمَ الأزواج بالنَّباهةِ والحساسية حتى لا يَستفزّوا الأشواك المَخْفية في طبائع التُّراب والعداوات الكامنة في النُّفوس، حيث يمكن أن تجرحَ القلوب وتُدمي الأرواح، بل يمكن أن تحيلَ البيت من روضةٍ من رياضِ الجنة إلى حفرةٍ من حُفر النار.

❋ ❋ ❋

أحْكامُ الضَّحِك

✧ **كَسْبُ الضَّحك:**

المؤمن يعبد الله بكافةِ جوانحه وجوارحه، والتبسُّم في وجوهِ النَّاس مفردة من مفردات العبادة، ولذا كان عليه صدقة مثلما أن التكشيرة في وجوهِ الأعداء الحربيين صدقة.

فإن كان الضَّحك ملتزماً بموازين الخيرات فإنّه يَصبّ في ميزانِ الحسنات، والعكس صحيح، إذ أن لكلِّ نفسٍ ما كَسبت وعليها ما اكتسبت.

ولقد عاتب الله نبيه محمداً (ﷺ)؛ لأنّه عَبَس في وجهِ رجل أعمى عندما ألحَ عليه بالسُّؤال وهو مشغولٌ بدعوةِ المشركين، وسجّل هذا العِتاب في سورةٍ سمّيت باسمِ الفعل(عَبَسَ)، حتى يظلّ حاضراً في الأذهانِ إلى قيام الساعة.

وللعلم فإن هذا العتاب في حقِّ رجلٍ أعمى لا يرى العبوس أو الابتسامة، فكيف بغيره؟!

ورُويَ في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ وقوله تعالى على ألسنة المجرمين يوم القيامة: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ رُوي عن ترجمانِ القرآن عبد الله بن عباس أن الصَّغيرة هي الابتسامة والكبيرة هي الضّحكة.

✧ **صوتُ الفرح:**

إن صوتَ الفرحِ في القرآن هو الضَّحك، فإن كان الفرح مشروعاً فإن الضَّحك محمود، كضحكِ زوجة إبراهيم من فرحتها ببشارةِ حَمْلِها بإسحاق بعد أن صارت

عجوزاً، رغم أنها لم تحمل في السِّنّ الطبيعيَّة، قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

✧ **ضحك التعجُّب:**

عندما يرى المرء ما يدهشه ويذهله أو يستثير استغرابه وتعجبه، فمن الطبيعيّ أن يضحكَ أو يبتسم، لأن هذا من الفِطرة كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣}، والإسلام ما جاء إلا لتعزيز الفطرة السويَّة، ولهذا وجدنا نبياً مَلكاً عندما سمع مقالةَ النَّملة تَعجّب وتَبسَّم ضاحكاً، كما قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ [النمل: ١٩].

✧ **ضحك السُّخْرية:**

هناك نوعٌ من الضَّحك يَنمّ عن السُّخرية، كما قال تعالى عن موسى والفراعنة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾[الزخرف: ٤٧]

وعيَّر الله مشركي قريش في هذا الأمر فقال لهم في شأن القرآن: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ٦١ فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ۩﴾ [النجم: ٥٩- ٦٢]، حيث تَعجّبوا من مخالفة القرآن لأمورٍ كثيرةٍ ألِفُوها كجَعْلِ الآلهة إلهاً واحداً، وسخروا من بعض الموضوعات التي ذكرها القرآن الكريم كشجرةِ الزّقّوم، حتَّى أنهم كانوا يأكلون الثريد باللَّحم ويضحكون قائلين لبعضهم: "تزقَّموا تزقَّموا"!

✧ **الحربُ النفسيّة:**

قد يكون الضَّحك جزءاً من حربٍ نفسيةٍ تنال من الآخر، كما هو ديدن المجرمين في مواجهة أهلِ الحقّ بالسخرية والاستهزاء وبالضَّحك والقَهقَهة، ومحاربتهم بالهمزِ واللَّمز وبالطَّعن واللَّعن، وعن هؤلاء قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ

مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾[المطففين: ٢٩- ٣٢].

ولأن غاية الحرب النفسية هي تسفيه الفكر وطعن الأشخاص، فإن هذا الأمر يدمي أفئدة المؤمنين، ولهذا فإن صاحب العدل المطلق يضع كل ذلك في ميزانه المستقيم جاعلاً الجزاء من جنس العمل، كما قال في نهاية سورة المطففين ذاتها: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٤ - ٣٦].

وفي سياق التَّعذيب النفسيّ للمجرمين في الآخرة فإن الله يُذكِّرُهم بسخريتهم وضَحكهم من المؤمنين، فيقول: ﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴾.

ويمكن القول بأن زماننا هو العصرُ الذهبيّ لضحكِ الكفَّار والمنافقين من المؤمنين، نتيجة تطوّر وسائلِ الإعلام والتَّواصل الاجتماعيّ، واتكاءِ الضَّاحكين على دراساتٍ علميةٍ عميقة في علومِ النَفس والاجتماع والإعلام، مما يجعل السخرية سلاحاً فتاكاً في الحرب الباردة.

✧ضَحك الآخرة:

مثلما وضحت خاتمة سورة المطفّفين أن المؤمنين والمجرمين يتبادلون المقاعد بالضَّحك في الآخرة، أكَّدت سورة (عبس) في المقطع الأخير منها على ذلك، حيث يقول عن وجوه المؤمنين: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ [عبس: ٣٨- ٣٩].

وقال عن المجرمين في موضعٍ آخر: ﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨٢]، مما يبيِّن خطورة الضَّحك كسلاحٍ في النَّيل من الخُصوم.

باقَاتٌ النّقْد

✧ **أمانُ النّقْد الذاتي:**

كان (صلَّى الله عليه وسلَّم) أماناً لهذهِ الأمَّة في حياته، لأنّه الأعلم بمنهجِ الله والأتقى في تطبيقه، إذ تكفّل بالتَّصدي لأيِّ عِوَج أو انحرافٍ مهما كانت نيّة صاحبه طيّبة أو دافعه حسناً، وكان يمتلك طاقة عقليّةً وروحانيّة تجذب الناس إلى رسالته، فيأتلفون بالقرآنِ الذي تنزل عليه ويلتفّون حول شخصيّته التي جسَّدت القرآن في سلوكيّاتها المثاليّة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

ومن اقتران الاستغفار بالرَّسول (صلَّى الله عليه وسلَّم) في منع العذاب الاستئصاليّ يبدو أن الاستغفار الذي يُمثِّل صورةً من صورِ النَّقد الذاتيّ، يؤدّي كثيراً من الأغراضِ التي انتصبَ لها الرسول (ﷺ)، إن طُبِّق كما ينبغي، وإن أصبح ثقافةً جماعيَّة، بحيث يراجع النَّاس ماضيهم بصورةٍ مستمرةٍ ومنظّمة، لاكتشافِ نقاط الضَّعف ومعرفة أوجهِ الخَلل وإدراكِ نواحي القصور والتَّقصير، مع الاستغفار منها قلبياً بالنّدم وإضمار إرادة الإصلاح، وقولياً بإظهارِ النَّدم وطلب المغفرة، وعملياً بالإصلاحِ والتَّصحيح.

✧**ضرْبُ القلوبِ الحجريَّة بعِصيّ التَّأنيب والأوبة:**

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ...﴾ [البقرة: ٦٠]، أمَّا أمَّة محمد التي تنتسب إلى

القرآن وهو معجزتها المعنويّة المتجدّدة، فإن رسالتها لا تقوم على المعجزاتِ بل على التّغيير السَّبَبي والعمل السُّنَني، والبدء يكون من القلوب.

وفي ظلِّ هذه الرسالة فإن المعاصي تزيل النِّعم حتى أنَّها تمنع نزول المطر من السَّماء، حيث تؤدِّي الذّنوب إلى تَحجُّرِ القلوب، ولذلك يلجأ المسلمون إلى صلاةِ الاستسقاء، وإلى ضَرْب القلوب بعصيّ التَّقريع والمحاسبة والنَّقد الذاتيّ، وتخليصها من رانها بماءِ التوبة إلى الله.

وإذا تَمعّنّا في فلسفةِ صلاةِ الاستسقاء سنجدُ أنّها انتفاضة ضدّ الذَّات التي تَورّمتْ ولم تتورّع عن ارتكابِ المعاصي، وذلك بالخروجِ في مسيرةٍ احتجاجيةٍ عامَّة لاستجلابِ مغفرة الله واستمطار رحمته، حيث يُشركُ الإنسان فيها الحيوان، ويكونون في أخْشَنِ ملبسٍ وأبأسِ صورة، مع الجؤور إلى اللهِ بالدّعاء والرّجاء، وإظهار كامل الذلّ والاندحار وتمام الاستسلام والانكسار.

ويسبقون هذا الخروج بتقوية الرّوح عبر شعيرةِ الصِّيام، وإعادة المظالم إلى أصحابها، وإخراج الصَّدقات وإطلاقِ النّذور، ومعانقة شتى القربات.

✧ **همودُ الهِمم:**

في غزوة أُحُد ساهمت أمورٌ عديدة في انخفاضِ منسوبِ الفاعليَّة واضطراب صفوف الصحابة، مما أدى إلى تحقيقِ تلك النتيجة غير المُرضية.

ومن ذلك انسحاب عبد الله بن أُبيّ بثلث الجيش، لأن الرسول لم يأخذ برأيهِ في البقاء بالمدينة وأخذ برأي الشباب في الخروجِ للقتالِ خارج المدينة، فقد أحدث ذلك الانسحاب رجّةً هائلةً في الجيشِ المُسلم، مما تسبّب في خفضِ روحهِ المعنويَّة العالية بنسبٍ متفاوتة، وكانت الأكثر تضرراً طائفتان من المسلمين، كما قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وورد في كتب التفسير بأن هاتين الطَّائفتين هما بنو حارثة وبنو سلمة من الخزرج الذين ينتمي إليهم عبد الله بن أبي قائد الحركة الانسحابيّة وزعيم حزب النِّفاق.

ولهذا فقد تولَّى القرآن إجراء مراجعات وتعقيبات على أحداثِ هذه المعركة، مُحملاً المسلمين مسؤولية ما جرى، ومؤسِّساً لمنهجِ النَّقد الذاتيّ إلى قيامِ الساعة.

✧ **دمْغُ الجريرة للجريمة:**

المؤمن إذا أخطأ لا يكابرُ ولا يحاجج بل يعترف ويُقرّ ثم يتوبُ ويَستغفر، ولو كان في حضرةِ أعدى الأعداء، فإنَّ فطنتهُ تُمكِّنه من استغلالِ خطئه الذي أقرَّ به لتنبيهِ عدوّه إلى خطيئته.

وهذا كليم الله موسى عندما وقف أمام فرعون داعياً ناصحاً، حاول فرعون النَّيل من دعوته عبر تذكيره بقتل المصريّ الذي دفعه عن الإسرائيلي بقوةٍ حتى قتله، فقال له: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ ...﴾، وهنا دَمَغَ موسى حجّة فرعون وأزهقَ باطله دون أن ينكرَ جريرته، حيث قال: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهنا اعترفَ بالخطأ رغم أنَّه قتلهُ بدون عَمد، وبيّن أن جوهر الخَلل يكمن في الثَّقافة الضالة التي تركها هو وما زالوا يَعُضُّون عليها بالنواجذ.

✧ **استكمال الأسباب:**

في الرؤية القرآنيَّة لا يصحّ التَّقصير في (الأسباب المادية) اتكاءً على تدخلِ (الأسرار الغيبيَّة)، فعندما جاء المُعذِّرون يَحلفون للرسول أن العجزَ منعهم من الخروج للجهاد، وأذِن لهم ﷺ بالبقاءِ في المدينة دون أن يفحصَ حالاتهم ليتبيَّن الصَّادقَ من الكاذب، عاتبه الله فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

هذا العتابُ في مسألةٍ صغيرةٍ كان لرسول الله ﷺ والوحي يتنزل عليه، فكيف بمن ليسوا بأنبياء؟ وكيف بالتَّقصير في أمورٍ كبيرةٍ كالتفريطِ في بعض شروط النصر الأساسية؟!

مسارِبُ السُّنَنِ

✧ **كلماتُ السُّنَنِ:**

السُّننُ التي تنظّم حركة الكون وحياة الناس، هي تجسيدٌ لمشيئةِ الله أو مساربُ تَنْفُذُ من خلالها هذه المشيئة، سواء اختار الإنسان الخير أو الشّر، القوَّة أو الضعف، الغنى أو الفقر، العزة أو المذلَّة.

وفي قصَّةِ سَحَرة فرعون عندما ألقوا حبالَهم وعِصيَّهم قال لهم موسى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١ ـــ ٨٢].

وكلماته تعالى التي يُحق بها الحقّ يبدو أنَّها هي السُّنَن الجارية في عالم الشَّهادة، فهي المسارب التي تتدفَّق من خلالها إرادةُ الله في إحقاقِ الحقّ وإزهاقِ الباطل.

وهي تختلفُ عن السُّنَن الخارقة في عالم الغيب: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ في أن إرادة الإنسان وجهوده تساهمان في تحقيق كلماتِ الله في الأرض، أما ﴿كُن﴾ الغيبيَّة فهي خارقة لكلِّ النَّواميس ولا تحتاجُ لجهدِ الإنسان.

✧ **سُنّةُ التدافع:**

إن حركة البحار الدَّائمة هي أحدُ أهمّ أسباب الحياة لملايين الكائنات البحرية، وتُعلّمنا الآية ٣٣ من سورة الشورى أن سكون البحار ركود: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، وهذا هو ما يَحدُث في حياةِ بني الإنسان، مع فارقِ أن التدافع هنا يتدخل فيه الإنسان إيجاباً أو سلباً ضمن ابتلاء العبوديَّة لله وعمارة الأرض.

ولذلك امْتَنّ الله على الناس بهذه السُّنّة، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١]، ونلاحظ إنهاء الآية بذكرِ فضلهِ تعالى على العالمين، وذلك بتهيئةِ أسباب المدافعة حتى تتجدَّد الحياة ولا تركد، وتصلح ولا تفسد.

✧ **سُنّةُ الإملاء والاستدراج:**

يُملي اللهُ للظالمين ليزدادوا إثماً، ويُزيّن للكافرين أعمالهم حتى يطغوا، ويجعل سبحانه في كلِّ قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، وفي الحقيقة فإنهم يمكرون بأنفسهم دون أن يَشعروا: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ [الأنعام: ١٢٢-١٢٣]، لأن السِّحر حينئذٍ ينقلبُ على السَّاحر.

وإنه إملاء الازدياد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ [آل عمران: ١٧٨].

ذلك أن للأمم آجالاً، وللهلاكِ مقادير وسُنَناً، والإملاء هو استدراجٌ إلى الهلاك، ويمكن تسمية هذ الأمر بسنَّة الاستدراج، كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّه سُنّة ماضية لا تتبدَّل ولا تتغيَّر.

✧ **سُنّةُ الإهلاك:**

إن النَّظر في عواقبِ المكذّبين مقصدٌ مهمٌ من مقاصدِ السّير في الأرض، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام:١١]، فإن سنّة الله ماضية في إهلاكِ المكذّبين، مهما اختلفت وسيلة الإهلاك.

وحتى لا يقعَ المؤمنون في الهلاكِ أوجبَ عليهم ربُّهم السيرَ في الأرضِ والنَّظر المتأمّل في عاقبة الظالمين المكذبين، ولذلك قال عاقبة ولم يقل عواقب، وإنما يتوجّب النظر في الطُّرق والعوامل والمقدِّمات التي أدّت إلى هذه النهاية المخيفة، ومن المعلوم أن تجنّب النتيجة يوجب تجنُّب الأسباب.

✧ **السّياحة السُّننية:**

من قلب موقعة أُحُد ومن بين أنقاض الهزيمة، تولّى القرآن طَرْقَ حديد القلوب وهي ساخنةٌ من شدةِ القَرْح، وذلك بالتأكيدِ على ضرورةِ معانقة أسباب النَّصر والتمكين والبُعد عن سننِ الهزيمة والهلاك.

وأوصى القرآن بالسيرِ في الأرض وممارسة السّياحة الدّارسة لتفاعلاتِ السُّنَن في الواقع، وذلك بتتبّع آثار الشّعوب والأمم التي تحطَّمت نتيجة اصطدامها بسنن الله، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وهكذا فإن المؤمن المُتفقِّه يستثمرُ الماضي في تقويمِ الحاضر وتقوية المستقبل.

❋ ❋ ❋

خِلالُ المُحْسنين

✧ **إيجابيَّة الدَّعوة:**

إذا ارتبطت المنهيات الشرعيَّة بفعلِ الآخرين، فإن الإيجابية تُحتّم على الدّاعية البَنّاء أن يشتغلَ بإرساءِ فرائض الإسلام الأساسيَّة، حتى لا يستهلك طاقته في الصِّراع مع الفاسدين إذا كانوا على قدرٍ كبيرٍ من التمكّن، قال تعالى في بدايةِ الدَّعوة العامة: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحُجْر: ٩٤].

بمعنى أن يَصبّ طاقته في الأمرِ بالمعروفِ ويُعرض عن المنكرات، ولا شكّ أن إرساء المأمورات يُمثِّل على المدى البعيد إزالة تلقائيَّة للمنكرات.

✧ **تحريم ما دون الإحسان:**

قال تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡۖ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]

في هذه الآية خمس محرَّمات، بدأ الله كلّ واحدةٍ منها بلا النّاهية، ما عدا ما يتعلَّق بالوالدين فلم يَنْهَ عن العقوقِ وإنَّما أوجبَ الإحسان إليهما، ومَطلعُ الآية يوضّح بجلاء أن المقامَ مقام تحريم، كأنه يُحرِّم كلّ ما كان دون الإحسان للوالدين، وبذلك يصيرُ عدم الإحسان إلى الوالدين عقوقاً محرَّماً ولو لم يكن فيه أيّ إساءة بالمعنى المعروف للإساءة.

وهذه صورةٌ من صورِ تشديد الله على حقوقِ الخلق وتسامحه في حقوقهِ عزّ وجَلّ، فلم يُحرِّم في حقّه هنا إلَّا الشِّرك سبحانه وتعالى.

✧ **عتابُ الكريم:**

عندما يعاتب المؤمنُ الحقُّ أو يحاسب من أساءَ إليه، فإنه لا يغادر حلمه وحكمته، حيث يكتفي ببعض الذّنوب ويتجاهل الأخرى، ولهذا قال الله عن رسوله(ﷺ): ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣]، ذلك أنه أراد إيصال رسالة تأديبٍ لا تأنيب، وقَصد إصلاح الخطأ لا معاقبة من أخطأ.

✧ **تضييق دائرة المُتَّهمين:**

رغم أن أصحاب السامري كانوا مسارعين إلى الشِّرك حينما سمعوا خُوار العجل: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾[طه: ٨٨]، ولاحظوا أنهم الذين قالوا وليس هو من قال، ومع ذلك فإن موسى لم يعاقب غير السامري بالنَّفي من بلدهِ وبالمرض الذي يُحلّل جسده، ثم نسبَ موسى الإله المزعوم إليه وحده { إلهَكَ} ولم ينسبهُ إلى الأتباع، قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]

وفي تقريره لألوهية الله وحده عادَ موسى لمخاطبتهم جميعاً في الآية التالية: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا[طه: ٩٨]؛ لأنَّهم مكلَّفون جميعاً.

وهو درسٌ بليغٌ يُعلّم القادة كيف ينبغي أن يُضيِّقوا الدَّائرة على أقلّ عدد من العصاة، وهم القادة الذين مارسوا الغِواية وتسببوا في صناعةِ الخطيئة.

✧ تَرْشيح الأهلية:

جاءَت الآية الوحيدة في شأن قيام الشخص بعرض كفاءته ضمن قصَّة نبي الله يوسف، وهو الذي عدَّه الرواة أجمل بني آدم خَلْقاً حتى أن النساء عندما رأينه قطّعنَ أيديَهن من شدةِ الانبهار بجماله، وهو بجانبِ ذلك ذو نسبٍ رفيع، فأبوه يعقوب نبيّ وجَدُّه إسحاق نبيّ وجدُّ أبيه الخليل إبراهيم نبيّ.

لقد أراد القرآن بذلك أن يُعلّمنا درساً لا يُنسى فيما ينبغي أن يُزكّي به المرءُ ذاته، مما يدخل في جهد الذات ويُحقق به النّفع للغَير، فقد قال يوسف لعزيز مصر: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، حيث حصر أهليّته في صفتي الحفظ والعلم، ولم يُشِر إلى الوَسامة والنَّسَب ولو من طرفٍ خفيّ وهو الأشدّ وسَامةً والأعرق نسَباً.

ويُعدّ ترشيحه لذاته صورة من صورِ الشّعور بالمسؤولية نحو الآخرين، فقد جنَّبهم مجاعةَ سبع سنين عجافاً، وليس فيه أيّ افتخار بنفسهِ فقد أرادَ تطويع قدراتهِ لخدمة الآخرين لا تطويع الآخرين لخدمته، ولم يجعل من مميزاته الذاتية أداةً للحصول على أيّ امتيازاتٍ خاصة.

❋ ❋ ❋

أشْوَاقُ الشورى

✧ **المشاورة الواجبة:**

إن أهم نَصٍّ قرآنيٍّ حول الشورى هو قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، وهو يوجب الشورى ابتداءً وانتهاءً.

ويؤكد تَدبّر الآية وظروف تَنزّلها هذه الحقيقة على النَّحو الآتي:

١. صيغة الأمر الحاسم والذي يقتضي الوجوب لعدمِ وجود صارف يصرفه إلى الندب أو الجواز.

٢. توجُّه الأمر للرسول (صلَّى الله عليه وسلَّم) وهو المعصومُ في شؤونِ البلاغ والبيان، والعبقريّ الكامل في شؤونِ الفكرِ والسياسة والإدارة، فكيف بغيره؟!

٣. تَقدُّم التطبيق المُحمديّ لها في أُحُد كتجسيدٍ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ التي نزلت في مكّة، قبل الأمر بها في المدينة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ حيث شاورَ أصحابه في أمرِ الخروج من المدينة أو القتال فيها، ومع أنّه كان يرى البقاء في المدينة مع عددٍ من كبار الصَّحابة، فقد خرج استجابةً لرأي الغالبيّة مما يؤكّد إلزاميتها، فكيف يكون الوجوب بعد نزول هذه الآية؟

٤. نزول الأمر بها على أثرِ هزيمة أُحُد التي وقعت بعد مشاورة، والتزام الرّسول برأي الغالبيَّة رغم مخالفتها لقناعته، وانشقاق عبد الله بن أُبيّ بثلثِ الجيش بحجةِ أنَّ الرَّسول (صلَّى الله عليه وسلَّم) لم يستجب لرأي واستمع لرأي الغلمان.

ولأن البعض قد يُحمِّل الشورى مسؤوليّة الهزيمة، أو يدعو لعدمِ الالتزام برأي الأكثريَّة، فقد جاءَ التأكيد بالأمرِ الحاسم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾، وبتأكيدِ عدم التردّد أو

التّراجع بعد الاستشارة واتِّضاح رأي الأغلبيَّة، حيث قال في نفس الآية: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٥. مجيء الأمر بالشُّورى ضمن عدد من العوامل اللَّازمة لائتلاف المجتمع، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ...﴾ ومن المؤكّد أن الأخذ برأي الأكثريَّة من أهمِّ عوامل وحدة المُجتمع وصلابته، ولأن الوحدة فريضة واجبة فإن ما لا يتحقّق الواجب إلَّا به فهو واجب.

٦. مجيء الشورى في سياقٍ لَفْت الأنظار إلى أسباب الهزيمة وعوامل النَّصر، ولهذا قرّرت الآية التي بعدها قاعدة: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، بما يؤكّد ضرورة الشورى لتحقيق النصر.

٧. ورود الأمر بمشاورة أصحابه ومنهم من عصَوْه، كالرُّماة الذين غادروا أماكنهم، قال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، فكيف بمشاورة من لم يغادروا ثغور الطَّاعات ولم يَسقُطوا في مَهاوي المعاصي؟!

✧ **العزيمةُ ابْنةُ الشورى:**

إن الاستشارة الإنسانية والمَقرونة بالاستخارة الرحمانيَّة، لا توصل أصحابها إلَّا إلى خير؛ ولذلك يأتي بعدها العزم والحَسم، فإن الارتياب يَفُتّ في عضدِ العزم، والتردّد ينالُ من قوة الحَسم، مما يؤدّي إلى تآكل الفاعليَّة، ولهذا قال الله لنبيه محمد: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لقد استشار النبيّ صحابته في أمرِ البقاء في المدينة أو الخروج لمقاتلة المشركين يوم أُحُد، ولأن رأي الأكثرية كان مع الخروج فقد لبس عُدّة الحرب ثم خرجَ وكانت الكراهة بادية على وجهه، حيث كان يرى أن البقاءَ في المدينةِ أفضل من أجل إشراك الأطفال والنِّساء وجغرافيا المدينة في خططِ القتال، لتعديلِ موازين القوَّة التي كانت مُختلّة بشدةٍ لصالحِ المشركين.

وعندما حاول الصَّحابة بعد ذلك إقناعه بالعدولِ عن الخروجِ أبى وأصرّ على الخروج، حتى يُعطيهم درساً في العزيمةِ النَّافذة التي ينبغي أن تتولّد من رحِم الشورى.

✧ **فقْهُ الطوارئ:**

ما يُسمّيه الفقهاء بسدِّ الذَّرائع صار مع كَرِّ اللَّيالي وفَرِّ الأيام فقهاً للطوارئ.

ومن أجل ألَّا يتعامل المسلمون مع فقه الطَّوارئ كفقهٍ طبيعي، فقد أوْمَأَ القرآن الكريم إلى هذا الأمر حينما شرع صلاة الخوف في الحرب، إذ عَقّب في نفس المقام بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[النّساء: ١٠٣]

ولقد طبّق مسلمو ما بعد الصَّحابة الآية بحذافيرها في الصَّلاة وفي بعض امتداداتها ضمن الفقه الفردي، أمّا في الفقهِ السياسيّ فقد بدأ فقهُ الطَّوارئ يعمل في الظُّروف العاديَّة، حتى صارَ الاستثناءُ أصلاً والأصلُ استثناء!

وصار فقه الطَّوارئ في العصور التالية أحد العوامل التي أضعفت الفكر السياسيّ الإسلاميّ، وحالت دون تَجدّده وتَوهّجه، ومن ذلك إجازةُ إمارة المُتغلب، وطاعةُ الحاكمِ الظَّالم وإن جَلَد الظُّهور وفعل الأفاعيل.

وصنع هذا الأمر تداعيات سلبيَّة دفعت أكثر الحكَّام إلى التَّفرْعُن والطُّغيان، حتى زعمَ بعضُهم أنه ظلُّ الله في الأرض، وأنه صوتُه القاطع في آذانِ الرّعيّة وسَوْطُه المُسلّط على أبْشارهم، ثم إنه زادَ الشعوبَ انبطاحاً أمام الظّلم ورضوخاً للواقعِ السيِّئ، وانحصر الفقهُ الإسلاميّ في البحثِ عن الخلاصِ الفردي، مما أدّى إلى ضمورِ الفقه السياسيّ مقابل تضخّم الفقه الفرديّ الذي كادَ أن يموت من التُّخْمة.

❋❋❋

غوَائلُ الألباب

✧ **الجُنونُ الاختياريّ:**

إن من لا يُعْمل عقلَه وقلبه، ومن يسمح لفيروسات الذُّنوب والخطايا بأن تغشاهما، فقد سمح بأن تُعطّل قدرتهما على العمل وكأنه قد أصبح بدون عقلٍ ولا قلب، حيث لا يسمع الحقّ ولا يرى الحقيقة، ولا يَعي تذكرة ولا يفقهُ حَديثاً، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٧]، وبذلك يتساوى مع الحيوان في انعدامِ البَصيرة ومع الأعمى في انعدامِ البصر.

ويعترف المجرمون يوم القيامة بجنونهم الاختياريّ، كما قال تعالى على ألْسَنتهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، مما يؤكّد أن تعطيلَ العقول يطمسُ طريقَ الحقّ ويتسبَّب بالانزلاق في سُبل الباطل الموصلة إلى السَّعير.

✧ **تَعطيل العَقل:**

إن تعطيل العقل هو أُمُّ الخطايا، إذ مِن رَحِمِه تُولَد الكثير من الذُّنوب، كاتباعِ الآباء على الضَّلالات، ومتابعة الكبراء في الفسق، والانقياد للطُّغاة في الظُّلم.

ويُدرك أصحابُ هذا الجُرم ذنبهم ولكن بعد فوات الأوان، قال تعالى على ألْسنة المجرمين: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلْك: ١٠-١١].

ولاحِظوا كيف وصفوا المشكلة توصيفاً دقيقاً، وكيف غضب الله عليهم وقضى عليهم بالخلود في السَّعير، فهل هناك أدهى من هذه الخطيئة؟!

✧ **ديناميت الشّذوذ:**

لا تفتأ العقول المُنحرفة تَبنّي قواعد على جزئياتٍ استثنائيَّة، وتصنع من المسائل الشاذّة ديناميت لنَسْفِ القواعد الكُلِّية وتجاوُز السُّنَن الثَّابتة.

ومن هؤلاء من يُقلِّل من شأن التَّربية في إصلاح الأولاد، بحجةِ أن ابن نوح كان عملاً غير صالح رغم تربية نوح عليه السَّلام لَه، ومن يُهَوِّن من أهميَّة اختيار المرأة الصَّالحة بحجةِ أن زوجتيّ نوح ولوط كانتا فاسدتين، وهكذا...

✧ **سَيْرُ المُتعَطِّل:**

حينما ينكفئ جهاز وعي الإنسان، فإنه لا يهتدي بالبيّنات ولا يستفيد من الآيات، وقليلاً ما يستثمر السُّنَن أو يَتسلّح بالأسباب، وحينئذٍ يصير سَيْرُه في الأرضِ عشوائيًّا عبثيًّا، فلا يستفيد من خلائبها وآلائها ولا يَتزوّد من عِبَر الحياةِ ودروسها.

وقد عنى الله عزّ وجلّ هذا الصَّنف من الناس بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]

✧ **دُعاة البصائر:**

إن الذين يدعون إلى الله بدون بصيرة العلم وضياء الفقه، إنما يسيرون في الظَّلام ويَرسُمُون على الماء، ولا يمكن أن يكونوا من أتباع محمد (صلَّى الله عليه وسلَّم)، وهذا مفهوم من قول الله لرسوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي...﴾ [يوسف: ١٠٨]، فإن ديدن محمد ومن اتبعه هي الدَّعوة على بصيرةٍ والسَّير على برهان.

ولأن الاتباع يكون مُبصراً بينما يغلب على التّقليد العَمى، فقد أجازَ أكثر العلماء للعامَّة اتباع الأئمة وحرّموا تقليدهم، والفيصل بينهما هو معرفةُ الدَّليل، فمن لم يعرف الدَّليل فقد قلّد، ومن (قَلّد) سقطت (قلادةُ) البصيرة عن عنقه.

✧ **خسائر فقدان المنهج العلميّ:**

من يتدبَّر آيات القرآن ذات الصِّلة بعنواننا سيجدُ أن الذين يَفقدون بوصلة المنهج العلميّ إنّما يَخبطون في الحياةِ خَبْطَ عَشْواء، حيث تُظلِم الدُّنيا عليهم ويَغرَقون في حوالكِ الجهل، فلا يرون باباً نحو الهداية إلَّا اتباع آبائهم ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون سبيلاً.

وإذا سار هؤلاء فإنَّهم يسيرون على أعقابهم، وإذا مَشَوْا فإنهم يَمْشون مُكِبّين على وجوههم، وإذا دعاهم المؤمنون إلى طريقِ الاستقامة أرادوها عِوَجاً.

وبالجملة فإن أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم لا تُغني عنهم شيئاً، حيث يستوون مع الحيوانات غير أنهم يَتفوّقون عليها في خسارةِ المَغانم واكتساب المغارم.

❋ ❋ ❋

مَدَاخِنُ الذُّنوب

✧ **أشْواكُ الفساد:**

يؤكد منطقُ القرآن الكريم بوضوح أن أشواك الفساد التي نبتت في البَرِّ والبحر، حتى صارت وَخَزاتُها داميةً، إنّما غرستها أيدي الناس.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، وما داموا هم من غرسوها فستُدْميهم حتماً، ولن يستأصلها غيرُهم إذْ لن يقوم بذلك سواهم.

✧ **كسْبُ الإرْكاس:**

قرّرتْ الآية ٨٨ من سورة النساء أن سبب الإركاس والانتكاس هو الكسبُ السيء للمنافقين، وهؤلاء لا هدى لهم وفق سنن الله العادلة: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾. وهنا تتكامل مشيئة الإنسان (الكَسب) ومشيئة الله (الإركاس والضَّلال) ضمن المنظومة السببيَّة، فلقد تعرّضوا لأسباب الضَّلال ولا يمكن لأحدٍ هدايتهم سواهم، ولن يهديهم الله خارج قوانين العدل.

✧ **حصادُ الذُّنوب:**

قررّتْ موقعةُ أُحُد جَرْيَ الأحداث وفْقَ النِّظام السُّننيّ، لأنه تجسيد لمشيئة الله ولقدراتِ الإنسان وطاقاته.

ومن هذه السُّنن أن العاملَ المؤثّر في تحقيق الهزيمة هو العاملُ الداخليّ، مهما كان العدوّ قوياً كجيش مشركيّ قريش، ويمتلك قيادةً عسكريةً عبقريةً كخالد بن الوليد، وقيادةً سياسيةً واسعة الدّهاء كأبي سفيان، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

وفي ذات التعقيب القرآني على الهزيمة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ...﴾، وهي إشارةٌ واضحةٌ إلى أن ذنوب الرَّخاء تَظهر آثارُها العَلْقمية في أوقاتِ الشدَّة، حيث تثير غرائز التَّخويف لأصحابها حتى يَفرّون، بينما يتولّى الإيمان القويّ تثبيت أصحابه، فيَمنحهم القوَّة والشَّجاعة، ويَحثُّهم على التَّضحية والإقدام.

ومن أهمّ الذُّنوب في هذا السياق التَّقصير في الإعداد، كعدم التَّدريب الجيد وضعف اللِّياقة، وضعف المهارة في استخدام الأسلحة وقلَّة السِّلاح المناسب، وضعف التَّعبئة المعنويَّة وغياب التَّحريض الإعلاميّ.

✧ **النّجاةُ من الهلاك:**

تتعرّض أمتنا لهلاكٍ محقّق، غير أنّه لا يصل إلى حدِّ الاستئصال لكونها الأمَّة الخاتمة، والعذاب لا يأتي إلا خلْف الذّنوب، ويمكن عَنْوَنةُ الذّنوب بالفسق، كما قال تعالى في بلاغ خَتَم به سورة الأحقاف: ﴿بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥] ذلك أن الفسقَ خروجٌ عن أوامر الله، وتَحللٌ من نواهيه؛ ولذلك وَجَبَ التَّحرّزُ من أسبابِ الفسق حتى تتحقَّق النَّجاة من الهلاك.

✧ **السُّقوط من أُفُق الرُّؤية:**

تَشتدّ على أمّتنا انفجارات التمزّق الداخليّ، وتتناوشها سهامُ العدوّ الخارجي، ورغم الأهوال المُوجِعة والمآسي المُفْجعة إلا أن الكثير من أبنائها لا يُحرِّكون ساكناً، ليس لأنّهم لا يَكْترثون ولكن لأنهم لا يَرون ما يحدث من أهوال، إذ أنَّهم غائبون في غَيَاباتِ الجهل وغَيَاهِبِ الضَّلال.

وفي أمثال هؤلاء قال تعالى لحبيبه محمد (صلَّى الله عليه وسلَّم): ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾، فإن هؤلاء لا يَسمعون ولا يَرون، إذ أنّى لمن دفن نفسه في قبرٍ أن يرى ويَسمع ما يحدث في دنيا الأحياء؟!

بَدائعُ الأَمْوال

✧ **الجزاءُ الدُّنيويّ:**

من عِلَل التديّن التي أَلْقتْ بظلالها الكئيبة على التَّديُّن الإسلاميّ في العصور الأخيرة الانسحاب الأخرويّ، حتى كادَ الإسلام أن يُصبحَ ديناً لاهوتياً ذا جزاءٍ أخرويٍّ بحت.

ففي الإنفاق الماليّ وجدنا في القرآن آياتٍ عديدة من أمثال قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وعندما نقرأ كتب التَّفسير نجدُ أغلبها تتحدَّث عن الجزاءِ الأخرويّ فقط، مع أن من خصائص القرآن عدم الفصل بين الدُّنيا والآخرة، ولذلك قال: ﴿فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ أيّ أن خَيْرَه سيعود على المجتمع برُمّته في الدُّنيا قبل الآخرة، من خلالِ القضاء على الفقرِ وعلى الأحقادِ الطبقيَّة التي تُعَدّ بيئة خصبة للجنوحِ نحو الانحراف وللقضاءِ على الأمنِ والسَّكينة.

إن كلّ مالٍ يُصَبُّ في أعمالِ الخير الاجتماعيَّة لا يعود خيرُه على المنتفعين به ومنه، وإنما على المجتمعِ برُمَّته وعلى رأسهم المُنْفقين الذين يُوَفَّوْن أجورهم دون ظلمٍ في الدُّنيا والآخرة.

✧ **أموالُ المُجتَمع:**

يبدو أن الحضارة الإنسانيَّة كلَّما زادت خبراتها نَمَتْ حِكمتُها، لدرجةِ أنَّها صارت تقتربُ من الإسلامِ في كثيرٍ من الموضوعات.

ففي الجانبِ الماليّ أصبح كثير من الأغنياءِ يُنفقون على الفقراءِ والمساكين وعلى المصالح والخدمات العامَّة، من زاويةِ التنميةِ الاجتماعيَّة، التي تُقوّي لُحمة المجتمع وتشدّ أواصره، والتي تَسُدُّ ثغراتِه وتستنهض طاقاته، وبذلك صارت صورة من صورِ الاستثمارِ غير المباشر.

وفي هذا الشأن تحدّث القرآن عن الأيتام العابثين بأموالهم بسَرَف وسَفَه فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾... [النساء: ٥]، فهي أموالهم التي وَرثوها عن آبائهم ولكنها في المُحصِّلة النّهائيَّة أموال المجتمع التي جعل الله فيها قيامَه وقوامَه، ومن ثمَّ فإن لتصرّفهم بها حدوداً أفقية وسقوفاً رأسيَّة، بحيث لا تَجْلب أي ضررٍ للمجتمع أو تُفوِّت عليه أيّ مصلحة، ولذلك وُجد في الفقه الإسلاميّ بابٌ يُسمّى (الحَجْر على السَّفيه)، سواء كان صغيراً أو كبيراً، وتظلّ تلك الأموال للمجتمع إلى أن يملكَ الأيتام رشدهم.

ولأن الأمر خطيرٌ ومرتبطٌ بقَوَام المجتمع فإنه يجبُ التأكّد من رُشْد اليتامى بالامتحان العملي: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

✧ **تثمير الأموال:**

إن المتأمل في الآيةِ السَّابقة حول أموال الأيتام سيجدُ قيمةً اقتصاديةً أخرى وهي وجوبُ توظيف الأموال واستثمارها، قال تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾[النّساء: ٥]، والأمر هو لأولياءِ اليتامى الذين أوجب عليهم الشَّرع استثمار أموال أوليائهم والإنفاق عليهم من رَيْعها لا من رأسها، حيث قال: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ ولم يقل منها، في إشارةٍ إلى عدم جواز تجميدِ رأس المال واستهلاكه بالإنفاق منه، ومن ثم فإن توظيف الأموالَ واستثمارها قيمةٌ اقتصاديّةٌ مهمَّة للمجتمع، لأنّه سيؤدّي إلى تشغيلِ ملايين العاطلين في العالمِ الإسلاميّ، لتحصدَ الأمّة مكاسب أعمالهم

وأرباحهم، وتتجنَّب مفاسد بطالتهم وأضرار عطالتهم في ما لو ظلَّت الأموال مكنوزة ومحبوسة.

✧ **إزالة:**

عندما نُزيل المسافة القائمة اليوم بين صاحب الخَلْق وصاحب الأمر ستُحَلّ معظم مشاكلنا، فما زال كثير من منتسبي الإسلام يعترفون بأن الله الخالق الرازق والمحيي المميت، لكنهم ينصرفون بأمورهم إلى غيره في كثير من الأحيان، مع أنه القائل سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ويبدو أن المال عند المسلمين أبعد مجالات الحياة عن تعاليم الإسلام، سواء كانوا حكَّاماً أو محكومين، حيث يُقرّون بأن الله هو الرزاقُ وصاحَب الحكم، لكنَّهم لا يلتزمون بتعاليمهِ في كثيرٍ من جوانب إدخال المال وإخراجه، ولا في طرائقِ تنميتهِ واستثماره.

❋ ❋ ❋

جامعةُ الدّواب

✧ **الاستفادة من الأصغر:**

المؤمن الحقّ كامل العقل، وافرُ الفطنة، ولكمالِ عقله فإنه يُدرك أن ملَكَاته ضعيفة وقدراته محدودة، وأنه لا بدَّ له من التَّعلم من سائرِ الكائنات والاستفادة من عِبَرِ الدّواب، ولو كانت كائنات أصغر وأحقر منه.

فها هو أحد عظماء البشر ومن جمع الله له بين المُلك والنبوَّة، بل وأعطاه الله مُلكاً منقطع النَّظير، يتعرّف على واحدةٍ من أعظم ممالك الأرض في عصرهِ على يدِ طائر الهُدْهد، بل ويتَّخذ منه بريداً يوصل من خلاَلهِ هداية الله إلى تلك المملكة.

وعندما مات لم يَدلّ الجِنّ والإنس على موتهِ إلا دابّةُ الأرض التي أكلتْ مِنْسأتَه حتى خرَّ على الأرض!

وتَعلّم ابنُ آدم الأوَّل من الغرابِ كيف يواري سَوْأةَ أخيه!

وظلَّت النَّمْلُ والنَّحلُ مَنْجَمَين غنيين بقيمِ العمل والنَّشاط وبمفردات النِّظام والانسجام!

وصارت العناكب درساً سلبياً في العشوائيةِ والتَّخبُّط والتآكل لكلّ بني الإنسان!

✧ **الاستفادة من الأنعام:**

إن استفادة المسلم من الأنعام وسائر الدّواب ذات شقَّين:

- الاستهداء الروحيّ والاعتبار العقليّ، وذلك من نقاط قوّتها ونقاط ضَعفها، من طبائعها وسلوكيّاتها.
- الاستنفاع الماديّ في مجالاتِ الغِذاء والدَّواء، الثِّياب والأثاث، الحَمْل والرُّكوب.

ولأن الاستهداء أهمّ لارتباطهِ بالسَّعادة الدنيويَّة والفوز الأخرويّ فقد قدّم العبرة على المنفعةِ في الذِّكر، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:٢١] ونلاحظ أنه أفرد الثِّمار المعنويَّة، لأنها تَصُبُّ في تأكيد ذات الحقيقة وهي ربوبيَّة الله الحقَّة، كما عبَّر عنها عزّ وجَلّ في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

أمَّا المنافع فهي كثيرةٌ كما أسلفنا في الإشارةِ إليها ولذلك جاء بها بصيغةِ الجمع.

✧ **فاعليَّة العسل:**

من يَتمعَّن في الآية ٦٩ من سورةِ النحل، سيدرك أن للعسلِ فاعليَّة كبيرة كغذاءٍ ودواء، ويمكن إعادة تلك الفاعلية إلى:

▪أكل النَّحل من كلّ الثمار، حيث تجتمع في غذائها سائر المنافع﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ولا توجد حشرةٌ أو دابّةٌ أخرى تتغذَّى من كلِّ الثِّمار.

▪التَّسخير الرّبانيّ وامتلاك النَّحل للمواهبِ الطَّبيعية المميّزة والمُشار إليها بقولهِ تعالى: ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾.

▪اجتماع الرَّحيق وامتزاجه في بطون التقدير الإلهي والمواهب النحلاوية: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾.

▪تَعدُّدُ الأوصاف والمنافع: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾، إذ مع الفائدة العامّة في تقوية جهاز المناعة، فإن الفوائد الجانبيّة تتعدّدُ بتعددِ الثِّمار في المُدخلات وألوان العسل في المخرجات.

وإذا كان العلم والواقع يثبّتان أن العسلَ أقوى غذاء ودواء، لدورهِ في تقويةِ جهاز المناعة الذي يُنمّي خلايا الجسم ويقوّي أعضاءه ويُنشِّط وظائفه فإن الآية صريحة في أنه: ﴿شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، وهناك إشارة خفيّة وهي الفعل: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ

بُطُونِهَا﴾، كأنه يسير بذاته، إذ كان يمكن القول: ﴿يَخْرُجُ ... ﴾ برفع الياء لولا هذا السرّ الربانيّ في هذا العسل!

✧ **حكمةُ الحَرير:**

الحكمة ليست اللِّين والنُّعومة دائماً، بل هي وضع الشيء في محلِّه تماماً، بما يحقّق المقصود على أكملِ وجه.

ولقد علَّمنا القرآنُ أن الكمالَ والجمال لا يتحقّقان إلَّا بذلك المَزج بين النُّعومة والخُشونة.

ألم يجعل لبس المؤمنين في الجنّة من سندسٍ وإستبرق؟

فإن الجمال لا يكتمل إلَّا بهذا الجَمع بين الحريرِ النَّاعم (السندس) والحرير الغليظ (الاستبرق)!

فكيف بنعيمِ الدُّنيا وابتلاءاتها؟

لا شكّ أن المقاصد لا تتحقَّق إلا بالمَزْج بين اللِّين والشدَّة، بين النُّعومة والغِلظة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ولم يقل ادفع بالحَسنة، فقد يكون الدَّفع بالسيئة أحسن في بعض الظُّروف أو مع بعض الناس.

❋ ❋ ❋

فِتَنُ التَّخلُّفِ

✧ **افتتان الكافرين بالمسلمين:**

إن عدم التزام المُسلم بدينهِ الحقّ، وانحرافهِ عن تعاليمه السَّامية، واقترافه لصُوَر شوهاء من التديُّن الأعمى أو الأعور، قد يكون فتنةً للظَّالمين أو الكافرين، حيث يقيسون الإسلام على سلوكيَّات المسلمين، وحينئذٍ سيظلمون الإسلام ظلماً مبيناً، معتقدين أن ما رأوه من سلوكياتٍ مُنحرفة هو الإسلام ذاته.

وكان موسى عليه السَّلام قد دعا قومهُ إلى البرهنةِ على إيمانهم إن كانوا مسلمين كما في الآية ٨٤ من سورة يونس، وكان ردّهم عليه هو: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]، حيث تَوكّلوا على الله في التزامهم بدينه، طالبين عَونه، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ودعوا ربهم ألَّا يجعلهم فتنةً للذين كفروا بضلالِ تصوّراتهم وسوء سلوكيَّاته التي تُنفِّر الناس عن الإسلام.

ومما يؤيّد أن الفتنة هنا بهذا المعنى، وليست بمعنى قيام الكافرين باستخدام قوَّتهم في إجبارهم على التفلُّت من دينهم، أن الآية التي جاءَت بعدها وردت بهذا المعنى الأخير: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[يونس: ٨٦]، ممَّا يؤكد أن المعنى مغايرٌ للمعنى السابق.

✧ **بُؤسُ العبيد:**

من أهمّ المصاعب التي يواجهها دُعاة الإسلام في الغرب، انحرافُ المسلمين عن الإسلام بحيث صار فتنةً للغربيين، واتساع ظاهرة التبعيَّة في أوساطِ المسلمين

للغرب وثقافته بصورةٍ تقترب من العبوديَّة ولا سيما في أوساطِ الحكَّام والنُّخَب العلمانيَّة.

وقد أشارَ القرآن إلى دورِ هذا العامل في تنفير المصريين من الإيمان بموسى وهارون، حيث قال تعالى على ألْسنتهم: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[المؤمنون: ٤٧].

✧ **متاهة الانفصام:**

كلَّما كانت المسافة كبيرة بين أقوال المسلمين وأفعالهم، ضمّتْ أعداداً أكبر من التَّائهين الذين يبحثون عن هداية، فلا يَظنّونها موجودةً في هذا الدِّين نتيجة سلوكيَّات أبنائه، ومن ثمَّ يصير المنفصمون أسباب غِواية لا دُعاة هِداية، ولذلك كَبُرَ مقْتُهم عند الله، لأنهم ساهموا في تشويهِ رسالته وتضليلِ عباده، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الحشر: ٢]

ونلاحظ شدَّة النَّكير في ثنايا الآية كلّها حتَّى في الفاصلة، حيث قال تفعلون ولم يقل تعملون، ذلك أن الفعل يكون بغيرِ قصدٍ ويكون قصير الزَّمن بعكسِ العمل الذي يتمُّ عن قصدٍ ويستغرق وقتاً طويلاً، وفي هذا تشديد على حرمةِ الانفصام في أيّ مجالٍ وفي أيّ ظرف، ما عدا حالة الإكراه بالطَّبع.

✧ **سُلطان التقدّم والتَّخلُّف:**

كان الكفَّار القدامى يجادلون في آياتِ الله بغيرِ سُلطان أتاهم، كما وصفهم القرآن: [غافر: ٣٥]، لكن كفَّار هذا الزمن صاروا يجادلون في آياتِ الله بسلطانِ تَقدُّمِهم العلميّ وسطْوةِ تَفوُّقِهم الحضاريّ مقابل تَخلّف المسلمين وابتعادهم عن قيم الإسلام الرَّاقية، حتَّى أن قوَّة حضورهم الثَّقافيّ والإعلاميّ أبرزت المسلمين كحُجّةٍ على الإسلام، حتى اسْتقرّ في وعْي كثيرٍ من الناس أن الإسلامَ هو ما يَتجسّد

في دنيا المسلمين من تَخلّفٍ صادمٍ وتمَزّقٍ مَقيت، ومن انحطاطٍ عميمٍ وضَعفٍ شامل.

✧ **المؤامرة بين التَّهْويل والتَّهوين:**

يعتقد كثير من المسلمين أن الغربَ يُدبِّج المؤامرات ضدّ المسلمين، ويُفسر هؤلاء كلّ شيء بنظريةِ المؤامرة، وبدون شعور فإنّهم يجعلون للغربِ قدراتٍ هائلة، ثم إنّهم يساوون بين جميع الغربيين في الحربِ والتآمر.

وفي المقابل هناك مجاميع تُنكر نظرية المؤامرة بتاتاً، فتُبرِّئ الغربيين من كلّ مسؤولية مُضْفَيةً عليهم صفات الكمال، وتعتبر أن كلّ ما يَحيق بالمسلمين من مآسٍ إنما هي جنايةُ أيديهم، ولا ذنب لأحَدٍ سواهم.

وككل موضوعات الخلاف بين المسلمين هناك بُعدٌ عن الرؤيةِ القرآنيَّة، ولو قرأنا القرآن بقليلٍ من التَّدبر ما وَقَعْنا في هذا الشَّطَط، سواء الذين يُبرِّئون الغرب أو الذين يُدينونه.

فقد فَرَّقت عشرات الآيات بين فئات اليهود مع أنهم بنَصّ القرآن أشدُّ عداوةً للذين آمنوا، حيث قال عنهم: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾، وردّدَ مراراً: منهم ومنهم، وفرّق بين المُصلحين والمُفسدين، وميَّز المقسطين عن القاسطين، فكيف بالغربِ النصرانيّ الذي يتكوَّن من منظومةٍ ضخمةٍ ومعقدةٍ يستحيل اختزالها في موقفٍ واحد، سواء كان معادياً أو متعاوناً؟!

وحَصَر القرآنُ العداوة والتآمر في طائفةٍ من أهل الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ..﴾ [آل عمران: ٦٩]، فلماذا نجعلهم متآمرين جميعاً أو نمنح سائرَهم شهادةَ العدالة وصَكَّ البَراءة؟!

❋ ❋ ❋

مدَارجُ العُروج

✧ **ذاتيَّةُ الهِداية:**

من اهتدى فإنَّما يهتدي لنفسه، ومن ثم لا بدَّ أن يهتدي بنفسه، بمعنى أن يحرصَ على البحث عن الحقيقة واتباع الحق، لأن كل قوى الأرض لا تستطيع هدايته إن لم يمتلك إرادة الهداية، وإن لم يَطرق أبواب الحقّ ويتعلّق بأهداب الحقيقة، فالهداية تنبعث من داخل الذَّات ولا تأتي من خارجها، ولذلك قال الله لرسوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

✧ **الاتِّكال على الله وحده:**

عندما رأى أبناء يعقوب شَغَفَ أبيهم بيوسف أضمروا له الشر، ثم شعروا بتوجُّس أبيهم منهم فتعهدوا له قائلين: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[يوسف: ١٢] ورغم العهد المؤكَّد كما في النصّ، لم يحفظوه، لأن أباهم رَكَن إليهم واطمأنّ لعهدهم.

وعندما طلب يوسف أن يأتوه بشقيقه، كرّروا نفس المقولة لأبيهم:﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]، لكن الوالد استفادَ من الدَّرس السَّابق، وجعل كل ركونه على الله: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، فكان الله خيرُ حافظ، إذ أعادَ إليه هذا الولد سالماً غانماً، بل وجاءهُ بالطَّعام وبقميصِ يوسف الذي كان سبباً في عودة بصره.

✧ **بصيرة الاعتبار:**

في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ إشارة الى أن العِبرة شمعة يستضيئ بها المُعتبِر في المساحات المُظلمة من حياته.

وكيف لا يستضيئ المؤمن بشموعِ العِبَر وهو يدعو الله في كلّ ركعةٍ قائلاً: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؟!

ولا شكَّ أن الاعتبار وسيلة من وسائلِ الهداية، وأن تَرْكها مَدْعاة للوقوع في أحابيل الغواية!

✧ **السؤال الدُّعائي:**

في ثقافة الطُّموح يحتلّ السؤال الدُّعائي مكانةً بالغةً الأهمية، ولقد قدَّم لنا القرآن درساً بهذا الشأن في قصَّة موسى عليه السَّلام، حيث تَدرّج في الترقّي حتى وصل إلى سدرةِ المنتهى الرسالية بشقّيها السماويّ والأرضي، حيث صار كليم الله الذي تنزلت عليه التَّوراة، وصارَ رسول الحريَّة الذي قارعَ أجرم طغاة الأرض.

وعندما نجح في هذا وذاك وذهب يُكلّم الله طمعَ في أعظم من ذلك وهو رؤيةُ الله، حيث سأل الله قائلاً: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾.

✧ **إصلاح الصَّلاة:**

إن إقامة الصَّلاة بشروطها وأركانها وآدابها الظَّاهرة والباطنة أو الماديَّة والمعنويَّة، مع التَّمسّك بهدايات الكتاب، لا بدَّ أن تؤدّي إلى إيجادِ الشخصِ المُصلح الذي لا يَقنَع بصلاحهِ بل يَطمع بصلاحِ الآخرين، فينطلق إلى الإصلاحِ بكلّ ما يملك من جوانح وجوارح.

ولقد قرر القرآن هذه الحقيقة باقتضاب لا ينتبه له إلَّا المتدبّر، عندما قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾

[الأعراف: ١٧٠]، فقد أطلقت فاصلة الآية على المتمسكين بالكتاب ومقيمي الصلاة مصطلح المصلحين.

✧ **زاد الصَّلاة:**

التقوى هي النفخةُ الروحيَّة الثانية للمؤمن، ويختارها هنا بإرادتهِ بعكس النفخة الأولى، غير أن طاقة التَّقوى التي تُعين الإنسان على الترقّي العقليّ والأخلاقيّ والعمليّ، لها محطاتٌ عديدة وأهمّها الصَّلاة.

وما لم يَنتبه المستقبِلُ مع المُرسِل، وما لم يتذكَّر جلال الله فيتروَّع ويتذكر جماله فيتلوَّع، فإنه لن يستفيد من الصَّلاة شيئاً، ولهذا جاء أمر الله الحاسم: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[طه: ١٤]، فإن من تَذكَّر الله في محرابِ الصَّلاة تَذكَّره في محرابِ الحياة، وحال دون وقوعه في المَنْهيات أو سقوطه في المنكرات، ومن نسيَ الله نساه وأوْكَله إلى نفسهِ الأمَّارة بالسوءِ وتَرَكه لِهَواه فسار به في حوالك الظّلمات.

✧ **معرفةُ الذَّات لا تَزْكيتها:**

بين معرفة قَدْر الذَّات وتزكيتها خيطٌ رفيعٌ لا يراه إلا المتدبّرون، فقد قال تعالى لعموم الناس: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

والتَّزكية المنهيّ عنها هي الإشادةُ بصلاح القلب وقوَّة العلاقة بالله، ممّا لا يمكن قياسه ويدخل ضمن عالم الغيب أو مما لا يَدخل في التعبُّد كالنَّسَبِ والمالِ والجمال.

أمَّا في الأمورِ التي يُمكن قياسها من مسائل التَّعبُّد، فينبغي أن يَعْرفَ المسلم قدراته كما هي بدون تهويلٍ أو تهوين ويُعرِّف بها حسب الحاجة، حتى يوضع في المكان الذي يُبدع من خلالهِ في خدمةِ مجتمعه.

وهذا ما فقهه يوسف عليه السَّلام عندما قال لعزيز مصر: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥].

نِسبِيَّةُ الأشياء

✧ **نسبيّةُ العاصفة:**

تُبنى الظَّواهرُ الكونيَّة على قوانين يمكن للإنسان فهمها والتَّعامل الإيجابيّ معها، من أجل استبعاد أضرارها واستجلاب منافعها.

غير أن تلك القوانين لا تمتلك فاعليَّة ذاتيَّة بعيدة عن مالكِ هذا الكون، ولذلك وجدنا النسبيَّة حاضرةً في كلّ شيء.

وعلى سبيل المثال فإن العاصفة رياحٌ قويّة تُدمّر ما تجده أمامها، وتعصف بكلّ شيء في طريقها، وتثير البحار حتى تتلاطم أمواجُها.

لكنّها بأمرِ الله تَحوَّلت من أداةِ تدميرٍ وإفسادٍ إلى أداةِ بناءٍ وإصلاح، حينما سخّرها الله لسليمان عليه السَّلام، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، وما دامت قد جرت بأمرِ الله إلى أرضِ البركة في بلادِ الشام، فمن المؤكد أن منافعها كانت كثيرة.

✧ **نسبيَّة الكنوز:**

الأصل في الإسلام أن يتحرَّك المال بين الناس ولا يجوز كَنزه، وعاقبة الكانز أوضحتها الآيتان ٣٤ و٣٥ من سورةِ التوبة وهي العذابُ الأليم، حيث تستحيل المكنوزات إلى قِطَع من نارٍ تُكْوى بها جباهُ وجُنوبُ وظُهورُ الكانزين:

- الجِباهُ التي شَمَخت تيهاً وغروراً أمام المعدمين.
- والجُنُوب التي الْتَصَقتْ بها الجيوبُ المُنتفخة بالأموال والممتنعة على أصحاب الفاقة.

- والظُّهور التي ملأت أنفس الفقراء والمساكين بالمَرارة عندما كان أصحابها يُوَلُّون معرضين كأنهم حُمُرٌ مستنفرة.

وأمَّا من اكتسبَ ماله من الحلال وأخْرَج ما عليه من الحقوق، وكان صالحاً في استعماره للأرض وفي معاملته للخَلْق، فإن الله يتولّى حفظ أمواله وأولاده مهما قست عليه الأيام، كما في قصّة موسى والخضر عليهما السلام [الكهف: ٨٢].

✧ **بين الزِّينة والفِتنة:**

الدّنيا زينةٌ مُبهجة، وكل ما فيها من طيبات ولا سيما الأموال والأولاد هي زينةٌ ينبغي أن يَتزيّن بها المؤمن دون إسراف، حتى تجعل حياته زاهية بدون كِبرٍ أو غرور.

وتتحوّل الزينة إلى مصيبةٍ عندما تتفلّت من الأيدي وتتغلغل في القلوب، حيث تستحيلُ من زينةٍ إلى فتنة؛ ولذلك حذّر القرآن من ذلك فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وهكذا، فإن عدم الانزلاق من الزّينة إلى الفتنةِ يحتاجُ إلى بوصلةٍ سديدة وكوابح شديدة، ولا تتأتى إلا لأصحابِ العلمِ الدقيق والفقهِ الرشيد، ولذلك افتتحت الآية بالأمر: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ ...﴾.

✧ **فتنة الأموال والأولاد:**

يُبرز القرآن حقيقةً فطريةً وهي أن الأموال والأولاد زينةُ الحياةِ الدنيا، ولكن هذه الزِّينة قد تصبح فتنةً عندما تَدْلُف إلى جوانح الإنسان وتحتل شِغافَ قلبِه، إذ ستدفعه آنذاك إلى كُفرانِ تعاليم السماء وخيانة حقوق الإنسان.

نستنبط هذا المعنى من ربطِ القرآن بين الفتنةِ والخيانة في الآيتين: ٢٧، ٢٨ من سورة الأنفال. ولخطورة الافتتان بالأموالِ والأولاد فقد دعا الله للعلمِ بهذه الحقيقة

بقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ ...﴾، بينما ورد الحديث عن كونها زينة بأسلوبٍ إخباريٍّ كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ...﴾.

ونلاحظ هنا أن النصّ القرآنيّ يراعي التَّرتيب، حيث قدّم الأموال على الأولاد، لأنَّها أشدّ فتنةً وحُبّها ألصقَ بفطرةِ الناس، إذ يستطيع أن يصنعَ بها المرء ما لا يستطيع فعله بالأولاد، ثم إن الأموال طيِّعَةٌ بينما الأولاد قد يعترضون وقد يَعصون والدهم ويصبحون أعداء له.

✧ **حُرمة الاستمتاع القلبيّ:**

لقد أنكر الله تعالى على من حرّم زينةَ الله والطّيباتِ من الرزق، والمؤمن الحقُّ يدركُ أنه يعبد الله عبر استمتاعهِ بالطَّيبات مثل غيره، ويكمن الفرق في محلِ الاستمتاع، فمُتعَةُ المؤمن في الجوارح لا في الجوانح؛ حيث لا يسمح للدُّنيا وأعراضها بالتسلّل إلى داخله، بعكس غيره.

ولهذا يقال للكافرين ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠] أي استَمْتَعتْ قلوبُكم بها ممَّا دفعكم للاستكبارِ والفسق.

وما يزال المرء يستمرئ حُبّ الدّنيا ويُمكِّنها من قلبه، حتى يقترفَ الموبقات ويُعاقر الكبائر، وقد لا يَجِد المُتعة إلَّا في الحرام ولا يَشعر باللَّذة إلَّا في المعصية، كما كان الشاعر المنحلّ أبو نواس يقول عن الخمرة:

ألا فاسْقِني خمْراً وقلْ لي هي الخمرُ ولا تَسْقِني سراً إذا أمْكَن الجَهْرُ

وكالذين يَترُكون الفُروج ويذهبون للأدبارِ أو يتركون الإناث ويذهبون للذكور! عوذاً بالله من تنكّب الصِّراط المستقيم.

نسبِيَّةُ الأفْعال

✧ **نسبيةُ المصطلحات:**

إن التَّشابه في العناوين لا يقتضي التَّشابه في المَضامين، فربَّما كان بينهما ما بين المشرق والمغرب من مسافة.

وكمثالٍ على ذلك تحدّث القرآن عن أن المتقينَ يُساقون إلى الجنةِ زُمَراً [الزُّمَر: ٧٣]، وتحدَّث عن أن الكافرين يُساقون أيضاً إلى جهنم زُمَراً [الزُّمَر: ٧١].

غير أن السَّوْق يختلف في الحالتين تماماً، وإذا جمعنا الآيات ذات الصِّلة بمشهدِ السَّوْق إلى أرض الحسابِ يوم القيامة، ومن بعدها إلى الجزاء الخالد في الجنةِ أو في النَّار، فإن القرآن يستخدم مع المؤمنين مصطلحَ البعث ومع الكافرين مصطلحَ الحشر، وكل مصطلح يتضمّن هيئة سَوْقٍ مختلفة، فإن زُمَر البعث تَحظى بصنوفِ الحفاوة والتَّكريم، وضمن مواكب تحملُ معاني التَّعظيم والتَّكريم وتظهر عليها علاماتُ الأُبَّهة والفَخامة، أمَّا زُمَر الحَشْر فتُكوّم فوق بعضها كالحيوانات، وتنزل عليها الإهانة والتأنيب وتُعامَل بالضّرْب والسّحْب.

✧ **نسبيّةُ الجُرْم:**

سوّى الإسلام بين الذُّكور والإناث في الحقوقِ والواجبات وفي الثَّواب والعقاب، ولكن هناك بعض الاختلافات في التَّفاصيل أو في الجزئيَّات المختلفة التي يستدعيها الواقع.

وكمثالٍ على ذلك قدّم القرآن السارق بالذِّكْر على السارقة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾، بينما قدَّم الزانيةَ على الزاني: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾.

وفي تعليل هذا الاختلاف ذهب بعض المفسرين إلى أن المرأة هي من تدعو الرجل للزنا غالباً، وهذا غير صحيح فالواقع يؤكّد أن الرجلَ هو من يُبادر في الأغلبِ من حوادث الزنا.

ويبدو أن العِلّة هي فداحةُ الجُرم ومراعاة الواقع، فالزنا قبيحٌ من الرّجُل لكنّه أقبح من المرأة، نتيجة أن الله حصّنها بأسوارٍ أقوى من أسوارِ الرَّجل كالحياءِ والحجاب، ثم إن المجتمعات تستقبح هذا الفعلَ الشَّنيع من المرأة أكثر من الرَّجل، بجانبِ أن الزنا سيلوث المرأة أكثر لأنّها قد تَحْمل.

والعكس صحيح بالنسبةِ للسرقة فإن الله خشّن الرّجل لتحمّل مشاق العمل وأعدّه لطلبِ الرزق أكثر من المرأة، فإذا ترك العمل وذهب إلى السَّرقة فإنه قد ارتكب جريمة أبشع من جريمةِ المرأة حتى في عُرْف البشر، ولهذا قدّم القرآن ما هو أشدّ قُبحاً وأكثر استنكاراً.

✧ **نسبيّة النساء:**

المرأة مثل الرجل من حيث أنها ليست شراً مَحْضاً ولا خيراً خالصاً، فهي كتلةٌ نسبيةٌ معقّدة فيها الخير والشر، الوفاء والغَدر، الصَّلاح والفَساد.

وتنطبق هذه النسبيَّة على نساءِ كلّ الشعوب، ولو ضربنا المثل بالمرأة المصرية من خلال مشكاة القرآن الكريم، لوجدنا أنّها ليست امرأة العزيز، تلك المرأة الفاسدة التي راودت يوسفَ عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هَيْت لك، وليست امرأة فرعون تلك السَّامقة بإيمانها والمُستعلية على حياةِ الرَّفاهية والقصور، والتي ارتقت إلى ذرى الإيمان طالبةً جوار الله قبل جنان الفردوس.

لكن المرأة المصرية هي هذه وتلك وما بينهما من نساء ذوات مستوياتٍ أخلاقيَّة مُتباينة، وما يحملنه من نسبيةٍ في الشرفِ والعَفاف أو في الانحلال والانحطاط.

وتنطبق هذه النسبيَّة على نساءِ سائر شعوب الأرض، مع فوارق ذات صلةٍ بالدِّينِ والثَّقافة والمناخ والمعيشة.

✧ **عطاءُ المُصيبة:**

مع أن المصيبة ضرَرٌ مؤكّد على الإنسان، فإنّها عند المؤمن عَطِيّةٌ ومِنحة، قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، وتأملوا كلمة (لنا) جيداً فإن سياق المصيبة يستدعي استخدام كلمة (علينا)، غير أن (لنا) تشير إلى أن المصيبة تَصُبُّ لصالحِ المؤمن الحقّ، نظراً لمآلاتها الحَسنة وعواقبها الطَّيبة، حيث تُكسبه أجر الصَّبر، وتوقظه من سُباتِ الغفلة، وتدفعه لمراجعةِ المسيرة، فيصحّح الأخطاء ويُقوِّم الاعوجاج، ليستأنف المسيرَ بعزيمةٍ أكبر وخبرةٍ أوفر.

وإذا جاءت المصيبة على يدِ عدوٍّ فإنَّها تَستفزّ عند المؤمنين طاقة التحدّي، وتستثير عوامل التّوحُّد، وتدفعهم نحو امتلاكِ أزِمّة القوَّة وإعداد مقاليد المَنَعة.

وعلى العموم فإن المصيبة تؤدِّي إلى مراجعة قضيَّة التوكل على الله، سواء في وَجْهها السببيّ أو وجْهها الإيماني، مما يؤدّي إلى جَبْر الكَسْر واستكمال النّقْص، وهذا ما حَثث عليه خاتمةُ الآية.

✧ **نسبيةُ الدعاء:**

ينبغي أن يدعو المسلم وفْقَ ظروفه وحاجاته، وبحسب مستواه الإيمانيّ وتَطلّعه الرّباني، فقد دعا موسى عليه السَّلام يوم كان طريداً شريداً فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وعندما ارتفع مستواه الإيماني وصار كليمَ الله، دعا ربّه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾.

❋ ❋ ❋

عظائمُ الفُرْقان

✧**التَّنفير من القرآن:**

يلجأ أعداءُ القرآن في التنفير منه إلى(استراتيجيّة) سجّلها القرآن على ألسنتهم، وهي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وفي هذا العصر قام كثيرٌ من المسلمين بهذهِ المهمّة، عَبْرَ أفكارهم العَوراء وممارساتهم العَرجاء، حيث تَقوَّلوا على الله بغيرِ علم، ورسموا بأقلام سلوكيّاتهم صورةً شوهاء عن القرآن، لاعتقادِ شعوب العالَم أن كلّ هذا التخلّف إنَّما هو تجسيدٌ لتعاليمِ القرآن.

والعجيب أن أعداء القرآن لم يتخلّوا رغم ذلك عن استراتيجية الإبعاد:﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ والتشويه: ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾؛ لإدراكهم مدى نصاعة القرآن، وأن من تَعرَّف عليه انْجذبَ إليه، وأدْرَك أن الخَلل كامنٌ في المسلمين، بدلالةِ هجرة الآلاف من العلماء والمثقّفين الغربيين إليه في كلّ عام، حتى صرنا نُفاخر بأننا نَطْمع بإسلامِ علمائهم ويَطْمعون بكُفْر جهلائنا!

✧ **تَدبُّرُ التّنْزيل:**

كانت الكتب السماويَّة السَّابقة محدودةً زماناً ومكاناً وأناساً، أمَّا القرآن فهو مطلقٌ في موضوعاته، عامٌ في خطابه، خالدٌ في زمانه، مما جعله يختلف عنها في عددٍ من الخصائص، ومن أهمّها أن الله اخْتَصّ نفسه بحفظِ القرآن كما هو معلوم، لكنَّه كلَّف المسلمين بتدبّره وشدَّد على هذه المَهمَّة أيّما تشديد.

ومن أجلِ تسهيلِ عملية التدبّر نزّله سبحانه على دفعاتٍ خلال ٢٣ عاماً، بعكس الكُتب السابقة التي نزلت جملةً واحدة، وحتى تتضح هذه الخصيصة وتثبت في أذهانِ المؤمنين، فقد أضاف الله للقرآن اسم التّنزيل، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

✧ **بُرْهانُ العرب:**

إن تَنزّل القرآن (الكريم) وسط أمة اتَّسمتْ بالأميَّة (المُهينة)، وإن تَنزّل (الكتاب المُبين) وسط أمَّة الـ (ضّلال المُبين)، وتغييره لحالتها بصورةٍ جذريةٍ جعلتها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، لهو برهانٌ عمليٌ على أن القرآن كتاب ربانيّ يمتلك مقدرةً هائلةً على إصلاح جوانح النَّاس وتقويم جوارحهم، وعلى أن قوَّته الذّاتيَّة في الهدايةِ تستطيع تحويلَ أنْفَه النَّاس إلى أعظمِ الأمم.

✧ **حفظ معاني القرآن:**

من المستحيل تحريف الكتاب العزيز كالكتب المقدسَّة السَّابقة؛ لأن الله تعهّد بحفظهِ وأخبر بأنَّه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ولهذا عمد الزنادقة إلى التأويل الباطل لآياتِ التَّنزيل الحكيم، غير أن الله قيّض لهذا الأمر رجالاً تَكسّرت على أحجارِ جهودهم أمواجُ الزّندقة والتَّشكيك.

✧ **حَميرُ اليهود والمسلمين:**

إن الله لا يحابي أحداً من الناس فكلُّ الخلْق عنده سواء، وعندما تفاخر المسلمون واليهود وادّعى كلّ فريق بأنّه من سيدخل الجنَّة وحده، نزل قولُه تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

وقد شبَّه الله المنحرفين من الدِّيانتين بالحَمير، فقال عن اليهود: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ...﴾ وقال عمن يُعرض عن هدايةِ القرآن: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١].

ومع أن الكلام عن صنفٍ من غير المسلمين إلّا أنّه ينطبقُ على كلّ من اتَّصف به ولو انتسبَ إلى الإسلام، كما نشاهد اليوم من غرائبِ الحُمُر المستنفرة!

✧ **قانونُ القوَّة:**

اقتضتْ مشيئة الله بأن تؤدّي قوَّة التحدِّي إلى خلْق قوةِ الاستجابة، ألا ترون أن (الكتاب المُبين) إنّما نزل وسط أمّة (الضلال المُبين)؟!

❋ ❋ ❋

ثُقُوبُ الإيمان

✧ **ثغراتُ الإيمان:**

إذا امتلأ القلب بالإيمان فلن يجدَ الأنداد مكاناً لهم فيه.

أمَّا إذا كان الإيمان قائماً على التَّقاليد والعواطف أو على الظُّنون والأوهام، فإنَّه سيمتلئ بالثَّغرات والثُّقوب.

ومن خلالها سيتقبل القلب الأنداد، كما قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ٩٣].

(وكفرهم) الواردة في الآيةِ هي تعبيرٌ بليغٌ عن تلك الفجوات التي تشرّبوا من خلالها حُبّ العجل؛ لأنَّهم في الأصلِ مسلمون، وفيها إشارةٌ إلى أن الإيمان لا يتجزّأ فإن لم يمتلئ القلب بالإيمان فهو كافرٌ حتى لو كان يؤمن بمعظمِ شُعَب الإيمان.

طبعاً هذا على المستوى الاعتقاديّ، أمَّا في المجالِ التطبيقيّ فالأمرُ نسبيّ، إذ يزيد الإيمان وينقص.

✧ **اسْتنباتُ الرَّيْب:**

عندما تمرض القلوب أو تقسو فإنَّها تكون قابلةً لاستنباتِ الرّيب، حيث يلقي الشيطان شبهاته وتشكيكاته فتستحيلُ إلى ريب يتردَّد فيه أصحابه، قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣]

وما يزال مريض القلبِ في ريبهِ يتردّد حتى يتردّى في حظائرِ الشيطان ليُلقيه في لُجّات الجحيم والعياذُ بالله.

✧ **غرائبُ الأخلاف:**

هناك أخْلافٌ من المسلمين أمْرُهم شديدُ العَجب والغرابة، حيث تمتلئ أفكارهم بالتَّناقضات، وتزخر ممارساتُهم بالمتضادات، وتكثُر في حياتهم الثغرات والانفصامات.

ومن ذلك أنهم يُضيّعون الصَّلاة ويتَّبعون الشَّهوات، ومع ذلك يظنُّون أنهم على الرشدِ وأن مثواهم هو الجنة.

يَسيرون في دروب الشيطان ويَطلبون مِنَنَ الرحمن.

يتكبرون في الأرضِ بغيرِ الحقّ ويسيرون في غيرِ طريق الرشد، ومع ذلك يحرصون على حفظ نصوص القرآن!

يقترفون موجبات لعنات الله كما جاءت بها آيات الفرقان وأحاديث المصطفى، ويرفعون أكُفَّ الضّراعة طالبين رحمات الله!

✧**عدم الاغترار بالمَظاهر:**

في كثيرٍ من الأحيان ينفصلُ الباطن عن الظاهر وينفصمُ المحتوى عن الشَّكل، ولأن المؤمن عميق النظرِ حادّ الرؤية، فإنّه لا يغترّ بالمظاهر ولا يتوقَّف عند الأشكال.

ويعود ذلك إلى تربيةِ القرآن لهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[التوبة: ٥٥].

إنّها النِّقم التي تتنكَّر في ثيابِ النِّعم، والرّزايا التي تتلفّع بمظاهرِ المزايا، وعكس هؤلاء هم المؤمنون الذين تأتيهم المزايا على ظهورِ البلايا، وتتخفّى المِنَح في إهاب المحن.

✧ **اسْتِقاء دون ارتواء:**

عجباً لأمرِ معظم المسلمين يَدّعون وُرود مناهلِ القرآن ثم يعانون من الظمأ القاتل، ويَزْعمون الشُّرب من حوضِ السُّنّة المحمديَّة ثم يَشْكون من العطشِ الشديد.

والأعجب أنَّهم لا ينتبهون إلى أن قِرَبَ عقولهم مثقوبةٌ وأباريقَ قلوبهم منكوسةٌ، ولذلك لا يَكُفّ بعضُهم عن الاستقاءِ دون تحقيق الارتواء!

✧ **أشقياء السَّعداء:**

يا لتعاسةِ من يُذكِّرون الناس بالله وينسونه، ويا لهوان من دلّوا الخلْق على الله وانصرفوا عنه، ويا لشقاء من دفعوا الورَى لولوج باب الله وبقوا في الخارج!

إن هؤلاء لا يمكن أن يكونوا أسوياء العقول، ولهذا هزَّهم الله بقوَّة وهو يقولُ لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]

❋ ❋ ❋

نسبيَّةُ الكيد

✧ **أواني الكَيد:**

مع أن مصطلح الكَيد غير مُحبّذ في قاموس الخَيِّرين ابتداءً، لكنَّه مثالٌ للمصطلحاتِ التي يمكن اعتبارها مجرّد أواني، فهُويّتها تتضحُ مما تَضم في ثناياها من معاني.

ومن خلال تجوالٍ سريع مع هذا المصطلح في رحابِ القرآن الكريم سنجدُ أن الشيطان أشهَرُ الكائدين، لكن الله قرّر توهين كيده فقال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٧٦]، ويقابله كيدُ الله الذي قال عنه سبحانه: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٣].

ومع أن الكيد عادة الضَّعفاء ودَيْدن السيئين، كالسّحَرة الذين كادوا لموسى، إلَّا أن الأنبياء قد يلجؤون للكيدِ كما فعل الخليل إبراهيم مع قومه المشركين بعد أن تعبَ من كثرةِ الجدل معهم دون جدوى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وهو الكيدُ الذي يفضح ضلالهم، حيث دمّر كافة الأصنام وترك الكبير بدون تكسير، واضعاً الفأس على عاتقه، وعندما سألوه عن الفاعل أجابهم: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

✧ **ارتداد الكيد:**

الكَيد من الأسلحةِ التي كثيراً ما تَرتدّ على أصحابها كالبندقيةِ التي ترتدّ رصاصاتها نحو صدورِ مستخدميها.

ومضمون كَيد الله هو إرجاعٌ لأسلحةِ الكائدين نحو صدور مطلقيها، كما حدث لموسى عليه السَّلام مع السَّحرة الذين قالوا: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٤].

ولقوَّة كيدهم خاف موسى الإنسان، لكن الله أمرَ موسى الرسول بأن يُلقيَ عصاه، فابتلعت كلّ ذلك الكَيد والسِّحر المُبين، وعندها انقلبَ السِّحر على السَّاحر كما هو معلوم.

✧ **الكيد لصاحبِ الآلاء:**

إن صاحب النِّعم ومالك الآلاء عرضةٌ للكيدِ من قبل الحُسّاد والمنافسين، ويُقدم لنا القرآن درسَ يوسف عليه السَّلام الذي وهبه الله وَسامةً صارت محلّ حسدِ إخوته، وعندما رأى رؤيا تشير إلى أنّه سيكون ذا شأنٍ في المستقبل أخبر والده يعقوب بها، فقال له: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥]، ولذلك لما كان يعرفه من طبائعهم.

وبسبب جَماله شُغفت به امرأة العزيز وراودته عن نفسه، لكنَّه أبى فكادَت له مع صويحباتها كيداً عظيماً، ودعا الله أن يصرفَ عنه كيدهنّ فصَرفه، غير أن الثَّمن كان باهظاً وهو ولوج السِّجن لبضع سنين.

ولقد كانت تلك المكائد كلّها جزءاً من تأهيلِ الله ليوسف، وعندما نضجت ثمرة ذاته أذِنَ الله بأن ينقلب السِّحر على السَّاحر، حيث تدخّل كيدُ الله فانفضحَ الجميع على رؤوسِ الأشهاد، واعْتلى يوسفُ عرش الإمارة بعد أن بُرّأت ساحته وعرف الجميع معدَنه النَّفيس، ولا سيما بعد سياسته الحكيمة للشأنِ الماليّ مما جنّب الشَّعب المصريّ الوقوع في المَجاعة.

✧ **الكيد من خلال منظومة الآخر:**

إن الكيد بحاجةٍ إلى معرفة المُكاد حتى يُعرف من أين تؤكل الكَتف وكيف يتحقَّق الهدف، ولقد كانت قوانين مصر لا تسمح بأن يأخذ يوسفُ شقيقَه من إخوته، لكن

الله كادَ له بقصةِ صُواع المَلك الذي خُبِّئ في أغراضِ أخيه، ووفق معرفة يوسف بإخوانه وشريعتهم التي تذهب إلى استرقاق السارق لصالح المسروق منه، نجحَ في استعادةِ أخيه بموافقتهم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وتتضح العلاقة الوثيقة بين الكيد والعلم من خلال خاتمة الآية.

ويبدو أن الله ألْهم يوسفَ هذه المكيدة، لكن الله نسبَ الفعل إلى ذاته مثلما قال لمحمد (ﷺ): ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

هذا عن النتيجة، أمَّا السبب فقد قام به يوسف ومحمَّد عليهما السَّلام والله أعلم.

❋ ❋ ❋

حِبالٌ التقليد

✧ **أكِنَّةُ التّقليد:**

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء: ٤٦]

إن الأكِنَّة التي تمنع القلوب من فقْه القرآن كثيرة، لكن أخطرها هو التَّقليد، ولذلك لا بدَّ من النّفاذ إلى معاني القرآن التي تناسب الزمان والمكان، وتُجسِّد عالميَّة الإسلام وخلوده، وذلك عبْر التدبّر وأول مفاتيحه هو الذهابُ إلى فهمهِ بعيداً عن مُسلَّمات التَّفاسير السَّابقة، إذ تُقيِّد تلك التفاسيرُ العقول وتمنعها من النَّفاذ إلى جوهرِ القرآن واستخراج جواهره.

✧ **جُذاذُ المسلمين:**

عندما جعل المسلمون القرآن عِضين، يأخذون بعضَه ويتركون البعض الآخر، تَفرَّقوا شيعاً وتمزّقوا أحزاباً، وتَحطّمت فاعليتُهم جُذاذاً وصارت معيشتُهم ضنكاً.

ووصلوا إلى الدّرْك الأسفل من التحطّم، حيث الغثائيَّة التي حذّر منها المصطفى (صلَّى الله عليه وسلَّم).

✧ **عَمَى النِّسيان:**

النسيان يصنع القابليَّة لِمسِّ الشيطان، وقد يصيب الإنسان بالعَمى، مفقداً إيَّاه بوصلة الفُرقان بين الحقِّ والباطل.

فإذا تذكّر المسلمُ ربّه أبْصَر طريقَه من جديد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١].

✧ **عَقْدُ التدبّر:**

من المعلوم أن أهمَّ سورةٍ في القرآن الكريم بالنِّسبة لتشريح عِلَل التديّن عند أهل الكتاب ولا سيما اليهود هي سورةُ المائدة، حيث هَتَكت أسْتار الكتابيين وفضحت ألاعيبهم.

وقد ابتدأت السّورة بنداءٍ ربانيٍّ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

ومن الواضح أن أحد عوامل التديّن الكتابي السقيم هو أنَّهم لم يتدبّروا التوراة والإنجيل فصاروا كالحَمير تحمل أسفاراً، وانسلخَ أحبارُهم ورهبانُهم منها حتى صاروا كالكلابِ إن تَحْمل عليها تَلْهَث أو تتركها تلهث.

فهل يمكن القول بأن تدبّر القرآن هو أوَّل العقود التي يطالبنا الله في افتتاح المائدة بالوفاءِ بها؟

على الأقلّ هذا ما يتبدَّى لي من القراءةِ الكلّيّة للسُّورة، لأن عدم تدبّر القرآن سيُفْضي بالمسلمين إلى هدْم كثيرٍ من العقود، وأهمّها عقود حُرمة دم المسلم وماله وعِرضه وعقود احترام عقله وكرامته وحريّته؛ وذلك بسبب التأويل الخاطئ أو الفهم الأعور.

✧ **حَبْلُ القرآن:**

إنّ جبال التَّقوى شاهقة الارتفاع متنوعة التَّضاريس، والوسيلة المُثلى في الوصول إليها هي تَسلُّق حبْل القرآن، ومن لم يَعِ معاني القرآن الأساسيَّة ولم يستمسك بها فليس ممَّن اعتصم به، ولو حفظه عن ظَهرِ قلب وتَلاهُ كلّ يوم، إذْ ماذا يُغني عنك أن تمتلك حبلاً شديد الفَتْل، لكنك لم تستمسك به في اعْتلاءِ جِبالِ التقوى؟!

✧ **الاعتصامُ من الأغلال:**

من لم يَستقِ من مناهلِ الوحي ولم يَرتو من (سَلْسبيلها) العَذْب، فستُقيِّدُه أغلالُ الأهواء، وستسحبه إلى الأسفلِ (سلاسلُ) التقليد الأعمى لأعراف المجتمع.

❋ ❋ ❋

استيعابُ الوقائع

✧ **بين الخَلْق والفِعْل:**

ما فتئ القرآن يُعلِّمُ متدبّريه مراعاة الفروق الدَّقيقة في دوائرِ الأشخاص والأشياء والأفكار.

ففي مقطعٍ واحدٍ من سورةِ آل عمران وردت بشارتان لرجلٍ وامرأةٍ من بني إسرائيل، الرجل هو نبيّ الله زكريا، حيث نادته الملائكة وهو قائمٌ يصلّي في المحراب مبشرةً إيّاه بالولد، فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

والمرأة هي مريم العذراء وقد بشّرتْها الملائكةُ بكلمةٍ من الله اسمهُ المسيح عيسى، فاستغربت قائلةً: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وهنا نلاحظ وجود تشابهٍ كبيرٍ في القصَّتين: نبيّ عابدٌ لم يأتهِ غلامٌ في الوقت الطبيعيّ للخِلْفة؛ لأن زوجته عاقر، وعندما تتجاوز سِنَّ الخِلفة وتصبح عجوزاً تأتيهِ البشارة بغلام سبقَه اسمُه (يحيى)، وامرأةٌ عابدةٌ في سِنّ الحَمْل لكنّها لم تتزوَّج فتأتيها البشارة بغلام سُمِّي عيسى! لا شكّ أن الأمرين يُثيران التساؤل والاستغراب ويستدعيان الجَواب.

ويَلفت نظرنا في الجواب، المتشابه ظاهرياً، إبرازه للفرقِ الجوهريّ في القصَّتين، حيث قال لزكريا: {كذلكَ الله يَفعَل ما يشاء} وقال لمريم: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾، حيث راعى في مفردتي الفعل والخلق الفرق القائم في الواقع السُّنَنيّ، إذ

أن الحملَ بيحيى مع غرابتهِ إلَّا أنه يتوفّر له الرُّكنان الأساسيَّان للخِلْفة وهما الزَّوج والزَّوجة، فاستخدم مصطلح الفعل، أمَّا الحَمْل بعيسى فإنَّه أشدّ غرابةً وإعجازاً لأنَّه بلا أب، فكان الفعل "يَخْلق" هو الأنسبُ للتعبيرِ عن حقيقته المبهرة.

ولا شكَّ أن في ذلك درساً فكرياً حول وجوب الدقّة في استخدامِ المصطلحات التي تراعي حقائق الواقع كما هي.

✧ **إرادةُ الفهمِ والاستيعاب:**

عندما خلق الله آدم فضَّله بالعلم، حيث علَّمه الأسماء كلّها، وجعل هذا العلم برهان أفضليّته أمام الملائكة، وظلَّت إرادة الله مُنصبَّة على هدايةِ الناس إلى السُّنَن التي تنتظم السَّير في الحياة، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

ونلاحظ عناية القرآن البالغة بالسُّنَن، من خلالِ تسمية الوصول إليها هداية، ونسبة الهداية إلى الله، ومن خلال فاصلة:﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، فالعلم هو المعرفةُ الدَّقيقة، أما الحِكمة فهي تنزيلُ المعرفة على الواقع بصورةٍ صحيحة، وبين هذين المعنيين ورد ذكر التوبة وكأن الجهل بالسُّنن ومناقضتها ذنب ينبغي التّوبة منه، بالإقلاعِ عن مجانبةِ هذه السُّنن، والنَّدم على التَّفريط بها، وبامتلاكِ العزيمة القويَّة على المضيِّ في طريقِ استثمارها والتَّسلح بها في صناعةِ الحياة.

✧ **أبوابُ المجتمعات:**

أمرَ الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يأتوا البيوتَ من أبوابها [البقرة: ١٨٩]، وجاء الأمر بذلك في سياقِ الحديثِ عن الأَهِلَّة، وتوضيح أن البرّ ليس إتيان البيوت من ظُهورها وإنَّما هو اتقاء الله، وحقيقة التَّقوى هي أن لا يَفقدك الله عند(ثغور الشُّعَب) الإيمانيّة وأن لا يَجدَك عند (ثغرات الكبائر) الفسقيّة.

ومن المؤكد أن للمجتمعاتِ أبواباً ينبغي الولوج إليها من خلالها، فكيف سيعرف أبواب المجتمعات من لا يَفْقَهُ الواقع، مع كونها أبواباً معنويَّة لا ماديَّة ثم إنَّها دائمة التنقّل والتغيّر؟!

✧ **جِسْرُ الواقعية:**

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾، استنكارٌ ربانيٌّ للانفصام البشريّ بين الأقوال والأفعال، ودعوة قوية لتجسيرِ المسافة بين الشِّعارات والسُّلوكيات، وهذا المعنى واضحٌ ومتبادر إلى الذِّهن.

وقد يكون في ثنايا هذه الآية دعوة لالتزام الواقعيَّة التي تُقرّب بين الكائن وما يجب أن يكون، من خلال الوصول إلى المَمكن، وذلك بعدم المبالغة في المَثاليَّة التنظيريَّة التي تنعزل عن الواقعِ تاركةً إيَّاه عارياً ليَتخبطّه الشيطَان من المَسّ.

ويحتاج تقريب الفجوة بين المثال والواقع إلى التخفيفِ من المثاليَّة والارتفاع بمستوى الواقع، وذلك بمعرفةِ نقاط قوَّته لتنميتها ونقاط ضَعفه لتقويتها، وهذه هي الحكمةُ التي تصير جسراً يربط بين المثاليَّة الشديدة والواقع المتخلّف.

❋❋❋

عطاءُ الكرامة

✧ **حِفظُ الوُجُوه:**

لا بدَّ لمن يريدون (وجْهَ اللهِ) بحقّ، أن يَسعوا في حفظِ كرامة أقاربهم وفي مَنْع (ماءِ وُجُوه) المساكين من الانْسكاب على أبواب اللّئام، قال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨]

وقد وصف الله هؤلاء المحسنين بالمُفلحين؛ لأن إحسانهم يجلبُ لهم خير المعاش والمعاد، ويمنحهم فلاح الدنيا والآخرة، إذ أن الفلاح الدنيويّ مرتبطٌ بالمجتمعات، ولا فلاح لمجتمعٍ يعيش بعض أبنائه في سجونِ المذلّة والمَهانة، ويعاني فيه آخرون من مشاعرِ التحطُّم والانكسار.

✧ **العناية بكرامةِ الأقارب:**

تَحُثّ نصوص القرآن الكريم على العنايةِ بكرامة الفقراء والمساكين عموماً، حتى أنَّه جعل العطاء ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ لا مِنّةً من الأغنياء، كما في آخرِ الآية التي أوردت مستحقّي الزّكاة الثمانية [التوبة: ٦٠]، وسمّى العطاء ب(الحَقّ) في أكثرِ من آيةٍ في القرآن الكريم.

وإن عناية القرآن بكرامةِ الأقارب أشدّ من غيره، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦]، حيث قال عند القريب حقّه، رغم أن ما يُعطى للمسكينِ وابن السبيل هو حقٌّ أيضاً أوجبهُ الله وفرضه، ذلك أن حساسية الفقير من أقاربه تكون أقوى عند كثيرٍ من الناس، وتساهل الغنيّ في

جانب قريبه الفقير تكون أبرز، ثم إن العطاء نوع من السّترِ الذي يمنع الانكشاف ويحفظ كرامة الإنسان، والأقربون أولى بمعروف الكرامة.

✧ **تحرير المساكين من مشاعرِ الانكسار:**

يتَّضحُ اهتمام الإسلام بكرامةِ الناس ولا سيما الضّعفاء والمحتاجين منهم، من ثنايا سائر النّصوص المبثوثة في القرآن.

والمحتاجون هم أصنافٌ عديدة وقد جَمَعَهم الله تحت لافتةِ (المساكين)، إذ اكتفى في كثيرٍ من الآيات بذكرِ هذا المُصطلح لأنّه عنوان للفقراءِ واليتامى والمنكوبين وأبناء السَّبيل، ذلك أنَ الجامع بين هؤلاء جميعاً هو انكسارُ القلب والشُّعور بالضَعف، نتيجة جروح الفاقة وأوجاع الحاجة.

وبهذا فإن مصطلح (المسكين) بحدِّ ذاته يلفتُ أنظار المتدبّرين إلى عنايةِ الإسلام بالكرامةِ قبل الكفاية، وبذلك فإن كلّ آية تَحضّ على إطعام المسكين أو تتوعّد من لم يقمْ بهذا الأمر فإنّما تَحثّ على حفظِ كرامتهِ بإطعامه، والمَحافظة على كرامتهِ من باب أولى عند إطعامه وبعدها، حيث يجب تجنّب أيّ إجراء أو كلمة أو منٍّ يمكن أن يجرحَ المساكين ويسبب لهم الانكسار.

✧ **كرامة الإنسان:**

لا قيمة للرزقِ الكثير والأجرِ الكبير إن كان سيتمّ بمعزل عن الكرامةِ الإنسانيَّة، فضلاً عن أن يكون على حسابها.

ولأهميةِ الكرامة الإنسانيَّة فقد وصف الله الرزقَ بـــ (الكريم) في ستَّةِ مواضع من القرآن الكريم، ووصف الأجر بـــ (الكريم) في أربعةِ مواضع.

وبذلك فإن القرآن يحافظ على غائيّةِ الإنسان ككائنٍ مركزيٍّ سخّر الله له كلّ شيء، حتى لا يتبادل مع المال المكانة، فيصبح وسيلة والمال غاية، ولو حدث ذلك فإن غاية المهانة ستكون قد لحقت بالإنسان، ولو امتلك أموال قارون.

تَكامُلُ المَعارِف

✧ **الائتلاف العلميّ:**

سيعود المسلمون أمّةً واحدةً عندما يعتصمون بحبلِ الله المَتين، فإنه الكتاب الذي يَحُثّ على تفعيل مدارك العقل مثلما يحُث على الاستمساك بنصوص النقل، وعندما يفقهون منهج النبي (صلَّى الله عليه وسلَّم) الذي يستوعب تعدَّد التنوّع ويرفض احتكار الحقيقة، ويحثُّ على موالاةِ جميع المسلمين وحبِّ سائر المؤمنين.

سيصيرون لُحْمةً واحدة عندما يُحبّ الصّوفيون ابنَ تيمية كما يحبّون أبا حامد الغزالي، وعندما يُحبّ السلفيّون عبد القادر الجيلاني كحبّهم لأحمد بن حنبل، ويحبّون حسن البنا كحبّهم لمحمد بن عبد الوهاب، والعكس بالنسبةِ لصُّوفيين والإخوان المسلمين.

سنكون متَّحدين فعلاً عندما تقيمُ الرياض مؤتمراتٍ علميَّةٍ عن أبي حنيفة، وتدرس اسطنبول الشافعيّ، وتُكرّم إسلام أباد أنس بن مالك، وتقيم الدَّار البيضاء فعاليات عن أحمد بن حنبل.

وسنتحدُ حقاً عندما يحتفي الزيديون بمذهبهم في مسقط، ويحتفل الإباضيون بمذهبهم في صنعاء! سنتحدُ بحقّ عندما تُطبع كتب المعتزلة في الرِّياض، وكتب الحنابلة في الخرطوم، وكتب الشافعيَّة في لاهور، وكتب الحنفية في جاكرتا.

وهذا كلّه لن يتأتى ما لم نرتفع من هوامش الفقهاء إلى متونِ القرآن، وما لم نجعل التدبّر معراجنا إلى الائتلافِ المنشود.

✧ **التَّكامل المعرفيّ:**

حتَّى لا نكون من الذين فرّقُوا دينهم وممن جعلوا القرآن عِضين، لا بدَّ لنا من الوعي بمقاصدِ القرآن وكلّياته، إذ سيؤدّي ذلك إلى تكامل العلوم والتَّخصصات، وضمان خروج أصحاب كلّ تخصّص من التشرنق وسط تخَصّصاتهم ومن التخندقِ داخل مذاهبهم، بحيث يَتصوّف الفقهاءُ ويَتفقَّه المتصوّفة، ويخوض المُحدِّثون غمار الفلسفة وعلم الكلام وفق الضَّوابط الشرعيَّة وبالمقادير الضَّرورية، ويتعمّق الفلاسفة وعلماء الكلام في الحديثِ الشَّريف بما يحقّق الغاية المَطلوبة.

لا بدَّ من تدبرِ معاني القرآن الكريم، بحيث تتوثّق العلاقة بين المقاصديين والنصيين، وكذا بين الظاهريين والباطنيين، وبحيث يلتقي الجميع على منهجٍ سواء.

ولا بدَّ من مَدّ حبال التّكامل بين أطرافِ المعرفة: بين علماءِ الشَّريعة وبين علماء الطَّبيعة، بين الدُّعاة وبين علماء النَّفس والاجتماع، بين الفقهاء وبين رجال الاقتصاد والسّياسة، وكذا بين المفكّرين وبين الدُّعاة والوعاظ.

✧ **سلسلة مُتوحِّدة لا أفلاكٌ مُتعدّدة:**

في عصورِ الضِّياء الإيمانيّ والتدبرِ القرآني، كان المسلمون يدخلون من أبوابٍ متفرِّقة بدون اختلاف، ولا يمنعهم تعدُّد الرؤى والأفكار من الائتلاف.

وعلى سبيلِ المثال فقد نشأ الحسن البصريّ في بيتِ النبوَّة، إذ كان طفلاً عندما كانت أمّه تخدم أمّ سلمة رضي الله عنها، وفي محضنه العلميّ تربّى مؤسّس الفكر الاعتزاليّ واصل بن عطاء، وتتلمذ على يديّ واصل الإمام زيد مؤسس المذهب الزيديّ، وتتلمذ الإمام الأكبر أبو حنيفة على يد الإمام زيد، وصار أبو حنيفة الفارسيّ إمام المذهب السنّيّ الأكبر، وعلى يدي صاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن تتلمذ الإمام مالك اليمنيّ مؤسس المذهب المالكيّ، وعلى يدي الإمام

الأصبحي تتلمذ الإمام القرشي محمد بن إدريس الشّافعي، والذي أسس مذهباً نُسب إليه فيما بعد، وعلى يديهِ تتلمذ الإمام أحمد بن حنبل مؤسس المذهب الحنبلي.

وهكذا ظلَّت عجلة الأمَّة تدور، لأنَّ مكوِّناتها ظلَّت حلقات ترتبط كلّ واحدةٍ بما قبلها وما بعدها.

وعندما هجر المسلمون تدبّر القرآن تَحوّل التَّعدد من نموذجِ السلسلة الواحدة إلى نموذجِ الأفلاك المتعدّدة، وأصبح كلّ مُكوِّن يدور في فلكِ شيخه، فتمزّقت الأمَّة الواحدة إلى أجزاءٍ ضعيفة، وصارت أوطانها أوْهَى من بيوتِ العنكبوت.

✧ **الحُبُّ أوْلَى من التّمذْهُب:**

عندما سافر الإمام مالك إلى العراق صلّى على طريقةِ الإمام أبي حنيفة، رغم مخالفته له في بعضِ هيئات الصَّلاة، وعندما ذهبَ الإمام الشافعي إلى المدينةِ المنوَّرة تركَ طريقته وقلّدَ أستاذهُ الإمام مالك، وهكذا فعل الإمام أحمد الذي قلّد الإمام الشافعيّ رغم الاختلاف معه.

وسار سائر الأئمة المجتهدين على ذاتِ الدّرب، فقد أرادوا أن يقولوا لأتباعهم: حاذِروا التَّعصب الأعمى الذي يُمزّق الأمَّة، فإنما هي اجتهادات بشريَّة يمكن أن يتعدَّد فيها الصَّواب، وفي أسوأ الأحوال فإن للمصيبِ أجران وللمخطئ أجرٌ واحد.

✧ **اتحاد التدبّر:**

الإنسان هو لَبنةٌ في جدارِ الأمّة، فإذا تكامل العقلُ والقلب، وإذا استقامت الجوانحُ والجوارح، فقد أصبحَ تَوحُّدُ الأمّة يسيراً.

ولا ضمانة لذلك مثل تدبّر القرآن، فإن حضور المَدارك في القراءةِ يملأ العقل بمشتركاتِ الاتحاد، وإن انْسكاب موجاتِ الخشوع يملأ القلب بدوافعِ الائتلاف.

عُشّاقُ الانحطاط

✧ **التّكلُّب ورفْضُ التحليق:**

تمتلك آيات الله القدرة على أن ترتفع بمن أحْسَن تَدبّرها والعمل بها في سماوات الرِّفْعة وفراديس الإيمان، لكنّ الذين آثروا الإخلاد إلى الأرضِ والانجذاب إلى التّراب انسلخوا من الآياتِ واتبعوا الأهواء، فحُرموا من الطَّيران في آفاقِ الرُّوح وعاشوا كالكلابِ التي لا تَنْفكّ عن اللّهاث.

هذا ما استفدناه من تدبّر الآيتين ١٧٥-١٧٦ من سورة الأعراف، وكأن المُنسلخ من آياتِ الله والمُكذِّب بها يرفض الانتماء إلى عالمِ الطُّيور، مُؤْثراً العيش كالكلبِ في الأرض!

وهذه الاستفادة هي تنفيذٌ لأوامر التدبّر عامَّة وللجملة الأخيرة من الآية ١٧٦ التي تقول: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فتفكَّروا في جملة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

✧ **العيشُ مع الأنعام:**

خلق الله بني آدم برِجْلين كالطُّيور، وأنزل عليهم آيات تمتلك وَصَفات التَّحليق في الأعالي وصِفات العروج نحو المعالي، فأعطاهم بذلك فرصةً للتكفيرِ عن كبيرةِ الأكل من الشجرة المحَرّمة والعودة إلى الجِنان.

لكن الذين كذّبوا بآياتِ الله ظلموا أنفسهم وخسروا الفرصة الإلهيَّة، ظانّين أن امتلاك أربع أقدام أفضل من قدمين، وبذلك رفضوا الإنعام الإلهيّ وآثروا العيش كالأنعام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

✧ **الفرار إلى الهلاك:**

هناك أناسٌ يَفرّون من النَّجاة إلى الغرقِ ومن الصَّلاح إلى الفساد، كأن هؤلاء ينحدرون من ابن نوح الذي دعاه أبوه للنَّجاة معهم من الغرقِ بركوبِ السفينة، لكنّه مضى في السيرِ نحو الغرق، متوهماً أنّه سيأوي إلى جَبَلٍ يعصمه من الماء.

وفي عهد رسول الله (صلَّى الله عليه وسلَّم) اعتذر صنفٌ من المنافقين عن الخروجِ معه للجهاد، مُدّعين الخوف على أنفسهم من الافتتان بنساءِ بني الأصفر، لكن خَالقهم الذي يعلم مكنون خباياهم ويعرف ما تخفيه صدورهم، قرّر أنهم وقَعوا فيما زعموا الفرار منه، فقال: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

✧ **إرادة الخراب:**

عندما يتخلَّى الإنسان عن (إرادة العَمار)، فإنَّ (إرادة الخراب) تتخلّق في كثيرٍ من جُدُر الأرض وعمائر الحياة.

وربَّما كان هذا المعنى هو المغزى من نسبةِ الإرادة الواعية إلى جدارٍ أصَمّ في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ...﴾ [الكهف: ٧٧].

✧ **الجرائم المُزْدوَجة:**

من يتمعّن في حديث القرآن عن الجرائم؛ سيجدُ أن بعضها تظهر في مقدماتِ الأعمال مع أن النَّتائج قد تكون طيّبة في ذاتها، وقد تَحضُر في النتائجِ مع أن المقدّمات ربّما كانت حسنة، وفي الأخير كلّها جرائم خطيرة.

لكن الأخطر منها هي الجرائمُ المزدوجة التي تشملُ المقدّمات والنَّتائج، كالفكرِ المنحرف والفعل الفاتن عند إبليس.

فعندما سقط في امتحانِ السُّجود لآدم ولعنه الله، ارتكب جريمة أخرى، كما قال القرآن على لسانه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، فالمقدمةُ المنحرفة هي الاعتقادُ بأن الله من أغواه، وعلى هذه المقدّمة الباطلة ارتكب جريمة الإضلال لآدم وأبنائه، وعمل بكلّ ما يستطيع على توريطهم في سائرِ الجرائم من خلال التزيين والإلهاء ومن خلال الإغراء والإغواء.

❋ ❋ ❋

فُرْسانُ العمل

✧ **ابتغاءُ فضْلِ الله:**

يُسمّي القرآنُ الرّزقَ (فضل الله)، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ...﴾، فكيف لا يكون ابتغاءُ فضل الله واجباً؟!

وسمّاه رزقاً كما في قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ...﴾ [البقرة: ٦٠]، فهل يُعقل أن يَخرُج طلب الرزق، الذي نسبه الله إليه وأمرَ بالأكلِ والشرب منه، من دائرةِ العبادة المأجورة؟!

✧ **عنوانُ الطّيبات:**

عندما تساءل بعض المؤمنين عمَّا أُحِلّ لهم لم يُجب القرآن بإيرادِ أصناف الحلال؛ لأنّها كثيرة وغير متناهية، واكتفى بوضع عنوان جامع لها وهو الطيبات: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤]، ثم ذكر صنفين من الطَّيبات لكونهما استثناء مما حرّمه، وهما صيد الكلب المُعلَّم وطعام الذين أوتوا الكتاب، مؤكداً أنه أحلّ لهم ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤-٥].

لقد ذكر في الآية الأولى صيد الكلب المعلَّم، وفي الثانية أورد طعام الكتابيين، لكنَّه بدأ كلّ آية بالتأكيدِ على الأصلِ الثَّابت وهو أن الله أحلّ لهم الطَّيبات، حتى تظلّ دائرة الحلال واسعة جداً كما أراد سبحانه.

فيا ترى كم هو عدد الأصناف والمفردات التي تدخل تحت عنوان (الطيبات)؟ وعلامَ يتكئ من يُحرّمون ما أحلّ الله؟!

✧ **العبادات المشهودة:**

قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، وعلى نفس المنوال فإن عمل الضُّحَى في ابتغاءِ رزق الله، وأذكار الصَّباح والمساء، وراحة البدن في الظَّهيرة، وتزاوُر النَّاس في العصر، ومُداعبة الرجل لأهلهِ في المساء، كلّها عبادات مشهودة من قبل ملائكة الله، لأنّها جاءت في أوقاتها المفضلة، إذ لكلّ عملٍ وقته الأنسب وأجرهُ الأوفر.

على الأقلّ هذا ما هداني إليه تدبّر النصّ القرآنيّ الآنف الذكر.

✧ **بين السَّبْح والتّسْبيح:**

لكلِّ وقتٍ في الإسلام عبادته المفضَّلة، التي تتّسق مع نواميس الكون ومع فطرةِ الله ومع تعاليم الشَّرع، مما يُجوِّد ثمارَها الدنيويَّة ويُغزِّر أجورها الأخرويَّة.

وبصورةٍ عامَّة فإن أهمّ عبادات النَّهار هي (السَّبْح الطويل)، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧]، وهو التقلّب بين الأعمال التي تُحقق المصالح وتدرأ المفاسد ولا سيما المتّصلة منها بالمعاشِ كعمرانِ الأرض، كلٌّ من خلال مهنته وقدرته وميوله ومسؤولياته.

وأهم عبادات اللَّيل هي التَّسبيح الطويل، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

والتسبيح يَنْبَثّ في أرجاء الصَّلاة والدُّعاء، ويسري في طوايا الذكر والفكر، ويتخلّل حتى السُّبات والنوم.

✧ **شطْرُ الله:**

إن مجيء آية التخصّصات: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨]، وسط مقطع يتحدَّث عن تغييرِ

القبلة من بيتِ المقدس إلى كعبةِ مكة، ذو حكمةٍ بالغةٍ كأنه تعالى يُشبّه التخصّصات بالجهاتِ الكونيَّة، ومثلما يُولّي الجميع بصلاتهم شطر المسجد الحرام، ينبغي أن يتَّجه العالمون بعلمهم شَطْرَ عبادة الله، بحثاً عن رضاه وابتغاءً للأجر والمثوبة منه، ومن ثم فإن هذه الغاية ما دامت حاضرة، فإن كلّ التخصّصات تصبح أبواباً للولوجِ إلى ملكوتِ الله، حيث ينبغي لجميع العاملين أينما كانوا أن يُولّوا وجوهَهم شطرَ مرضات الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾.

✧ **زينةُ الدنيا:**

يصف القرآن الكريم الدنيا بأنها: (زينة) كما في الآية ٢٠ من سورة الحديد، ويجعل هذا الوصف مما يجب العلم به، وبذلك فإنه لا يُقذِّر الدنيا في أعين المسلمين بل يُرغِّبهم بها، لأن الزينة شيء فطريٌّ ومحبّبة عند الناس جميعاً: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ...﴾ [آل عمران: ١٤]، غير أن التنفير يكون عن وُلُوجها إلى القلب، لأنها عندئذ تصبح غايةً يلتصق حبُّها بشغافِ القلب، طاردةً الكثير من قيم السماء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟..﴾

ومن المعلوم أن الزينة تُلبس في الأيدي وتُعرَض على الأجسام، ولا تُحبّأ في الطوايا أو تُخفى في القلوب.

❋ ❋ ❋

مَسَالِكُ السّائرين

✧ **التّخَلّي قبل التّحلّي:**

إن من يؤمن بالله قبل أن يَكفرَ بالطَّواغيت قد يَسقط في حفرةِ الشِّرْك، إذ سيجعل أولئك الطَّواغيت أنداداً لله، ومن هنا رأينا مسلمين يَجمعون بين الإيمانِ بالله والسيرِ خلف الطواغيت.

ومن المعلوم أن التّخْلية تكون قبل التّحْلية، وهذا ما نبّهَ عليه القرآنُ الكريم، عندما رَتّب الأمر بهذهِ الطريقة، في سياقِ التأصيل لقضيةِ الوصول إلى الله وعدم الانفصامِ في الطَّريق.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فقد وضعت الآية التخلّي عن الطَّاغوت قبل التحلّي بالإيمان بالله عَزّ وجَلّ.

✧ **البدءُ بالمُمكن:**

يدرك صاحب العقل الراجح أن عقلهُ ليس على كلِّ شيءٍ قدير، ويعرف أن الزمن جزء من فهم بعض الأمور وحلّ بعض المشاكل، ولذلك فإنه لا يتوقف أمام أيّ معضل بل ينتقل إلى ما يستطيع عمله، عاملاً بنصيحةِ عمرو بن معد يكرب فارس العرب:

إذا لم تَستطعْ أمْراً فدَعْهُ وجاوِزْهُ إلى ما تَستطيع

ولا شكّ أن هذا المعنى يستظلّ تحت سحائب النّص القرآنيّ الجامع: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ إن تدبرناه ملياً.

✧ أدبُ السّماع وذكاء الاستماع:

عندما تُحسن الظنّ بالناس وتستمع بأدبٍ لما يقوله جميعُهم ولا تُجابهُ سيئيهم، ستتعرّض للسُّخرية من شرارهم الذين سخروا من رسولِ الله (صلَّى الله عليه وسلَّم): ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ...﴾.

ولا يدري المتخلّفون أن هذا الأدب الرفيع ليس غفلةً ولا غباء، إذ أن المؤمن في حالةِ يقظةٍ دائمة، ولا يَفقد فطنته أو يغادر كياسته بتاتاً ما دام إيمانُه في قلبه ولُبِّه، وهو يمتلك ميزاناً يُغرْبل به أقوال الجميع، فقد وصفَ الله المؤمنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وهنا تكمن هداية الاستماع، وتَتجسّد عقلانيّةُ الفَرْز والغَرْبلة، وتَحضُر ألْبابُ الاستفادة والاقتباس.

ومن ثم فإن حُسْن الظنّ وأدب الاستماع لا يتناقضان مع الفِطنة والكياسة ولا يحوَّلان دون امتلاكِ موازين الغربلة، ويمكن القول بأنّ أدب السَّماع لا يلغي فطنة الاستماع بل يُذكيها.

✧ الاختيار في إطارِ المشيئة:

إن لهداية الله سُنناً ولإضلاله سُنناً، وكلاهما تجسيد لمشيئته العادلة سبحانه، ولذا فإنها لا تلغي مشيئة الإنسان، إذ بإمكانه أن يختارَ منها ما يريد، فإن تَفاعَل مع سُنن الهِداية اهتدى وإن تَعرَّض لسُنن الضَّلالة ضلّ، وفي الحالتين هو من اختار دون أن يغادر مشيئة الله قيد أُنملة.

وهكذا فإننا عندما نقرأ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]، نوقن أن الله لم يُجبر أحداً على سلوكِ طريق الضَّلال، بل أطلق لمشيئةِ الإنسان حرية الاختيار فاختار السير في طريق الضَّلال بنفسه، وعند ذلك

لو اجتمعت الدنيا على أن تضعه في سبيل الهِداية فلن تنجح، لأنه من اختار السير في هذا الطَّريق، وهو وحده من يستطيع العودة إذا قرّر أن يعود.

✧ **المرحلية:**

ما يزال القرآن الكريم يُعلِّمنا بشتى الأساليب، وما فتئ يَمنحنا دروساً فكريَّة ودعويَّة مهمّة في سائرِ الأحوال، حتى في قضيةِ الخَلْق كما في الآية السادسة من سورة الزمر، حيث خلَق الإنسان خَلْقاً من بعد خَلْق، مع أنه على كلّ شيءٍ قدير ويستطيع أن يقول للشيء كُنْ فيَكون.

❋ ❋ ❋

بَوائقُ المنافقين

✧ **معالمُ النِّفاق:**

يَزعم بعض جهلة عصرنا أن المنافقين لا وجود لهم إلَّا في عصر الرسول (صلَّى الله عليه وسلَّم)؛ بحُجّة أن الوحي كان يُخبره بهم.

ونحن لا نتهمُ أحداً بعينهِ بالنِّفاق، ولكن الوحي الذي أخبر الرسول بأسمائهم هو الذي أخبرنا بصفاتهم في مئاتِ الآيات.

وقد تدبرنا في هذا السياق آية واحدة منها فوجدناها تضع لهم ثلاث صفاتٍ أساسيَّة، قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾، إذ يوالي بعضُهم بعضاً ولهم صفاتٌ أساسيَّة مشتركة، هي:

- ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾، ومن ثم فإن كلّ من يُغيّر ما هو معلوم من الدين بالضَّرورة يكون منافقاً.
- ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ...﴾ فإن أهم براهين الانتماء إلى المجتمع الإسلاميّ هو إنفاق فضل المال على الفقراءِ والمساكين، وعلى المصالح العامّة بما يوفّر الخدمة والخير للناس، وعلى ثغور الأمّة السياسيَّة والعلميَّة والعسكريَّة والإعلاميَّة والثَّقافيَّة، لكن هؤلاء ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ...﴾ عن تقديم العون والمساعدة، وكم في هؤلاء من قَوَارينَ زمنهم، مع العلم أن قارون كان منافقاً ولم يكن كافراً.
- ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧]، فهم لا يُقيمون الشعائر والمناسك التي تُذكّرهم بالله، وإذا فعلها بعضُهم فرياءً وخداعاً، ومن ثم فإنهم ساهون في صلواتهم، ولاهون في صيامهم، ومتباهون في حَجّهم، ولا يَذكرون الله في

كلّ عباداتهم إلا قليلاً، وهو الذِّكر الخالي من حضور العقل وخشوع القلب، وكلّ ذلك لا يُغني عنهم من الله شيئاً، ولذلك فإن الله ينساهم ليزدادوا فجوراً وإجراماً.

✧ **طمع المنافقين:**

في معرض تشريح القرآن لمنافقيّ زمن الصَّحابة، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤]، ويبدو أن جيلَ ذلك الزمان كان متقدماً في كلّ شيء، فمن يتابع كتابات وخطابات ومناشط منافقي هذا الزمن يُدرك أنّهم وصلوا في خداع الناس إلى حدٍّ انخداعهم هم، إذ ما زالوا يكرّرون أكاذيبهم، عبْرَ ما يملكون منَ أجهزةِ الدعاية ووسائل الإعلام وعبر مؤسسات صناعة الإشاعة وتوجيه الرأي العام، إلى حدٍّ أنهم صدّقوها، وربما لو كان هناك قرآن يتنزل لطمعوا بسورةٍ تشهد لهم بأنهم على الحقِّ وأن الإسلاميين على ضلال مبين.

وتزداد فتنة هؤلاء المنافقين نتيجة قيام بعض أصحاب العمائم وأدعياء العلم والصَّلاح بتدبيج الشهادات بأنهم صالحون مُصلحون، ونتيجة التمكين الذي يعيشون فيه منذ عقود عديدة ومراكمة النَّجاحات وتحقيق سائر ما يطمعون فيه.

✧ **فتنةُ الفاسقين:**

كلَّما زاد خروج المسلمين عن أوامرِ الإسلام واشتدّ فسقُهم عن أمرِ ربهم؛ ازدادت الفتن التي تبتلي تَديُّنَهم وتَمتحن صدقَهم، وكلَّما زادت الامتحانات زاد عدد السَّاقطين فيها.

قال تعالى عن اليهود الذين سكنوا أريحا وابتلاهم الله بكثرةِ الأسماك يوم السبت في البحر وحرّم عليهم اصطيادها: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وفي هذا النوع من فتنة الفاسقين يتيسَّر الحرام من الرِّزق ويتصعّب الحلال، وهذا ما نجده في بعض مجتمعاتنا المعاصرة ولا سيما في بعض القطاعات والمهن.

وما زال فاسقو مجتمعاتنا يتردَّوْن في دركاتِ الفسق باستخدام حِيَل الشيطان حتى يقعوا في الحرام، ثم يستمرؤون أموال الحرام، وتَعافُ أنفسُهم المريضة طلب الحلال، وتصل إلى حدِّ العشق للسُّحت وأموال الحرام.

✧ **الطابور السادس:**

مهما كانت جوانح المسلم مفعمةً بحبِّ الخير وممتلئةً بإرادةِ الانتصار له، فإنها بدون الوعي الفكريّ وفقه الواقع لا تغني شيئاً عن صاحبها، إذ قد يتدحرج إلى دركةِ الإرجاف الذي يَضرّ الجماعة المسلمة وهو يَظنُّ أنه يُحسن صُنعاً.

ولهذا وضع الله المرجفين بجانب المنافقين ومرضى القلوب في الإضرارِ بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠].

ولاحِظْ - قارئي العزيز - أن هذا التَّهديد الخطير وردَ في سورةِ الأحزاب، التي تحدَّثت عن المؤامرات الداخليَّة والخارجيَّة بما فيها تحدِّي المنافقين الذي يمثّل الطابور الخامس، ويمكن اعتبار المُرْجفين الطابور السادس.

❋ ❋ ❋

قبُورُ العَوَائد

✧ **قوّةُ العوائد:**

امتلكت العوائد عند العرب سطوةً هائلة، حتى أنها منعت بعضَهم من الإيمان بدينِ التوحيد رغم يقينهم بصدقِ محمد كعمّه أبي طالب.

لقد اعتادوا على الإيمان بآلهةٍ عديدة حتى لقد قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾؟!

وعندما أخبرهم بالبعث قالوا: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾؟! أي فيما اعتدنا عليه من طبائع وعوائد، ومنه قولهم: "عاد فلان في حافرته" أي في طريقته، وليس المقصود بالحافرة هنا العودة من القبور، إذ لو أرادوا ذلك لقالوا: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾؟!

✧ **الأُسْوةُ الاجتماعية:**

هناك عوائد اجتماعية يعتادها كثير من الناس وتصبح عُراها أوثق من العقائد، ومن ثم فإن تغييرها يحتاج من الدُّعاة والمصلحين إلى أن يكونوا قدوةً حسنة في هذا السياق.

وإن حادثة عمليَّة واحدة من مُصلحٍ ذي مكانةٍ اجتماعيةٍ عريضة لهيَ أقوى أثراً من ألفِ خطبة وموعظة.

وقد زوّجَ النبي (صلَّى الله عليه وسلَّم) قريبته الهاشمية زينب بنت جحش من مولاه زيد بن حارثة، ثم تَزوّجها بعد أن طلّقها زيد.

وبهذه الحادثة وجَّهَ ضربةً قاصمة لعادتين من العاداتِ الجاهليَّة الراسخة:

-الأولى: عدم تزويج المرأة ذات الطَّبقة الأعلى من رجلٍ ينتمي إلى طبقة أدنى، فكيف إذا كان من الموالي؟!

-الثانية: إبطال التبنّي الذي تنبني عليه سائر أحكام الأبناء الصُّلْبيين، وقد أبطل القرآن التبنّي نظرياً بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وعملياً بزواجِ النبيّ ﷺ من مُطلَّقة زيد الذي كان ابناً له في الجاهليَّة كما هو معروف.

ولحساسيةِ الأمرِ جاء الأمر من الله بالزَّواج، حتى أن زيد هو الصَّحابي الوحيد الذي ورد اسْمُه في القرآن، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ وذلك حتى تنغرس هذه القصَّة في أعماقِ الوعْي الجمْعيّ ولا تدخل أبداً في غياهبِ النّسيان.

✧ **الزواج الطَّبَقي والسُّلالي:**

إن الذين يرفضون تزويج بعض المسلمين، لاعتباراتٍ سلاليَّةٍ أو طبقيَّةٍ أو مهنيَّة، فإنَّما يَرُدُّون قضاء الله ورسوله بالمساواةِ والتكافؤ بين المسلمين.

ولتعزيز هذا المعنى قضت مشيئة الله أن يتنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، في قصَّة زينب بنت جحْش كما في بعضِ الروايات، حيث رفضت الزَّواج من زيد ثم عادت ووافقت عندما أدركت خطورة الرفض على إيمانها.

ومع أن النّص عامٌ في كلّ ما قضى الله ورسوله من أوامر ونواهٍ، إلّا أن حكمة الله ربطت الآية بهذه الصُّورة من الرفض، نتيجة القوَّة الشديدة في جواذبِ الأعراف وأغلالِ العوائد، وذلك حتى لا تبقى للناس أيّ ذريعةٍ لإقرارِ الطبقيَّة والسلاليَّة في قضيةِ الزَّواج.

إن هذا النّصَ يُدين سائر الانحرافات الحاصلة اليوم ولا سيما من الذين يَدّعون الانتماء لآل البيت ويرفضون تزويج بناتهم من غير الهاشميين، وكأن النصّ أيضاً

يَصِم من يفعل ذلك بعدم الإيمان بمحمد (صلَّى الله عليه وسلَّم) مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾.

✧ **حقيقةُ الصَّالحين:**

الصَّالحون حقاً هم الصَّاحون من نوم الغَفلة وخدَر الجَهالة، وهم المستيقظون من غيبوبةِ الجبرية والمتكئون على عِصيِّ الأسباب، وهم الخالون من خَمْرة الهوى والتقليد والناهضون من بين أرْكِمة العطالة والبطالة، ولذلك نجد كلمة (الصَّالحين) تزيد بحرفٍ واحدٍ عن كلمة (الصَّاحين).

وهؤلاء هم الصَّالحون لعمارةِ الأرض وفْقَ عَقْد الاستخلاف الوارد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، وهم المُستثمِرون للسُّنن البانية للدُّول والحضارات، والمستفيدون من التَّسخير الربانيّ لسائر الكائنات والظَّواهر في عمليَّة استعمار الأرض على الوجهِ الأكمل.

✧ **خطورة الزمن:**

قد يؤدي طولُ الأمد على المسلم إلى قسوة قلبه، وذلك إذا انزلقت الشعائر التعبدية من قمم الوعي والخشوع إلى قيعانِ التقاليد الخالية من حيويةِ التفكير وحرارةِ المشاعر، إذ أن طول الزمن يمنح الإنسانَ بَداهةَ الإلفة وبلادةَ الاعتياد وقد يُورثه مشاعر السآمة والضّجَر.

ومن أجْل هذا خاطب الله الصَّحابة بعد أمَد من تَنزُّل القرآن، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

ويروى أن أبا بكر الصِّديق رأى وفداً من اليمن وكانوا يقرؤون ويبكون، فقال: هكذا كُنّا!

مقاصدُ الحَجّ

(١-٢)

✧ **التذكير بوحدة الرّسالات واتصال الأزْمنة:**

لقد دعا الخليل إبراهيم ربَّه أن يجعله مستجاب الدَّعوة، ودعا مع فلْذةِ كَبِدِه إسماعيل بأن يجعل من ذرّيّتهما أمةً مسلمة، وأن يُريَهم مناسكَهم ويتوب عليهم، وأن يبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم الآيات ويُعلّمهم منهج القراءة (الكتاب) ومنهج التنزيل على الوقائع (الحكمة) قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨ - ١٢٩]

ولا بدَّ أن الله استجاب الدُّعاء فقد بنى إبراهيم الكعبة ثم بنى الأقصى الذي صار قبلة الأنبياء ردْحاً من الزمن، ثم استدار الزمانُ كهيئته أول مرة معيداً المسجد الحرام إلى الصَّدارة، فصار قبلةَ الأمَّة والملّة إلى قيام الساعة، إذ فُرض على المسلمين الصَّلاة نَحْوَه ودُعُوا للحجّ إليه، وذلك بغرض تخليد الرسالة الحنيفية الممتدة وربط الأجيال المتتابعة ببعضها، وتذكير المؤمنين بأن دينهم واحد ولو تنوّعت الشرائع وبأن الأزمنة متَّصلة ولو اختلفت الظروف وتغيّرت الوقائع، مما يفيض عليهم بقيمِ التسامح ويدفعهم للنّهْل من أنهارِ العِبَر والدروس.

✧ **تعظيم حُرُمات الإنسان وحقوقه:**

رغم أن ممارسات بعض المسلمين قد أظهرت الإسلام كأنه دينٌ لاهوتيٌّ جاء من أجل الله فقط، فإن المُتمعِّن في تعاليمه الشاملة والمُتنقِّل في أبهائه العظيمة يدرك

أنه جاء من أجل الناس، إذ تَزْرع كلُّ تعاليمه في وُجْدان أتْباعه تقديس حقوق الآخرين، دافعةً إياهم إلى تقديم المنافع ودَفْع المضار.

وينطبق ذلك على الحَجّ إذ لا يمكن أن يتقبّله الله إلا إذا كان مبروراً، والحج المبرور هو الذي ينجح ببناء دولة التّقوى في أفئدة القائمين به، قال سبحانه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، إنه دورةٌ تربويّة ضخمة في تهذيب طبائع وعادات الحُجّاج، ومنهجٌ متكاملٌ في تعظيم حقوق وحرمات الناس، بحيث يعود الحاجّ إلى بلاده وقد صار أفضل مما كان عليه في أخلاقه وتعاملاته مع الخَلْق، قال (صلَّى الله عليه وسلَّم): «من حجَّ هذا البيت فلم يَرفُث ولم يَفْسُق، خرج من ذنوبه كيومِ وَلَدَتْه أمُّه».

✧ **تجسيد عالميَّة الإسلام ووحدة المسلمين:**

منذ أن بَزَغتْ شمسُ محمَّد في أمّ القُرى والقرآن يتنزّل عليه بأفقٍ عالميّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]

ومثل كل قيم الإسلام وشعائره فإن الحج تجسيد عملي لعالميّة الإسلام التي تضمّ في أكْنافها العربيَّ والعجميّ، الأبيضَ والأسْودَ، القريبَ والبعيدَ، ولنتأمّل ملياً في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وفي أرجاء مكة وأكنافها وفي أنحاء جبل عرفة وسفوحه، تذوب الفوارق وتَضْمحلّ الخصوصيات، ويصبح الجميع كتلة واحدة في المظهر المادي، ويتحقق ذلك في المَخْبَر القلبي على قدْر الاجتهاد السببي واسْتَمْطار سحائب التوفيق الرباني.

وفي مكة يطوف الحُجّاج حول كعبة الله بانسجام تام، نابذين الدوران حول أفلاك العصبيات، ويعتلون في عَرَفة تلالَ الأخوة الواحدة، ويَبيتون بمُزدلفة في أحضان الوحدة الجامعة، وفي منى يَرْمون أصنامَ الجاهليات وجمرات العصبيَّات، ويَقذفون أباليسَ الإغراء والإغواء.

لقد وضَع الإسلام كل عصبيات الجاهلية وهدَم كل دعوات التميُّز، ورفَع الجميعَ إلى هضاب الأخوّة وتلال التَّسامح، ومَدَّ جسور المساواة والتآخي، وحَثَّ على التآزر والتناصر، ودرّب أتباعه على تمزيق أثواب الاستعلاء البغيض، وعلى توسيع عرصات الأخوة الجامعة.

ولاستعلاء القريشيين على قبائل العرب ببعض المظاهر، كالإفاضة من مكانٍ مختلفٍ بحكمِ أنهم سدَنة الكعبة، فقد حثَّهم الله على أن يفيضوا من حيث أفاض الناس.

وبهذا التّراصّ وتلك الوحدة انبعثت قوة الأمة من الأعماق فافتتحت كثيراً من الأنحاء التي ادّعى كبراؤها التّرفّع عن الخَلْق واحتكار الحق، وأصرّوا على امْتهان الأغْيار واضطهاد الضعفاء، فجاهدوهم حتى لم تكن فتنة وصار الدين كلّه لله، حيث الحرية التي تقول للجميع: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ولكن بعد توضيح الحق الذي ينساب من كلماتِ الخالق الذي يجازي الجميع بعدله وفضله.

❋ ❋ ❋

مقاصدُ الحَجّ

(٢-٢)

✧ **إبرازُ مقْصد التيسير:**

الحج هو أشَقّ العبادات بعد الجهاد، ومع ذلك فإن الله الذي قال لمحمد: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه:١، ٢] هو الذي فرض الحَجّ فقط على من استطاعَ إليه سبيلاً، ومن كان فقيراً أو ضعيفاً فلا يجبُ عليه الحج.

ثم إن من انطبقت عليه شروط الوجوب لا يُكلِّفه الله في الحجّ بما لا طاقة له به، ذلك أن المبدأ العام يقوم على: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ولأن السُّنّة مُبيِّنة للقرآن فإن من يقرأ كيفية حَجِّه (ﷺ) سيرى اليُسر والسّلاسة، وسيعرف أنه نهى عن التكلّف والقسوة على الذات، وعندما كان الناس يستفتونه في كثير من هيئات الحج وفرعياته كان يقول لكلّ أحد: "افعل ولا حَرَج"، تجسيداً ليُسْر الإسلام وسماحته.

وراعى الإسلام الفروق الفردية بين الناس في سائرِ مشاعر الحج، ففي مَشعر المبيت في منى ورمْي الجمرات مثلاً نجد قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

ولم يَقُل بأن المُتعجِّل لا إثم عليه وللمتأخر أجر أكبر، من أجل أن يُربّي المسلمين على التسامح واحترام التعدّد ويدفعهم إلى مراعاةِ طبيعة التنوّع في الخَلق.

✧ **المُزاوجة بين الدّنيا والآخرة:**

في الرؤية الإسلامية لا تفريق بين الدنيا والآخرة، فالآخرة هي الغاية والحصاد، لكن لا بدَّ من وسيلة الوصول ومن بذرة الحصاد وهي الدنيا.

ويُبْرز الحَجُّ هذه الخصيصة بجلاء، فقد علّل المولى عزّ وجَلّ إيجاب الحج بقوله: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[الحج: ٢٨].

والمنافع متعددة منها ما تخصّ المعاش ومنها ما تخصّ المعاد، ومن ذلك طلب الرِّزق حيث أجمع العلماء على جوازِ التِّجارة في موسم الحج، مستدلّين بالآيةِ السابقة، وبقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وفي سياق التّوجيه للاستعداد لموسم الحج قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، والأمر بالتزوّد في الآية يختصّ بالزادِ الماديّ، وبذلك يتعانق الزادان الماديّ والمعنويّ، وتتعاون حاجات الجسم ومطالب الرُّوح في بناءِ الشخصيَّة المتوازنة التي تستعمر الأرض وهي تتطلّع نحو السَّماء، والتي تُبَسْتِنُ الدنيا وهي تَسْتَشْوف الفردوس الأخروي!

ولوضوح هذا الأمر في بالِ النبيّ (ﷺ) فقد كان يدمج بين الدُّنيا والآخرة في أدعيتهِ حتى أثناء الحجّ، إذ كان أكثر ما يدعو بالدُّعاء القرآني: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

✧ **تنميةُ الرّوح الإيجابية:**

يبني الإسلام الرُّوح الإيجابيَّة في الشخصيَّة المسلمة من خلالِ العديد من محطات الحجّ، كإباحةِ المُتاجرة والحثّ على التَّعارف والتَّعاون، وتحريم سائر المحظورات حتى ولو كانت صغيرة، وجَعَل من كفّاراتها تعزيزاً للروحِ الايجابيّة، الفردية منها والجمعيَّة، وحثّ على اجتراحِ الخيرات جميعها.

ثم إنه يربط هذه الروح الإيجابيَّة بنماذج تاريخيَّة خلّد ذكرها عبر مشاعر ومحطّات الحجّ التي جسّدت مواقف تلك النماذج السَّامقة، كهاجر أمّ إسماعيل التي نزلت في وادٍ غير ذي زرع ثقةً بالله بعد أن عرفت من إبراهيم أن هذا أمره تعالى، وعندما انتهى الماء وعَطشَ وليدُها بحثت عن الأسباب التي ستحقّق وعد الله، وظلَّت تسعى بدأبٍ بين ما أصبحَ يُعرف بالصَّفا والمَرْوة.

إن تخليد الإسلام لقَلَقها البشريّ وتحرُّكها السّببيّ، هو تخليدٌ لقيمةٍ الإيجابيَّة وإبراز لأهميةِ الأسباب ومشاعر المسؤولية.

ويعطينا القرآن درساً آخر من دروس الإيجابيَّة في الحَجّ، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، فإن المقصود بذكرِ الله المَبيت في مِنَى، وأهم ما يتم عمله هناك هو رمْيُ الجَمَرات التي تُجسِّد إبليس ووسوساته، وقد أوردت الآية الأمر بذكرِ الله في هذه الأيام ولم تتحدَّث عن الشَّيطان، إشارةً إلى أن العامل الأساسيّ في الاستجابة للشّيطان هو غفلة الإنسان عن الله، ولقد انتصرَ إبراهيم على الشيطان باستحضارهِ لجلال الله، وسيظلّ ذكر الله هو الدِّرع الذي من لبسه أمن من سهامِ إبليس مهما كانت قوية.

إن ذكر الله يمنح المسلم النَّباهة العقليَّة واليقظة الروحيَّة مما يلغي قابليَّته لتسللِ الشَّيطان.

ومع أن كيد الشيطان ضعيف، فإن الإنسان إن لم يتحصّن منه بالذكر فقد يصير مجرد لعبة بين يديه.

❋❋❋

الفهرس

مقدمة..... ..... ٧
مَزَامِيرُ التَّرَقّي ١١
نسبيّة الإنسان ١٤
تلال التخصّص ١٧
اقتباسات قرآنيّة ٢٠
أَشِعَّةٌ قُرآنيةٌ ٢٣
نِسْبيَّةُالكائنات ٢٦
الثمار الفكرية للفردوس..... ٢٩
أضْرارُ التَّـــرَفِ ٣٢
نِسبيَّةُ الشُّرور ٣٥
بَـصَائِرُ التَّـدَبُّـر ٣٨
غرَرُ المَظَاهِرِ ٤١
اسْتِشْرافُ المُسْتَـقْبَل ٤٣
مَصَـابِيْـحُ الـنُّـورِ ٤٦
الثِّمار الفِرْدَوسيّة لآدم١ ..... ٤٩
الثِّمار الفِرْدَوسيّة لآدم٢ ..... ٥١
الثِّمار الفِرْدَوسيّة لآدم٣ ..... ٥٥

الثِّمار الفِرْدَوسيّة لآدم٤ ..... ٥٩
بَصَائِرُ الْقُرْآنِ ٦٣
بَـوائــقُ النِّفَـــاقِ ٦٦
فَوائدُ الشَّدائد ٦٩
سِيقَـانُ الاسْتِقَامَة ٧٢
نِسبيَّةُ الأَلْوان ٧٥
نَفَائِسُ القَصَص ٧٧
وَشَائِجُ التَّـآلُف ٨٠
صَواعِقُ الرَّحْمةِ ٨٣
الإعْجازُ البِنَائيُّ ٨٦
خَـلائِقُ الْقِيَـادَة ٨٩
جَزائرُ الإيجابيَّة ٩٣
اسْتِسْقَاءُ السَّمَاءِ ٩٥
مَرَاقي التَّرَقِّي ٩٨
اقْتِبَـاسَاتٌ قُرْآنِيَّـة ١٠١
أَنْفَـاسُ التَّـدَبُّر ١٠٤
أَفْيَاءُ الاخْتِيار ١٠٦
التّناسُب العَادِل ١٠٩
فَجَوَاتُ الشَّقَاءِ ١١٢

أثْـقالُ الإسْتِقامَة ١١٥
مَوازِينُ الْعَدْلِ ١١٨
عَوَاقِبُ الظُّلْمِ ١٢١
نِسْبِيَّة الْقِيَم ١٢٤
بُدُور (بَدْرٍ)! ١٢٦
أَلْـبَابُ التّـدبّـر ١٢٩
مقاصد الصيام ١٣١
سَوَاقي الآيات ١٣٣
قَناديلُ المَالُ ١٣٥
كنوزٌ رمضانية ١٣٨
ذَخَـائِر التَّـدبُّر ١٤١
سَجَايَا السُّجود ١٤٤
جسور التدبر ١٤٧
شروط الدعاء ١٤٩
مقاليد الدُّعاء ١٥٢
مَباهِجُ الصَّلاة ١٥٥
يَوَاقِيتُ التقوى ١٥٨
معارج النعيم ١٦١
أكَاسِيرُ السّعادة ١٦٤

سَبَائكُ الشُّكْر ١٦٧
مُرُوجُ الجنس! ١٧٠
آمَـالُ الظَّـفَرِ ١٧٣
قناديل اليقين ١٧٦
أَسْرارُ الأرْزَاء ١٧٩
آفاتُ الاختلاف ١٨٢
أشْواقُ الوِفاق ١٨٥
منابِعُ التّفرُّق ١٨٩
أغْوالُ التّقْديس ١٩٢
مُلاّكُ الحقائق ١٩٥
غَوائلُ الطُّغاة! ١٩٨
صُنَّاعُ الطُّغاة ٢٠١
جَواهر مُوسَوِيةٌ ٢٠٣
دروسُ هارون وموسى ٢٠٦
أسْرَارُ البَلايَا ١ ..... ٢٠٩
أسْرارُ البَلايَا ٢ ..... ٢١٢
مَعالمُ الابتلاء ١ ..... ٢١٥
معالمُ الابتلاء٢ ..... ٢١٨
المُواطنةُ المتساوية ٢٢١

أزَاهيرُ الدُّنيا ٢٢٤
أكْمامُ الضَّحِك ٢٢٧
باقَاتُ النّقْد ٢٣٠
مسارِبُ السُّنَنِ ٢٣٣
خِلالُ المُحْسنين ٢٣٦
أشْوَاقُ الشورى ٢٣٩
غوَائلُ الألباب ٢٤٢
مَدَاخِنُ الذُّنوب ٢٤٥
بَدائعُ الأَمْوال ٢٤٧
جامعةُ الدّواب ٢٥٠
فِتَنُ التَّخلُّف ٢٥٣
مدَارجُ العُروج ٢٥٦
نِسبِيَّةُ الأشياء ٢٥٩
نسبِيَّةُ الأفْعال ٢٦٢
عظائمُ الفُرْقان ٢٦٥
ثُقُوبُ الإيمان ٢٦٨
نسبيَّةُ الكيد ٢٧١
حِبالُ التقليد ٢٧٤
استيعابُ الوقائع ٢٧٧

عطاءُ الكرامة ٢٨٠
تَكامُلُ المَعارِف ٢٨٢
عُشّاقُ الانحطاط ٢٨٥
فُرْسانُ العمل ٢٨٨
مَسَالِكُ السّائرين ٢٩١
بَوائقُ المنافقين ٢٩٤
قبُورُ العَوَائد ٢٩٧
مقاصدُ الحَجّ ١ ..... ٣٠٠
مقاصدُ الحَجّ ٢ ..... ٣٠٣